موسوعة الاغتيالات
ومحاولات الاغتيال في العالم

الجزء العاشر

د. سليم الياس

موسوعة
الاغتيالات ومحاولات الاغتيال
في العالم

تنويه

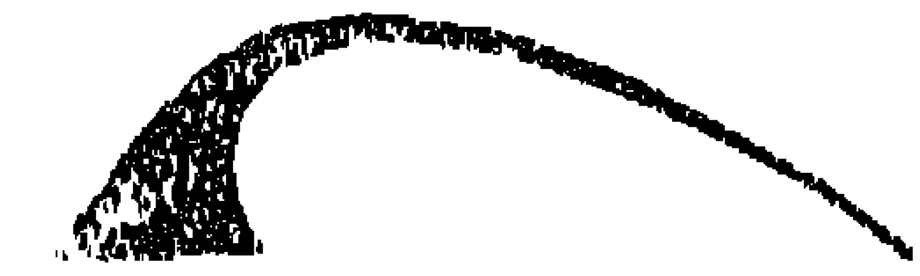
أولاً: إن عرض هذه الموسوعة من حوادث الاغتيال قد تم سرد مواضيعها حسب التسلسل الزمني لوقوع حادث الاغتيال، حيث أنها لا تندرج بأيّ شكلٍ من أشكال التصنيف أو الترقيم.

ثانياً: إن المواضيع التي وردت في موسوعة الاغتيالات ومحاولات الاغتيال في العالم لا تعبِّر بالضرورة عن رأي مركز الشرق الأوسط الثقافي أو عن رأي المؤلف، وإنما هي مستقاة من المراجع والمستندات والمواقع الإلكترونية والتي تم ذكرها في هوامش كل موضوع، وبذلك فهي لا ترتب أية مسؤولية قانونية لا على الناشر ولا على المؤلف.

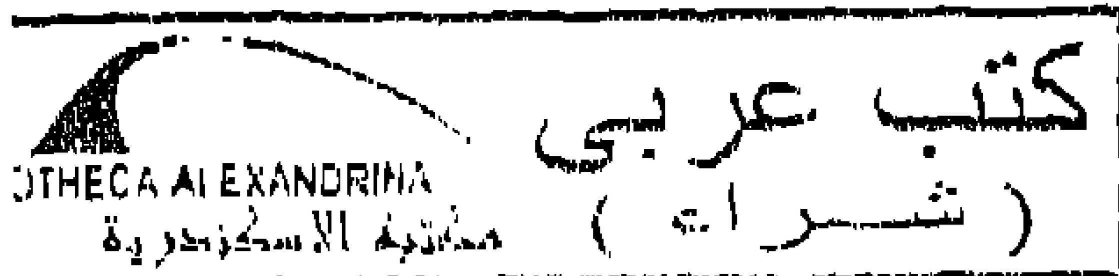
الناشر

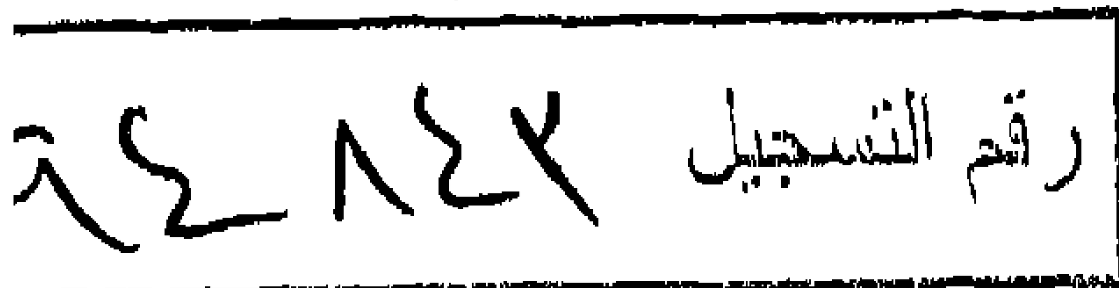
سليم الياس

موسوعة
الاغتيالات ومحاولات الاغتيال
في العالم



الجزء العاشر





مركز الشرق الأوسط الثقافي

الطبعة الأولى

1427 هـ 2006 م

مركز الشرق الأوسط الثقافي

للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

The Middle East Cultural Centerr

For Printing, Publishing, Translation & Distribution

الإدارة العامة:

بيروت ـ الحدث، هاتف: ٤٦١٨٨٨ ـ ٥ ـ ٩٦١

فاكس: ٤٦١٧٧٧ـ٥ـ٩٦١ـ خليوي: ٦٤٠٤٩٠ـ٣ـ٩٦١

Web site: www.lccpublishers.tk

General Management:

Beirut - Hadath, Tel: 961 -5 -461888

Fax: 961 - 5 - 461777, Mobile: 961 - 3 - 640490

E-mail: lcc_pub@Yahoo.com

لماذا الاغتيال؟

إن للاغتيال وجهين، وجهاً ذاتياً، وآخر موضوعياً. الوجه الذاتي، يتعلق بالمقومات الذاتية للإنسان المعرض للاغتيال، ولشبكة العلاقات التنظيمية التي تحكم وتنظم مسار حياته وإطاره المجتمعي والسياسي، وقابليته للفعل، والتأثير والتواصل عبر تسلحه بقوانين العمل الثوري.

أما الوجه الموضوعي، فهو الظرف المحيط بهذا الشخص، وطريقة عمل العدو وقدرته من الاستفادة من نقاط قوته في مواجهة الخصم بجوانب ضعفه، فعندما تبدأ مقدمات النضال بمقومات ذاتية، وبشبكة علاقات تنظيمية وقابلية للفعل والتأثير والتواصل عبر تسلحه بقوانين العمل الثوري، فإن الوجه الذاتي يكون من حيث القوة والتماسك والصلابة بحيث يمكن من إفشال محاولات الاغتيال، وفي أقل تقدير فإنه يحبطها أو يؤجلها أو يجعل نتائجها مكلفة، بحيث لا يمكن أن تقدم الموساد على عملية اغتيال، إلا بعد حسابات معقدة ودقيقة.

لقد كان الحديث في الاغتيالات التي تقوم بها أجهزة المخابرات خاضعاً في الغالب للتناول الصحفي السريع الذي لا يذهب أبعد من النظرة التسجيلية، غير قادر على تحليل الأسلوب

وأبعاده، ناهيك عن معالجة وسائل مقاومته وطرق اتقائه وفي بعض تناول أساليب الاغتيالات ما ينضوي تحت بند ما يسمى برواية الجاسوسية.

- حرب الاغتيالات:

إن أسلوب الغدر والقتل غيلة لا يخضع لقاعدة، حيث أن القاتل يتفادى الانكشاف وافتضاح أمره، فيعمد إلى السرية في التنفيذ، ويعتمد على عنصر المفاجأة. صحيح أن المعركة تعتمد بعمومها على المفاجأة، ولكنها علنية في التنفيذ، وتفقد عنصر المفاجأة بعد بدايتها، ولا تترك لنا دروساً نستخلصها منها، ومجالاً لدراسة الأساليب التي استخدمت فيها، إنما الأساليب المتبعة في الاغتيالات تظل سراً، حتى بعد تنفيذها، فنادراً ما يتم انكشاف المنفذين والتحقيق معهم وعادة ما تميل الأجهزة الأمنية إلى عدم نشر نتائج دقيقة للتحقيق في مثل هذه الحالات لأسباب تتعلق بسرية الحروب التي تدور بين الأجهزة الأمنية المختلفة، وكون هذه الأساليب من أسرار المهنة التي تحرص الأجهزة الأمنية على اختلافها ألا تنكشف.

إن هذه الموسوعة تتناول فترة زمنية فسيحة تبدأ بالملك الآشوري سنحاريب الذي اغتيل في العام 681 قبل الميلاد وتنتهي بمتفجرة مدينة صيدا، والتي أودت بحياة أحد مسؤولي «حركة الجهاد الإسلامي الفلسطيني» محمود المجذوب وشقيقه نضال في 26 أيار/ مايو 2006، وبينهما ما يقارب الألفين وسبعماية سنة. وهي فترة اختلفت فيها الظروف والوقائع السياسية والأفكار والدوافع والطرق والأهداف، بل

اختلفت فيها معسكرات الأصدقاء والأعداء، وهذا هو الأهم، فليس خافياً أن الصراع الذي كان دائراً بين شبكة المخابرات السوفييتية وبين الأميركية حكمته تقاليد وعادات في إدارة المعركة أثرت على الثورات في العالم وأسلوب معالجتها لحرب الاغتيالات. ومع سقوط الإتحاد السوفييتي أصبحت الخيارات محدودة والأساليب الواجب اتباعها في إدارة المعركة بحاجة إلى ابتداع واكتشاف، أو على الأقل غير مجربة وغير مدروسة بما فيه الكفاية.

- في الصراع العربي - الإسرائيلي:

إن أبرز الصراعات الذي انتهى إليه القرن العشرين وبدأ به القرن الواحد والعشرين هو الصراع العربي - الإسرائيلي أو على وجه التحديد الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، وهذا الصراع يطرح السؤال الأوحد والأهم، ما هو العامل الذاتي في نجاح عمليات الاغتيال؟ أي كيف سمح الشهيد للموساد بالوصول إليه، بغض النظر عن قدرات الموساد والوسائل التي اتبعها في تنفيذ عملياته، وكذلك ما هو العامل الموضوعي في نجاح عمليات الاغتيال، أي ما هي الظروف المحيطة بالشهيد التي استطاع الموساد أن ينفذ جرائمه في مجالها محاولين ملامسة نقاط الضعف الذاتية والموضوعية، لعل المناضلين يتجنبونها في حربهم المستعرة مع عدو شرس يقظ لا تضبطه أخلاقيات أو معايير إنسانية.

- رؤية في تاريخ الاغتيالات:

تستخدم الاغتيالات منذ فجر التاريخ في الصراعات السياسية، ولكن اليهود معروفون باللجوء إلى الاغتيال كأسلوب قذر في

حربهم ضد خصومهم، بل هم اغتالوا الأنبياء والرسل، كما يخبرنا القرآن الكريم، لأن اليهود يعتبرون، في تعاليم التلمود وتفسيراتهم للتوراة، أن من حقهم اللجوء إلى أي أسلوب يساعدهم في بسط نفوذهم على الآخرين وتحقيق مصالحهم، منطلقين من تصنيفهم العنصري للبشر حيث اليهودي هو الأفضل والأرقى (شعب الله المختار)، الآخرون هم «الغوييم»، أي الأغيار الذين لا يمتلكون صفة البشرية الكاملة، وليس لهم بالتالي حرمة في أرواحهم وأموالهم، ومن حق اليهودي قتل غير اليهودي وسلبه ماله وخداعه، لمجرد كونه غير يهودي.

ـ اغتيال يوحنا وزكريا:

لقد قتل اليهود نبي الله زكريا عليه السلام بأبشع صورة، فشقوه نصفين بالمنشار، وقتلوا نبي الله يوحنا بن زكريا (المعمدان) وهو قائم يصلي في المحراب، فذبحوه وقدموا رأسه على طبق للحاكم الروماني.

وحاولوا قتل نبي الله محمد ﷺ، وكان قد ذهب إليهم في بني النضير في دية قتيلين، فقال اليهود بمكر يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، وعندما وجدوا فراغاً أمنياً حيث كان الرسول لوحده، ولم يكن أحد من أصحابه معه، خلوا إلى بعضهم بعضاً، ووجدوا الفرصة مؤاتية، وقالوا إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذا، والرسول ﷺ متكئ على جدار من بيوتهم، وتآمروا أن يعلو أحدهم سطح ذلك البيت فيلقي على رسول الله ﷺ صخرة، «فيريحنا منه» كما قالوا، فانتدبوا لذلك

عَمْراً بن جحاش بن كعب، فقال أنا لذلك، وصعد ليلقي عليه الصخرة فيقتله، فأتى الخبر من السماء للرسول ﷺ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة.

ـ اغتيال شعب:

وفي القرن العشرين، بدأت مأساة الشعب الفلسطيني، عندما سلط الغرب الاستعماري الصهاينة على الأمة العربية والإسلامية، فيحولوا بدسائسهم ومكرهم وإجرامهم دون أن يجد العرب والمسلمون فرصة ليتخلصوا من شرور الاستعمار، وبدأ الصهاينة في التآمر على أمتنا لاغتيال وجودها، فلم تكن حوادث الاغتيال التي نفذوها ضد شعبنا مجرد حوادث اغتيال فردية، في سياق الصراع السياسي، ولكنها كانت حلقة من مسلسل اغتيال شعب كامل هو الشعب الفلسطيني واغتيال هوية أمة هي الهوية العربية والإسلامية.

بدأت عمليات الاغتيال في هذه الهجمة بالوسيط الأممي الكونت السويدي فولكي برنادوت الذي عينه مجلس الأمن الدولي في 20/ 5/ 1948م، كوسيط دولي في الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وقد اغتيل برنادوت في 17/ 9/ 1948 في القدس على يد وحدة كوماندوز من حركة «ليحي» ـ أي محاربي إسرائيل ـ التي كان اسحق شامير رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق أحد قادتها، وكانت هذه الحركة تأخذ على الدبلوماسي الدولي أنه أراد تعديل خطة التقسيم التي اعتمدتها الأمم المتحدة في 29/ 10/ 1947م، مما اعتبره الصهاينة تعديلاً لصالح العرب. وقد قتل في عملية الاغتيال هذه

أيضاً ضابط فرنسي كبير هو العقيد أندريه سيروا، وكان القادة الإسرائيليون السياسيون على دراية بعملية الاغتيال هذه.

ـ اغتيال العلماء:

شهدت نهاية الحرب العالمية الثانية، سقوط ألمانيا النازية، وفرار عدد من العلماء الألمان إلى القاهرة. وحاول جمال عبد الناصر، بعد ثورة تموز/ يوليو الاستفادة من بعض هؤلاء العلماء لبناء مصانع لإنتاج الأسلحة وتكنولوجيا الحرب المتطورة، وخشي الصهاينة من طموحات عبد الناصر لبناء دولة قوية تهدد وجودهم وإحتلالهم لفلسطين، فقرر الموساد الإسرائيلي القيام بخطوات استباقية لتدمير هذا المشروع في المهد، وقام بإرسال طرود ملغومة لقتل العلماء، فأصيب البروفيسور ولفغانغ بيلز بجروح خطيرة وقتلت سكرتيرته في انفجار طرد ملغوم، وقتل خمسة من العمال المصريين في انفجار طرد ملغوم في مصنع صواريخ «هيليو بوليس».

وهناك الكثير من الشكوك حول ضلوع الصهاينة في اغتيال بعض العلماء العرب في دول أوروبا الغربية وأميركا الشمالية، وقد تأكد دور الموساد الإسرائيلي في اغتيال العالم المصري الشهير يحيى المشد، وهو أحد أبرز علماء الفيزياء النووية، وكان يدير في باريس صفقة مع «مصنع سارسيل» لشراء كمية من اليورانيوم لاستخدامها في بناء المفاعل الذري العراقي. وقد استطاع الموساد الاطلاع على تيليكسات تذكر تفاصيل برنامج سفر المشد والمكان الذي سينزل فيه (وهو الغرفة 9041 في فندق «الميريديان» بباريس)

مما سهل عليهم وضع أجهزة تنصت في غرفته قبل وصوله وتسلل اثنان من عملاء الموساد إلى غرفته وهو نائم، وذبحاه، وفي صباح 13/ 6/ 1980م، عثر على جثته غارقة في الدماء.

ـ اغتيال الأسرى:

بعد إحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة عام 1967م، شهد قطاع غزة حرب عصابات باسلة شنها مجاهدو شعبنا ضد الإحتلال. وقد لجأت أجهزة الموساد الإسرائيلية إلى حرب الاغتيالات ضد المناضلين، في محاولة من الإحتلال للقضاء على جذوة الثورة وعمد الإحتلال إلى تصفية الأسرى، وهذا مخالف لقوانين الحرب في كل الشرائع واللوائح الدولية.

لقد قام جهاز الـ «شين بيت» بإلقاء القبض على المجاهد عبد ربه عفانة، إثر قيامه بعملية عسكرية، وتمت تصفيته مباشرة، وألقي القبض على الشهيد محمد أبو جامع بعد خطف باص في تل أبيب، وأعدم على الفور وألقي القبض على الشهيد مصباح الصوري بعد اشتباك مع حاجز عسكري في غزة، وأعدم فوراً بعد استجوابه، وأعدم الشهيد حسن أبو ركبة بعد استكمال التحقيق معه، خارج السجن غربي جباليا، وأعدم الشهيد عطية الزعانين أثناء التحقيق بعد أن عجز المحققون عن انتزاع معلومات منه، وأعدم الشهيد خالد الشيخ علي بطل عملية الشيخ عجلين في التحقيق، وأعدم الشهيد صبحي أبو ضاحي على باب منزله، وأعدم الشهيد موسى المقيد على بعد أمتار من منزله، وأعدم الشهيد وصفي أبو دية على باب منزله.

واغتيل الشهيدان عبد القادر أبو الفحم وراسم حلاوة في إضرابات السجون، واغتيل الشهداء خميس عليان وعيسى أبو لغد وحمزة المحلاوي بانفجار عبوات مفخخة في نقاط مميتة.

وقد أعلنت مؤسسة التضامن الدولي في بيان لها وزعته يوم 10/ 12/ 1994م، أن عدد المعتقلين الفلسطينيين الذين استشهدوا داخل سجون الإحتلال بسبب التعذيب وقسوة أساليب التحقيق منذ اندلاع الانتفاضة بلغ 35 شهيداً، حيث سجل العام الأول للانتفاضة أعلى نسبة من الشهداء الذين سقطوا داخل السجون وبلغ عددهم 21 شهيداً.

ـ اغتيال المفكرين والمثقفين والسياسيين:

لم يكن ناجي العلي يحمل رشاشاً أو بندقية، ولكنه كان مناضلاً، لم يحمل سوى الحب الغامر للإنسان ولوطنه، ولكن عواصم الوطن العربي الكبير لم تتسع لجرأته ورأيه الحر الذي كتبه بريشته في رسومه الكاريكاتورية الحزينة، فهاجر إلى لندن، وكانت رسومه تعبيراً حياً عن كل ما هو ممنوع ومقموع في قلب كل عربي، ولذلك خافت من رسوماته الأنظمة، وأفزع صوته الصهاينة. لقد كانت رسوماته ثورة، فبدأ الموساد يخطط لوسيلة مناسبة لتنفيذ عملية اغتيال ناجي العلي، ولأن بعض القيادات في منظمة التحرير الفلسطينية كانت تكن لناجي العلي كراهية شديدة بسبب جرأته وفضحه لكل ما هو سلبي، مما كان يطال هذه القيادات برذاذ الفضيحة، استغل الموساد هذه الثغرة، وأرسلوا مجموعة اخترقت جهاز الأمن الرئاسي الفلسطيني المعروف باسم قوات17، وأوحت

للمسؤولين ضرورة اغتيال ناجي العلي، وقتلوه بأيد فلسطينية، فكانت تلك أول عملية مشتركة بين الموساد الإسرائيلي وأجهزة فلسطينية.

وقبلها كان الموساد قد أرسل رسالة مفخخة لأنيس الصايغ مؤسس ورئيس مركز الدراسات الفلسطينية الذي كان أهم مركز أبحاث فلسطيني، ولكنه نجا بأعجوبة وكذلك تم اغتيال كمال ناصر وغسان كنفاني، وعبد الوهاب الكيالي الذي ترأس مركز الدراسات الفلسطينية بعد أنيس الصايغ.

ـ أساليب الاغتيال:

اعتمد الاغتيال السياسي منذ نشأته لضرب المناهضين من ساسة ومقاومين ومفكرين. وتنوّعت أساليب الاغتيال حسب الفترة الزمنية والرجل المستهدف وطبيعة المنطقة والظروف المختلفة في السياسة على مختلف المستويات المحلية والإقليمية والدولية وغيرها.

أولاً: أسلوب الرسائل المفخخة:

هو أسلوب استخدم منذ وقت مبكر للاغتيال نظراً لسهولته النسبية. وكان من أوائل من استُخدم ضدّه هذا الأسلوب مصطفى حافظ الذي أرسله الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر إلى قطاع غزة خلال الخمسينيات لتنظيم العمل الفدائي هناك. وقد عرف هؤلاء الفدائيون فيما بعد بفدائيي مصطفى حافظ واستطاعوا تنفيذ عمليات عسكرية في العمق الصهيوني. وقد استطاع الكيان الصهيوني اغتياله بواسطة بريد مفخخ في حزيران/ يونيو 1956 كما أصيب بالبريد المفخخ بسام أبو شريف الناطق الرسمي باسم

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في العام 1972 في بيروت، ومدير مركز الأبحاث الفلسطينية الدكتور أنيس صايغ.

واستعمل الفلسطينيون نفس أسلوب الرسائل المفخخة، فلم يكن الأسلوب حكراً على الجانب الصهيوني، ففي 19/ 8/ 1972 استلم مدير محطة الموساد في السفارة الإسرائيلية في لندن أمير شاشوري رسالة مفخخة انفجرت به فقتلته على الفور. وقد اتخذت العديد من التنظيمات الفلسطينية عدداً من الإجراءات لتحاشي وقوع مثل هذه الانفجارات، منها المحافظة على سرية صناديق البريد، فتح سجل يومي للبريد الوارد مع ذكر التاريخ والمصدر والبلد القادمة منه ونوعية وموضوع المادة. كذلك عدم فتح الطرود والرسائل في مكان يكثر فيه تواجد أعضاء الحركة، أو في المكاتب، ويكلف شخص مختص ومزوّد بالإجراءات والأدوات اللازمة بفتح الطرود والرسائل. ويتم اختيار مكان أمين ومعزول لفتح الرسائل.

ثانياً: أسلوب تفخيخ السيارات:

إن تفخيخ السيارة لا يحتاج إلى خبرة عالية أو وقت طويل، فقط يحتاج إلى شخص لديه خبرة عامة في كهرباء السيارات، ويمكن أن تفخخ السيارة عبر مفتاح التشغيل، وفتح الباب ودعسة الفرامل، وكابح الفرامل الخلفية، وعلى الغيار الخلفي ودعسة البنزين وعلى ضوء الفيوز والضوء العادي، والضوء العالي وعلى الغماز اليمين واليسار والجلوس على الكرسي ودوران العجلات، وجميع هذه الأشكال تعتمد على وصول التيار الكهربائي للعبوة عبر

تشغيل أي قطعة من القطع الآنفة الذكر. لذلك يجب أن لا تعطى المفاتيح الخاصة بسيارة المستهدَف لأحد خوفاً من أن يقوم مترصدون بأخذ نسخ منها، كما حصل مع إبراهيم بني عودة الذي فجّر سيارته أحدُ أقاربه. كما أنه يجب أن يكون للسيارة جهاز إنذار خاص، ووضع علامات مميزة للأبواب والغطاءين الأمامي والخلفي، والتأكّد من إغلاق الأبواب وتأمينها. ويجب التأكّد من أنه لم يحدث أي تغيير على الإشارات التي تُركت ليلاً في السيارة. ويجب فحص جسم السيارة من الأسفل كل يوم صباحاً خوفاً من أن تكون المتفجّرات غرست في أسفلها.

أن أكثرية الذين تعرّضوا لأسلوب تفخيخ السيارة لم يتخذوا الإجراءات الضرورية والأساسية للحماية، من الكاتب غسان كنفاني في بيروت إلى بسام الشكعة في الضفة الغربية وغيرهما الكثير. وربما كان ذلك تحت ثقل التراخي الأمني أو النمط اليومي، أو عدم تفكير بعضهم بأنهم مستهدفون لعدم انشغالهم بالعمل العسكري أو الأمني، مع أن التجارب أثبتت أن كل فلسطيني مهموم بقضيته سواء كان سياسياً أو أديباً أو صحفياً أو عسكرياً مستهدف من الموساد.

ثالثاً: تفجير السيارة عن بعد:

وهي تقنية لا تحتاج إلى تعقيدات ووقت زمني، وإجراءات العملية تتم في عدة ثوانٍ فقط، يقوم فيها شخص بوضع عبوة لاصقة أسفل السيارة وهذه العبوة تلتصق بجسم السيارة بمجرّد وضعها، وفي داخل العبوة جهاز استقبال يعمل وفق تردّد محدّد،

وعلى بُعد ما بين خمسين أو مائة متر في مساحة مفتوحة أمام رؤية البصر يقف الأشخاص أو الشخص الذي سيفجر العبوة، ومن خلال جهاز إرسال في يده يرسل التردّد المحدّد لجهاز الاستقبال فور أن يكون الهدف جاهزاً للتفجير. وبضغط من الإصبع ينتهي كل شيء ويختفي القتلة بسيارة معدّة مسبقاً مستفيدين من حالة الهلع التي يسببها الانفجار.

رابعاً: إطلاق النار عن قرب:

إن هذا الأسلوب اعتمد في العديد من الاغتيالات في العالم، وهو يتطلب القدرة الكافية: من لياقة بدنية، وأعصاب قوية، ويكون الجاني رامياً ماهراً، وأغلبية منفذي هذه العمليات يكونون من أجهزة المخابرات المدربة تدريباً عالياً.

خامساً: اقتحام المنزل:

إن أسلوب الاغتيال بواسطة اقتحام المنزل وتصفية من بداخله عادةً ما كانت تقوم بها العصابات المسلحة أو وحدات كوموندوز، ومن الذين اغتيلوا بهذه الطريقة كمال ناصر، وكمال عدوان وأبو يوسف النجار على يد مجموعة كوماندوس تابعة للموساد بقيادة إيهودا باراك في 10/ 4/ 1973، عندما اقتحمت الشقة التي كانوا يقيمون بها في بيروت وأطلقت النار عليهم. وكان القادة الثلاثة يسكنون في بناية واحدة في شارع فردان، حيث تخلو المنطقة من أية كثافة فلسطينية أو لبنانية شعبية، فكانت البناية هدفاً سهلاً للاصطياد. ويجب على المسؤول أو المطلوب أن يجعل حراسات على البناية التي يكون فيها، وألا يغادر المرافقون تحت أي ظرف،

وأن يتخلى عن الحركة المنتظمة في المجيء إلى المنزل ومغادرته. كما توجب الاحتياطات الأمنية وجود باب حديدي أو كهربائي يعيق حركة القتلة، ومسح ديمغرافي للمنطقة، أي دراسات عن سكان البنايات المجاورة والتأكد من خلو المكان من المراقبة الأمنية.

وكذلك ما حصل مع داني شمعون، حيث اقتحمت منزله مجموعة من المسلحين المجهولي الهوية وقاموا بتصفيته هو وعائلته.

إن عملية اقتحام منزل تحتاج إلى جمع معلومات دقيقة ومسبقة، وإلى تفصيلات والتقاط صور من جميع الزوايا والأركان للمكان المراد مهاجمته، كما يجب أن يؤخذ بالاعتبار جميع الطرق المؤدية إلى الهدف، والأخطار المحيطة بها، وكذلك طرق الانسحاب، إضافة إلى معلومات مفصلة عن الشخص المراد اغتياله والقوى التي تهبّ لنجدته. فالاغتيال يحتاج إلى أكثر من شخص، والحذر والإجراءات الأمنية كفيلة إلى حدّ بعيد بإفشال هكذا نوع من الاغتيالات.

سادساً: تفخيخ الغرف:

يعتمد هذا الأسلوب على وضع عبوة لشخص في غرفة نومه، إما تحت السرير أو قريباً من جهاز الهاتف أو الباب، ويتم تفجيرها بالضغط، أو بالتحكّم عن بعد، أو بالضغط على زرّ الإنارة، ويكثر هذا الأسلوب في الفنادق.

سابعاً: السمّ:

إن هذه الوسيلة التي كانت أسلوباً من أساليب الاغتيال قد

اعتمدت منذ أقدم العصور، فكان السم من أبرز الوسائل لتصفية الخلافات بين الحكام والمتنافسين، وكانت تنفذ بالإجمال بواسطة النساء والخدم.

أما في العصر الحديث فقد استعمله الموساد كأسلوب سهل في عملياتها لتصفية القادة الفلسطينيين، وأبرز من حاول الموساد اغتياله بالسم هو الأستاذ خالد مشعل، رئيس المكتب السياسي لحماس، وفشل جهاز الموساد في هذه المهمة التي أضحت من أبرز فضائحه، أما أبرز نجاحات هذا الجهاز فكان اغتيال وديع حدّاد الطبيب الفلسطيني وأحد أبرز قيادات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، الذي استطاع التخطيط لعدد من عمليات خطف الطائرات. فقد وُضع السم له في بغداد وتفاعل ببطء ليحدث نوعاً خطيراً من سرطان الدم ولم ينفع معه العلاج فمات في 28/ 3/ 1973. ومازالت الشكوك تدور حول تسميم الرئيس السابق للسلطة الفلسطينية ياسر عرفات بالسم البطيء الذي أدى إلى سرطان الدم. وينبغي لتجنب هذا النوع من الاغتيال الحذر من التردّد المستمر على المقاهي، وعدم الاعتماد على أشخاص أجانب في إعداد المأكولات والمشروبات في المنزل.

ثامناً: القصف بالطائرات:

لقد أخذت إسرائيل حق الملكية الفكرية وحق الاختراع لهذا الأسلوب من عمليات الاغتيال، ويقف على رأس قائمة المستهدفين بهذا الأسلوب الإمام الشهيد أحمد ياسين، مؤسس حركة حماس، والشيخ عباس الموسوي، الأمين العام لحزب الله وأبو علي مصطفى

الأمين العام للجبهة الشعبية والدكتور عبد العزيز الرنتيسي، وعدد آخر من قيادات حماس. إن التقنيات العالية التي باتت تستخدمها الطائرات المزودة بأحدث آلات التصوير والمراقبة جعل هذا الأسلوب يتصدّر كل أساليب الاغتيال. فالطائرة التي تراقب المنطقة ترسل الصور مباشرة إلى مركز المراقبة الذي ما عليه سوى تصويب صواريخ الطائرة نحو الهدف. ودون شك هذا الأسلوب يمكن تجنبه من خلال اعتماد أساليب التنكر التي ربما تدفع إلى استخدام الجراحة التجميلية. ويجب تقليل الظهور الإعلامي إلى حدّ كبير.

تاسعاً: تفجير الهاتف:

يتم عبر زرع قطعة صغيرة الحجم من المتفجرات في الهاتف المحمول أو العادي وتفجيره عن بعد من خلال إشارات لاسلكية. وأبرز الذين تعرّضوا لهذا النوع من الاغتيال هو قائد مجموعات الاستشهاديين في كتائب القسام المهندس يحيى عياش. وكما يروي أسامة حماد، صديق المهندس والشاهد الوحيد على عملية الاغتيال، فإن يحيى التجأ إليه قبل خمسة أشهر من استشهاده حيث آواه في منزله دون أن يعلم أحد، وكان كمال حماد - وهو خال أسامة ويعمل مقاول بناء - على صلة وثيقة بالمخابرات الإسرائيلية أعطى أسامة جهاز (بيلفون) لاستخدامه، وكان كمال يأخذ جهاز (البيلفون) ليوم أو يومين ثم يعيده، وقد اعتاد والد المهندس الاتصال بيحيى عبر (البيلفون)، وقد طلب منه يحيى مراراً الاتصال على الهاتف المنزلي.

وفي صباح يوم الجمعة الخامس من كانون الثاني/ يناير 1996

اتصل كمال حماد بأسامة وطلب منه فتح الهاتف النقال لأنه يريد الاتصال من إسرائيل، واتضح أن خط هاتف البيت مقطوع. . وفي الساعة التاسعة صباحاً اتصل والد يحيى على الهاتف النقال وقد أبلغ أسامة أنه لم يستطع الاتصال على الهاتف المنزلي. وما كاد المهندس يُمسك بالهاتف ويقول لوالده: يا أبي لا تتصل على البيلفون. . . ، عندها دوى انفجار وسقط المهندس بخمسين غراماً من المتفجرات كانت مزروعة بالجهاز.

مصطفى جحا

(1942 - 1992)

«لكل شعب الحق في أن يصنع تاريخه، وإذا فرضنا على الناس باسم الإسلام نهجاً، أو نمط عيش، أو نظاماً، فإنما نكون قد أسقطنا هؤلاء الناس في بؤرة العقيدة، وأما القول بأن الفلسفة التي تتفيئ العلوم البحتة في ظلالها هي فلسفة معادية للتصور الإسلامي، على الأخص، إنما هو الكبت عينه والظلم عينه والجهالة التي ما بعدها جهالة، والافتراء على الناس والحقيقة».

مصطفى جحا

هذا غيض من فيض، فيض أغنى فيه مصطفى جحا المكتبة العربية بالإبداع الفلسفي في أمور الدنيا والدين.

ولد الكاتب والمؤلف مصطفى جحا في قرية الجنين الجنوبية الواقعة على حدود فلسطين المحتلة في العام 1942 لأبوين جنوبيين قريبين.

عاش مصطفى جحا يتيم الأب حيث توفي والده وهو لم يتجاوز بعد الثمانية أشهر من عمره، إلا أن والدته أحاطته بكل رعاية وحنان. وكانت أولى خطواته الدراسية في مدارس مدينة صور الجنوبية.

عمل في التجارة ونال شهرة حتى قال أقرب المقربين إليه أنه من الشطارة بحيث يستطيع أن يبيع الثلج إلى سيبيريا.

اهتمّ بالسياسة، ودعا اللبنانيين إلى الوحدة وعدم الانقسام. كما دعا الفلسطينيين إلى الإبقاء على قضيتهم حيوية من خلال العمل الفدائي الذي وحده يستطيع أن يخيف العدو الإسرائيلي، رافضاً أن يتحول هذا العمل الفدائي إلى جيش فلسطيني خارج وطنه المحتل، فلقي المواجهة وطرد من صور ومن الجنوب وأغلقت محلات تجارته بالشمع الأحمر، فغادر - بعد إخفائه لأربعين يوماً - إلى ما كان يسمى وقتها بالمنطقة الشرقية، وكتب في الصحف والمجلات، وشارك في برامج إذاعية سياسية، ثم ما لبث أن أصدر كتبه الواحد تلو الآخر حتى تجاوز عددها العشرين ومنها: «في سبيل الشعر»، «رسائل من خلف المتراس»، «حبيبتي ما زالت تغالب الفجر»، «لعنة الخليج»، «عقائد ورجال» وغيرها.

- اغتياله:

امتدت يد الإجرام إلى أحد رموز القلم في لبنان مجدداً، وكان ضحيتها هذه المرة الكاتب مصطفى جحا حيث أطلق مجهولون النار عليه في العام 1992 وتركوه صريعاً، وسُجلت القضية ضد مجهول.

أما وقد أُسكِتَ قلمٌ عبّر بحرية عما يجول في خاطر صاحبه، سواء كنتَ مع فكر هذا الرجل أم ضده، فإن القتل والاغتيال يؤكدان أن الطريق أمام الحرية غير معبدة في لبنان.

عاطف فائق بسيسو

(1948 - 1992)

شكّل قتل الإنسان الفلسطيني إحدى الوسائل لإرهاب الشعب الفلسطيني وإجباره على مغادرة أرضه ووطنه. وقد تنوعت أسباب القتل ودوافعه عند المنظمات الصهيونية ودولة إسرائيل، ولكنها بقيت دائماً تغطية للهدف الرئيسي وهو اقتلاع ذلك الشعب من جذوره ودياره، ولو تطلب الأمر إبادة الفلسطينيين حتى لا يعود لاسم فلسطين ومن ينتسب إليها ذكر أو وجود.

فقد كان مصير كل قائد فلسطيني يصل إلى قمة الشهرة والمجد بعد كفاح طويل وسجل حافل بالبطولة والتضحية أن تكون نهايته على يد القتلة أعضاء جهاز المخابرات الإسرائيلية «الموساد». فهذا الجهاز الإسرائيلي الخطير كانت له اليد الطولى في النيل من الكثير من رجال وزعماء منظمة التحرير الفلسطينية عندما ضيق عليهم الخناق وطاردهم في شتى إنحاء الأرض وأخذ في تصفيتهم جسدياً الواحد تلو الأخر، ولكنهم في النهاية قدموا حياتهم فداء وتضحية لوطنهم.

في 8 حزيران/ يونيو عام 1992 انطلقت رصاصات غادرة في ليل

باريس إلى رأس عاطف بسيسو، من مسدس كاتم للصوت، غير أن الرصاصات التي لم يسمع أحد في الشارع أمام فندق «الميريديان» صوتها، دوّت خلال ساعات في العالم كله لتتحدث وسائل الإعلام عن قيادي فلسطيني لم يسمع به كثيرون، حتى أن شعبنا في الأرض المحتلة استقبل الحدث بدهشة، والضجة التي ثارت حول اغتياله بدهشة أكبر، فلم يكن وجهاً معروفاً لدى وسائل الإعلام، اختار الظل طوال حياته ونضاله في الثورة الفلسطينية، وحاولت إسرائيل طمس الحقيقة وإبعاد الشبهة عن نفسها، لكن الحقيقة ظهرت والخيوط أوصلت للجهة الحقيقية التي دبرت اغتيال عاطف بسيسو الذي وصفه أبو عمار بـ «البطل القومي».

وتبقى جوانب وإنجازات عظيمة في حياة عاطف بسيسو ستجد طريقها يوماً للمعرفة العامة وللنور، والذي يعتبر أسطورة أمنية فلسطينية يعترف بها الأعداء والأصدقاء، آمن بحق شعبه بالحياة حتى قدم حياته بزهد المؤمنين كي يرى شعبه دولة مستقلة لم يستطع أن يراها بنفسه، فكانت المرارة أكبر في نفوس أحبائه وزملائه في الرحلة الطويلة، رحلة الشجاعة والإقدام في حرب الأشباح بلا هوادة إنطلاقاً من الأراضي الرملية المتحركة والصخرية الصلبة وفي كل الظروف نحو الهدف، وبعد أن أعد عاطف بسيسو تصوراً للأمن الفلسطيني في ظل دولة فلسطينية، تواصلت المسيرة برفاق دربه على الأرض الفلسطينية، وكلما تعثرت الرحلة على أرض الوطن شعر الرفاق بحاجتهم إلى وجود أبو إياد وعاطف بسيسو بينهم، لأن فرحة إقامة الدولة بدونهم تبقى فرحة حزينة مكتومة بالدموع والآلام.

بعد عام 1967 بدأت حركة «فتح» بتشكيل التنظيم الطلابي في لبنان، ولكن سرعان ما قام المكتب الثاني اللبناني بالقضاء على هذا التنظيم وإلقاء القبض على رموزه، نتيجة لكون التنظيم لم يتخذ قواعد السرية المطلقة في عمله. فتقرر إعادة ترتيب الوضع التنظيمي لحركة «فتح» في لبنان، وتقرر تأسيس اللجان الطلابية، حيث تم تشكيل لجنة طلابية بسرية تامة وعلى رأسها عاطف بسيسو. وقامت هذه اللجنة بتشكيل التنظيم الطلابي لحركة «فتح»، فأسست لجنة التنظيم للجامعة الأميركية في بيروت، ولجنة «جامعة بيروت العربية». وقد شكّلت نواة التنظيم السياسي من التنظيم الطلابي، وكانت مهام التنظيم تحديد كوادر طلابية، لمهام إعلامية مثل طباعة وتوزيع البيانات الصادرة عن قوات العاصفة على وسائل الإعلام بسرية مطلقة، فكان عاطف بسيسو يتولى تزويد ثلاث صحف، وكان توزيع النشرات والبيانات على الصحف سراً دون احتكاك مباشر مع الصحافة، حيث كان شعاره دائماً «السرية التامة أساس العمل الناجح».

في أوائل العام 1968 وصل صلاح خلف أبو إياد إلى بيروت قادماً من عمان ومعه تكليف من اللجنة المركزية لحركة «فتح» بتشكيل جهاز أمن أطلق عليه اسم «الرصد الثوري» وقد تم ترشيح عاطف بسيسو ليفرز من التنظيم للعمل مع جهاز الرصد الثوري برئاسة أبو إياد.

- الإبن المدلل:

ولد عاطف بسيسو في مدينة غزة عام 1948 في بيت والديه

بحي الرمال لعائلة فلسطينية ثرية، يمتد تاريخها لأكثر من أربعمائة عام قبل مجيء مؤسس العائلة من الشام، وكان لهذه العائلة بسيسو أملاك كثيرة في مدينة غزة وبئر السبع، واشتهرت العائلة بالتجارة والمتعلمين الذين أنهوا دراستهم الجامعية في اسطنبول بتركيا خلال الحكم العثماني لفلسطين وبلاد الشام.

كان خال والده عاصم بسيسو أحد مؤسسي «المنتدى الوطني» في تركيا، وهو تجمع وطني وقومي عربي ينادي بإستقلال الأمة العربية، وحكم عليه بالإعدام. وكان خليل بسيسو جد والده رئيس البلدية وعضو مجلس مبعوثان البرلمان العثماني.

كان والده فائق بسيسو يعمل مديراً لبنك «الأمة العربية» في الخليل وغزة، كما كان أميناً لـ «صندوق الأمة» الذي كانت مهمته إنقاذ أرض فلسطين من اليهود، واعتقل والده ثلاث مرات خلال الإنتداب البريطاني، ونفي إلى طبريا شمال فلسطين ومرة أخرى إلى عسلوج جنوبها، وكان من قادة الثورة الفلسطينية عام 1936.

كان والده يحب الصيد، كما كان يأخذ معه عاطف إلى الصيد في قطاع غزة. وعندما بلغ عاطف 12 عاماً، اشترى له والده سيارة لاندروفر مستعملة، من قوات الطوارئ الدولية العاملة في قطاع غزة، وكانت قوات الطوارئ الدولية تبيع أحياناً بعض سيارتها المستعملة.

تركت هذه الهواية بصماتها لاحقاً على الشاب المدلل، فنشأ يحب السيارات والصيد والمغامرة، ولم يتخل عن هوايته طوال حياته وحتى اغتياله.

في العام 1965 كان صخر بسيسو، محافظ خان يونس سابقاً وحالياً محافظ شمال غزة ونائب أمين سر المجلس الثوري لحركة «فتح»، يحمل بعض نشرات العاصفة، في مهمة تنظيمية لحركة «فتح» وتوجه إلى والد عاطف في غزة وسلمه النشرات، فطلب منه صخر دعماً مالياً لحركة «فتح» فأعطاه في حينها مبلغ ألف جنيه.

عاد صخر بالمبلغ إلى أحد رموز حركة «فتح» حيث سلم المبلغ مجدداً إلى أبو صبري، في ذلك الوقت لم يكن عاطف بسيسو يعلم أن صخر عضو بتنظيم حركة «فتح». هذه الحادثة كانت منعطفاً في حياة عاطف بسيسو، رغم أنه لم يعلم بها في حينه، ولكنه وجد نشرات حركة «فتح» في مكتب والده فاطلع عليها واهتم بها وأصبح يتابع أخبار حركة «فتح» ويتمنى الانضمام إليها فقد وجد ضالته.

في العام 1967 كان عاطف بسيسو يدرس الحقوق في «جامعة بيروت العربية»، وكان لأسرته منزل في القاهرة في شارع عبد العزيز فهمي، وهناك عرف بانتماء صخر بسيسو لحركة «فتح». بعد أن غادر القاهرة إلى دمشق للتدريب العسكري في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1967، وبعد عودة صخر إلى القاهرة تحدث عاطف عن رغبته بالمشاركة والتدريب في حركة «فتح» وقال لصخر أنه قرأ النشرات التي كانت تصل إلى والده في مدينة غزة.

وافق صخر بسيسو على انضمامه لحركة «فتح» ورشحه أيضاً عام 1968 للانضمام لجهاز «الرصد» وكان عاطف بسيسو من أوائل الذين اعتقلوا في لبنان عام 1968.

- الرصد المركزي:

كلف نزار عمار بتشكيل جهاز الرصد الثوري في لبنان، وكان نائبه عاطف بسيسو، فتولى نزار عمار الجانب المعلوماتي، بينما تولى عاطف بسيسو جانب تشكيلات قتالية ومجموعات تنفيذية، وقام عاطف باختيار أفراد من داخل التنظيم للقيام بأي عمليات تعرضية تطلب من جهاز الرصد الثوري في لبنان، فقام بتدريب المجموعات السرية وتجهيزها ثم قام بتوزيعها على كل مناطق لبنان من شماله إلى جنوبه، وهذه المجموعات تولت القيام بمهام صدرت إليها من قيادة الثورة، مثل ملاحقة بعض العملاء الذين تعاونوا مع الأجهزة الاستخبارية المعادية للثورة الفلسطينية.

في منتصف العام 1968 انتقل نزار عمار من بيروت إلى الأردن ليعمل مع المجموعة التي قامت بتأسيس جهاز الرصد الثوري «الرصد المركزي» وبهذا فقد تولى عاطف بسيسو قيادة جهاز «الرصد المركزي» في لبنان.

تميز أداء عاطف بسيسو في تلك البدايات بنشاط وفعالية واضحة، حتى أصبح جهاز الرصد في لبنان رافد أساسي للجهاز المركزي في الأردن. وأثناء توليه قيادة الجهاز في لبنان، حدثت خلافات بين جهاز الرصد وتنظيم حركة «فتح» فقام عاطف بسيسو بإيجاد صيغة لحل تضارب المهام وتداخلها بين التنظيم وجهاز الرصد المركزي واستعان بخبرته بصفته أحد القيادات الطلابية للتنظيم.

في العام 1971 خرجت الثورة الفلسطينية وأجهزتها من الأردن

إلى لبنان، فتواجدت كافة قيادات جهاز الرصد في لبنان، لتبدأ رحلة إثبات الوجود.

في لبنان كانت مشاعر المرارة والغضب تتأجج، فبرزت ظاهرة خروج أبو حسن سلامة من قيادة جهاز الرصد المركزي، وقيامه بتأسيس جهاز الرئاسة «القوة 17»، فقام أبو إياد بإعادة تشكيل قيادة الجهاز وضمن التشكيل الجديد كان عاطف بسيسو أحد أعضاء القيادة المركزية للجهاز برئاسة أبو إياد.

كان عاطف بسيسو من أنشط العناصر في اختيار وتدريب وتجهيز المجموعات، لتنفيذ مهام المرحلة القادمة، فامتد العمل من لبنان ليصل إلى كافة دول أوروبا، وكان منهمكاً في تلك المرحلة بتجنيد مجموعات أجنبية مساندة للثورة، ولا سيما من الحركات اليسارية في أوروبا والعالم، لتأهيلها وتدريبها وتعبئتها، تم ذلك في معسكرات وأحياناً في بيوت سرية في لبنان، وكان دائم السفر لمتابعة هذه المهمات.

خلال تلك الفترة، تقدمت منظمة التحرير الفلسطينية بطلب إلى اللجنة المنظمة للألعاب الأولمبية في ألمانيا، مشاركة وفد رياضي فلسطيني يمثل منظمة التحرير الفلسطينية، وكان الرد هو الصمت المهين.

في أيلول/سبتمبر عام 1972 افتتحت دورة الألعاب الأولمبية في ميونخ، وقامت مجموعات فلسطينية مسلحة باحتجاز رهائن إسرائيليين من الرياضيين، وانتهت العملية بمقتل الرياضيين الإسرائيليين ثم واصلت دورة الألعاب الأولمبية نشاطها

الرياضي بعد توقف 48 ساعة، واستغرقت العملية 21 ساعة.

على أثر تلك العملية بدأت الاتهامات الإسرائيلية تلاحق عاطف بسيسو بأنه من ضمن المجموعة المشرفة على التخطيط وتنفيذ عملية ميونخ، رغم أنه كان في تونس أثناء تنفيذ العملية.

كان اليأس قد دفع مجموعة فلسطينية للقيام بتنفيذ عملية ميونخ نظراً للأضواء الإعلامية العالمية المسلطة على دورة الألعاب الأولمبية، لتحسيس الرأي العام العالمي بقضية الشعب الفلسطيني، وبالمقابل استغلت إسرائيل الصدى الإعلامي لهذه العملية في حينها، لاتخاذ قرار بتصفية كل من شارك بالتخطيط للعملية، واعتبرت إسرائيل أن الصدى الإعلامي العالمي للعملية يعطيها الشرعية للقيام بمسلسل اغتيالات، للانتقام لمقتل أحد عشر رياضياً إسرائيلياً، ووضعت الموساد اسم عاطف بسيسو ضمن القائمة السوداء للاغتيالات. وقد تعهد رئيس الموساد أمام لجنة الخارجية والأمن ورئاسة الوزراء بقتل كل من شارك في عملية ميونخ سواء بالتخطيط أو بالتنفيذ وأنه سيلاحقهم مدى الحياة.

- محاولة تفجير طائرة العال في روما:

أشعلت عملية ميونخ الحرب السرية بالاتجاهين بلا هوادة، وتحولت أوروبا إلى مسرح للعمليات الخارجية لمجموعات فلسطينية عديدة، وبالمقابل دخل الموساد الإسرائيلي إلى الميدان يوجه الضربات ويتلقى الضربات أيضاً، ونتوقف هنا عند إحدى العمليات في إيطاليا، وهي محاولة تفجير طائرة العال الإسرائيلية.

في العام 1973 قام عاطف بسيسو بالتوجه إلى إيطاليا بجواز سفر عربي باسم «الطيب الفرجاني»، مع مجموعة من المقاتلين الفلسطينيين. وكان القيادي الفلسطيني الشيخ زكريا قد اعتقل في إيطاليا قبل وصول المجموعة بفترة. وطبقاً لخطة العملية فقد حصلت المجموعة على صاروخ من إحدى السفارات العربية في روما، ووضعت الهدف بتفجير طائرة العال الإسرائيلية في مطار روما.

وبخطأ غير متوقع فقد انكشفت العملية عندما وقع الصاروخ على الأرض وكان مموهاً بقماش وأشياء، فاعتقلت المجموعة من قبل البوليس الإيطالي. بعد اعتقال عاطف بسيسو تعرض للتعذيب، وتدخلت المخابرات الإسرائيلية للتأكد من شخصية الطيب الفرجاني المثبتة في جواز سفره العربي. وأصر عاطف بسيسو على أنه مواطن لتلك الدولة وعلى صحة البيانات الواردة في جواز سفره.

المخابرات الإسرائيلية أكدت للمخابرات الإيطالية أن المعتقل هو عاطف بسيسو وليس الشخص المسمى الطيب الفرجاني، ولكن عاطف رفض الاعتراف بشخصيته الحقيقية. وأثناء اعتقاله أوصل له الشيخ زكريا رسالة تقول أن الموساد يخطط لتصفية عاطف بسيسو في السجن.

بعد أن فشلت المخابرات الإسرائيلية بإثبات شخصية عاطف بسيسو حاولت القيام بلعبة أخرى لإثبات اتهامها أمام الأجهزة الإيطالية. فقامت المخابرات الإسرائيلية في غزة باستدعاء والدته أثناء اعتقاله في روما، وطلبت المخابرات الإسرائيلية من والدته

زيارة ولدها في السجن في إيطاليا إن رغبت بذلك، ففهمت والدته القصد الخبيث، ورفضت بدورها الاعتراف مطلقاً بأن ابنها معتقل في إيطاليا أو أنها ترغب بالسفر.

كان عاطف بسيسو يتوقع في السجن خطوة كهذه، بأن يتم جلب أحد أفراد أسرته لزيارته ولكشف شخصيته، فهيأ نفسه بعدم التعرف على أي زائر. وفشلت محاولة المخابرات الإسرائيلية مرة أخرى، فخططت لاغتياله، هذه المرة بعد أن قامت السلطات الإيطالية بالإفراج عنه بحيث يتوجه إلى ليبيا. فأقلعت طائرة عسكرية إيطالية تحمل عاطف بسيسو وغسان طه باتجاه ليبيا وقامت بالهبوط في قاعدة عسكرية بريطانية في مالطا، وكان معهما عدد من كبار الضباط في الأمن الإيطالي، وواصلت الطائرة رحلتها إلى أحد المطارات الليبية فنزل عاطف بسيسو وغسان طه وعادت الطائرة وأقلعت في الجو. وبعد دقائق انفجرت الطائرة في الجو، وقتل الطاقم الإيطالي والوفد العسكري. وبقيت هذه القضية لغزاً في إيطاليا، حتى أن البرلمان الإيطالي أثار هذه القضية مجدداً في العام 1996 حول أسباب انفجار الطائرة في الجو ومقتل كبار الضباط الايطاليين.

كانت عملية مطار روما من العلامات البارزة في حياة عاطف بسيسو في مرحلة تحطيم الزجاج قبل أن يبدأ بإصلاح الزجاج المحطم.

في العام 1974 وبعد الاعتراف العربي والدولي بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني، اتخذت منظمة

التحرير قراراً بإعادة تنظيم أجهزتها الأمنية ومن ضمن ذلك القرار تأسيس «جهاز الأمن الموحد» برئاسة صلاح خلف أبو إياد باعتباره الجهاز الأمني المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية، وطبقاً لهذا القرار والتوجه والمهام يفترض أن يتشكل من كافة فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، كما اتخذت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية قراراً بتشكيل جهاز الأمن والمعلومات «الأمن المركزي» برئاسة أبو الهول وتحددت مهام هذا الجهاز بحركة «فتح» فقط.

كان عاطف بسيسو الرجل الثالث في جهاز الأمن الموحد اسمياً، والثاني فعلياً وفي مرحلة لاحقة أوكل له أبو إياد إدارة الأمن في جهاز الأمن الموحد. وجرى تعيين أمين الهندي نائباً لرئيس الجهاز، وفي مرحلة لاحقة تولى كلا الرجلين أمين الهندي وعاطف بسيسو مهمة نائب لرئيس جهاز الأمن الموحد كل باختصاص ومهام، وخاصة بعد العام 1982 تحددت القيادة الأولى لجهاز الأمن الموحد، بقيادة ثلاثية أبو إياد، أمين الهندي، عاطف بسيسو.

ومع تأسيس جهاز الأمن الموحد، بدأت في حياة عاطف بسيسو مرحلة العمل الأمني الخلاق، فقد تشكل هذا الجهاز من كوادر بخبرات خاصة، وتميزت معظم كوادره ممن شاركوا في عمليات خارجية فاتجه أبو إياد إلى تدريب كوادر جديدة واستقطاب كفاءات أمنية وأوكل هذه المهمة لمدير الأمن عاطف بسيسو. وحول هذه المهمة يقول عاطف بسيسو: «لقد كانت مهمتي صعبة بعد أن أصبحت الثورة الفلسطينية تواجه هجمة استخبارية دولية، كان لدي طريقتي الخاصة باستقطاب العناصر والكفاءات لتدريبها

وتكوينها ضباط أمن لدى بعض المخابرات في العالم أسلوب بطلب علني من خلال وسائل الإعلام تجنيد ضباط أمن، ولو فعلنا ذلك لتبرعت بعض أجهزة المخابرات بعناصر مدسوسة، لذلك اتبعنا طريقة معقدة بترشيح أي عنصر للعمل في جهاز الأمن الموحد».

ـ مكافحة التجسس:

تولى عاطف بسيسو مسؤولية إدارة مكافحة التجسس في جهاز الأمن الموحد، في ظل أصعب الظروف الأمنية التي عاشها لبنان بعد اندلاع الحرب الأهلية في العام 1975، حيث تحول لبنان إلى ساحة تستقطب اهتمام معظم أجهزة المخابرات في العالم، وكان للعديد من أجهزة المخابرات العالمية نشاطها السري في لبنان من خلال أفراد وشبكات تجسس وتداخل مع نشاط بعض التنظيمات اللبنانية.

ونجحت إدارة مكافحة التجسس بالكشف عن العديد من شبكات التجسس الإسرائيلية والأفراد من العملاء، الذين شكلوا مصدراً هاماً للموساد للحصول على المعلومات السرية لمنظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها، ولكن لبنان تحول فعلاً إلى دوريات أمنية بفعل الحرب الأهلية، فكانت هنالك أجهزة أمن منظمة التحرير الفلسطينية، وأجهزة الأمن السورية والمكتب الثاني اللبناني بالإضافة إلى مخابرات التنظيمات اللبنانية المحلية.

ومن أهم الشبكات التجسسية الإسرائيلية، التي وجهت من قبل الموساد، والتي قامت بالتسلل إلى بعض مواقع العمل الخارجي ولجان العمل الخارجي المضاد لإسرائيل، مثل قضية اللبناني طارق

حمدان والتي ساعدت شبكته، الموساد بكشف نوايا عمليات خارجية لمنظمة الصاعقة الفلسطينية، ثم ساعدت الموساد باغتيال زهير محسن.

وقد قام عاطف بسيسو بالكشف عن هذه الشبكة ومتابعتها بكفاءة عالية والتي كان من ضمن مهامها توجيه ضرب أهداف إسرائيلية من الموساد مثل الكنيس اليهودي وقطار المهاجرين اليهود في ألمانيا.

تمكنت مكافحة التجسس في جهاز الأمن الموحد، من اكتشاف عدد من أجهزة الاتصال السرية الإسرائيلية في لبنان والتي كان الموساد يزود بها عدداً من عملائه. وكانت في غاية الدقة والتطور التكنولوجي، وقد جرى تنسيق بين جهاز الأمن الموحد وجهاز المخابرات العامة المصرية لإجراء الدراسات على هذه الأجهزة المتطورة والاستفادة من تطورها في مكافحة النشاط التجسسي الإسرائيلي. وقد استطاع جهاز الأمن الموحد اكتشاف جهاز إرسال إسرائيلي في بيروت، كان يعتبر أهم إنجاز تكنولوجي وأجريت عليه أبحاث عديدة بالتنسيق مع المخابرات المصرية.

يقول عاطف بسيسو: «لقد كنا نواجه في لبنان مشكلة حقيقية بالحصول على وسائل اتصال ومعدات كان جهاز الأمن الموحد يحتاجها خاصة في إدارة مكافحة التجسس، ولم نستطع الحصول على الأجهزة المتطورة، حتى من الكتلة الشرقية أو من السوق السوداء، وتوصلنا إلى قناعة بوجود توجه دولي بعدم حصولنا على أجهزة اتصال متطورة نظراً للجهود المكثفة التي بذلت من طرفنا

للحصول على مثل هذه الأجهزة، وعلى مستوى السوق السوداء الدولية السرية كانت أيضاً تفرض بيعنا أجهزة محددة بينما كانت تعرض علينا أجهزة أخرى أقل تطوراً».

هذه المشكلة التي واجهتها أجهزة الأمن الفلسطينية كانت تعني أن هنالك سقف للنشاط الأمني الفلسطيني في لبنان وخطوط حمراء حددتها توجهات دولية، لذلك لم تستطع أجهزة الأمن الفلسطينية رصد البث اللاسلكي لشبكات الموساد العاملة في لبنان إلا من خلال الكشف عن أعضاء هذه الشبكات التجسسية.

ورغم الصعوبات البالغة أحياناً، تحققت نجاحات نوعية حظيت بإعجاب وتقدير أجهزة الأمن الدولية الصديقة التي قامت بالتنسيق مع جهاز الأمن الموحد وقدرت الأجهزة الصديقة أنها تتعامل مع حالة أمنية جدية وجهاز ناشئ بكفاءات مما جعل جهاز الأمن الموحد يهتم بالتنسيق الأمني لتعويض جوانب يحتاجها في عمله، وتحديداً مع أجهزة المخابرات لدول أوروبا الشرقية، التي فتحت المجال للدورات الأمنية وتعاونت إلى قدر كبير بالتنسيق مع جهاز الأمن الموحد في متابعة بعض القضايا وكشف هوية ضباط الموساد العاملين في أوروبا.

- محطات التجسس الإسرائيلية:

استفادت الموساد كثيراً من الحصانة الدبلوماسية لسفاراتها في أوروبا والعالم واستغلت الوضع الدبلوماسي لتشكيل محطات تجسس إسرائيلية في كافة دول العالم التي تقيم علاقات دبلوماسية مع إسرائيل. ووظفت الموساد إمكانات مادية ضخمة لإقامة تلك

المحطات والحفاظ على سريتها، ورغم السواتر التي استخدمتها في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية فقد أديرت المحطات التجسسية للموساد من خلال ضباط عاملين في السفارات الإسرائيلية تحت غطاء دبلوماسي.

وكانت الحرب السرية قد بدأت بين أجهزة أمن منظمة التحرير الفلسطينية والموساد، في الظلام، ولكن مخابرات أوروبا الشرقية كانت ترصد محطات التجسس الإسرائيلية بشكل دائم، وتتابع كافة التطورات لتلك المحطات، وتكون لدى أجهزة المخابرات الشرقية أرشيف سري هام للغاية، أفاد منه جهاز الأمن الموحد قدر المستطاع، في قضايا محددة في إدارة العملاء المزدوجين وقضايا أمنية أخرى. وقد احترف عاطف بسيسو المناورات الأمنية حتى أصبح من القلائل على مستوى أجهزة منظمة التحرير الفلسطينية بالمستوى الذي وصل إليه واكتسب تجربة وخبرة رفيعة المستوى، خاصة على مستوى مكافحة نشاط الموساد. واستطاع عاطف بسيسو الحصول على جزء من أرشيف مخابرات أوروبا الشرقية المتعلق بنشاط شبكات التجسس الإسرائيلية في أوروبا وبعض الدول العربية، بما فيه أحياناً صور شخصية لضباط الموساد الذين عملوا بسرية وبأسماء وهمية، فحدد شخصيتهم وأسماءهم الحقيقية وخلفية عن حياتهم الشخصية والمهنية، فكان أداءً متكاملاً حققه من خلال بوابة التنسيق الأمني.

ـ التنسيق الأمني في لبنان:

بعد فترة وجيزة من تأسيس جهاز الأمن الموحد، قرر أبو إياد

إقامة علاقات للتنسيق الأمني مع مخابرات الإتحاد السوفياتي ودول الكتلة الشرقية مثل: ألمانيا الشرقية، بلغاريا، تشيكوسلوفاكيا، يوغسلافيا.

وقد أقام أبو إياد هذه العلاقات وأشرف على متابعتها عاطف بسيسو انسجاماً مع سياسة منظمة التحرير الفلسطينية بإقامة علاقات وثيقة مع هذه الكتلة.

وقد أقيمت هذه العلاقات على أسس تبادل المعلومات والخبرات الأمنية والتقنية ومكافحة النشاط التجسسي الإسرائيلي. وكان عاطف بسيسو لديه نظرة مستقبلية للعمل الأمني، دائم التفكير بالخطط والخطط المستقبلية، فسعى لتشكيل دائرة متكاملة للأمن، وأشرف على إرسال كوادر من جهاز الأمن الموحد في دورات أمنية متعددة إلى الإتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية، لتدريب أعضاء وكوادر الجهاز في كافة المجالات، حتى توصل لإتفاق مع بعض أجهزة المخابرات الأوروبية الشرقية بفتح معسكرات تدريب خاصة في مجال الأمن.

وحصل جهاز الأمن الموحد بموجب علاقات التنسيق الأمني، على منح دراسية في دول أوروبا الشرقية لدراسة الأمن على المستوى الاستراتيجي استغرقت إحدى تلك المنح مدة أربع سنوات كاملة للحصول على درجة البكالوريوس في الأمن. كان عاطف بسيسو يرسل أحد أعضاء الجهاز إلى بلد ما، يوجهه بتعلم اللغة، ويطلب منه الاطلاع على معلومات حول ذلك البلد من خلال الصحف ووسائل الإعلام، يرسله ويتركه لفترة لبناء

علاقات ولا يكلف بعمل أمني لاحتياجه في الوقت المناسب.

كان يحب النظام، شجاعاً، وصفه زملاؤه بـ «البرنس»، يبادر بنفسه أثناء القيام بأي مهمة، ويوجه العاملين معه باستمرار مما يكسبهم التجربة، يحب الانضباط والنظام، وكان يرى هذه الصفات من أفضل مميزات العمل الأمني. كان يرشد ويناقش الموضوع مع عضو الجهاز المعني بالأمر، ولديه قدرة فائقة على العمل بسرية تامة.

تتلمذ على يد عاطف بسيسو عدد كبير من الضباط والقيادات الأمنية وكان هاجسه تطوير دائرة الأمن، بتدريب الشباب وتعليمهم القواعد والأسس العلمية الأمنية، فأفاد من العلاقات السياسية المميزة لمنظمة التحرير الفلسطينية مع الدول الإشتراكية وبعض الدول العربية، لاستثمارها أمنياً.

أعطى منذ بداية تأسيس جهاز الأمن الموحد الأولوية للدورات الأمنية التي كان يحتاجها الجهاز، فاستطاع معظم الكادر الذي عمل مع عاطف بسيسو أن يحصل لكل ضابط ما بين 3 ـ 4 دورات أمنية كحد أدنى في الإتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية في كافة التخصصات الأمنية.

يقول أبو عاطف وهو أحد الضباط الذين عملوا مع عاطف بسيسو: «في العام 1983 أرسلني إلى دورة أمنية في تشيكوسلوفاكيا لمدة ثلاثة أشهر، وفي حزيران/ يونيو عام 1983 طرحت الأكاديمية الأمنية ضمن التعاون المشترك، منح مقعدين لفلسطين لدراسة القانون والأمن ومدة الدراسة ست سنوات ويحصل الطلاب على

دكتوراه في القانون والعلوم الأمنية، فرشحني عاطف بسيسو للدورة الجديدة ووافقت.

كان يزورنا في الأكاديمية باستمرار ويشجعنا، خاصة أنه تخصص محدود في منظمة التحرير الفلسطينية، وقد شارك بهذه الدورة الدراسية حوالي 20 دولة من: كوبا، فيتنام، أنغولا، غينيا بيساو، موزمبيق، نيكاراغوا، اليمن الجنوبية، فلسطين ودول أخرى.

بعد إنهاء الدورة الأكاديمية الأمنية لمدة ست سنوات، عاد أبو عاطف إلى تونس، فأصبح عاطف بسيسو يعتمد على تلميذه في مجالات عديدة مثل المهام الأمنية الخارجية، التعامل مع الوفود الأمنية الخارجية، فتح محطات في دول ما، مساعدة الضباط هناك، فقد كان عاطف بسيسو يعتقد أن خط الدفاع الأمني الأول ليس في تونس وإنما يبدأ من المحطات الخارجية، في الوسط الفلسطيني لحماية الشعب الفلسطيني في أماكن تواجده وحماية الجهاز العسكري. وأشرف أبو عاطف على مكتب عاطف بسيسو مديراً لمكتبه».

ـ بداية التحول:

بعد تأسيس جهاز الأمن الموحد في العام 1974، بدأت عملية تحول جذرية في أسلوب وأداء عاطف بسيسو، فقد طوى صفحة نشاطاته العسكرية التي واكبت مرحلة إثبات الوجود للثورة الفلسطينية، لتبدأ مرحلة إرساء ركائز شرعية منظمة التحرير الفلسطينية واستثمار الدعم السياسي الدولي الواضح لمنظمة التحرير

منذ العام 1974، ضمن واقع لبنان واندلاع الحرب الأهلية وتشابك أداء الفصائل والتنظيمات الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، وبعد أن بدأت مرحلة الصراعات الدموية في لبنان. لم تكن شخصية عاطف بسيسو معروفة على صعيد الثورة الفلسطينية بشكل علني، واختار لنفسه طريقاً منذ البداية بعيداً عن الأضواء ووسائل الإعلام، فلم يتحدث مطلقاً لأي صحيفة أو وسيلة إعلام طوال حياته، ولم تظهر صوره الشخصية من خلال وسائل الإعلام مطلقاً إلا بعد اغتياله، وكان الوصول إليه يتطلب معرفة شخصية.

حدد أيضاً دائرة علاقاته الشخصية بما يخدم خططه الأمنية التي عكف على ابتكارها وتوظيفها في عملية بناء متواصلة في كل الظروف لجهاز الأمن الموحد. وأمام كل نجاح حققه كان يشعر بمزيد من الحذر من اغتيال متوقع، ثمناً لذلك النجاح الأمني.

كان أبو إياد مهندس نظرية تسخير العمل الأمني خدمة للأهداف السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية، بهدف تثبيت شرعية منظمة التحرير الفلسطينية وقراراها السياسي ضمن المعطيات التي كانت قائمة آنذاك، عربياً ودولياً وفلسطينياً.

منذ البداية حدد قناعاته داخل حركة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية بالعمل في ظل أبي إياد وهذا الاختيار معروف وسجل لعاطف بسيسو ومشهود على مستوى حركة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية، التزم بهذا النهج طوال حياته وحتى استشهاد أبي إياد وبقي وفياً لنهج معلمه.

كانت عملية الانتقال من جهاز إلى آخر في حركة «فتح» عملية

ممكنة وسهلة أيضاً، ولكن ارتباط عاطف بأبي إياد تجاوز حدود العلاقة النضالية والعملية إلى العلاقة الأبوية، شأن العديد من الكوادر والقيادات الذين ارتبطوا معنوياً بالرموز التاريخية لحركة فتح، وعندما اختفى أمين الهندي في لبنان، أعلن أبو إياد استنفاراً في جهاز الأمن الموحد للبحث عنه وكان يصرخ في وجه معاونيه: «إنه أمين.. ولدي»!!

جمعت المحبة والتضحية والإخلاص هؤلاء الرجال، فكانت قيادة تاريخية لجهاز الأمن الموحد، في العام 1972 كان عاطف بسيسو محط الأنظار. فرفض كل العروض وتمسك بقائده أبي إياد، رفض الملايين من الدولارات مليوني دولار رفضها عاطف بسيسو مقابل موقف سياسي في مشروع سياسي في المنطقة العربية. وشهد أبو إياد صلابة عاطف بسيسو وتمسكه بقضية شعبه.

تحدث عاطف بسيسو عن هذه الحادثة، ساخراً بمرارة من البعض الذين استنكروا عليه هوايته المعروفة بقيادة السيارات، وعندما اقتنى في لبنان سيارة حديثة مكشوفة (SPORT)، اشتراها من ماله الخاص المرسل إليه من أهله في قطاع غزة، أنّبه أبو إياد على شراء تلك السيارة فقال له: «إنك تعلم كيف اشتريت السيارة من مالي الخاص». قال أبو إياد: «ولكنهم لا يعلمون».

منذ تأسيس جهاز الأمن الموحد طبق أبو إياد سياسة ثابتة تميز بها الجهاز، سياسة التقشف وأحياناً لدرجة الزهد، لأن أبا إياد كان يرى بأن المال مفسدة. وعايش عاطف بسيسو رحلة التقشف كاملة، ولم يتعارض معها ورفض أن يتجه لأي جهاز آخر في منظمة

التحرير الفلسطينية ربما كانت سياسته المالية مختلفة، رغم العروض المتكررة في بداية الطريق، حتى وصل البعض إلى قناعة. عندما تجاوز عاطف بسيسو حدود الرفض إلى العمل الجاد على محاربة التجاوزات، فرفض دائماً منح الشرعية لأي خطأ أو مخطئ، فكان مشاكساً، ورغم دبلوماسيته المعروفة، لم تسعفه بالتستر على تجاوزات مرفوضة، فحاربها بالقنوات الشرعية من خلال أبي إياد وقيادة الثورة الفلسطينية.

بشخصيته المميزة، وأسلوبه الساخر تغلب على عجزه عن معالجة أمور وقضايا لم يستطع معالجتها، لكنه لم يمنحها شرعية مطلقاً. كانت لديه قدرة على جذب محدثيه، فاستطاع بناء علاقات مع شخصيات سياسية وإعلامية، استخدم فيها سعة اطلاعه وخبرته وإدراكه لخفايا الأمور، ولم يعرف الثرثرة مطلقاً في القضايا الأساسية السرية، كما تعامل مع دائرة علاقاته العامة بسرية أيضاً ولم يكن من السهل حصر هذه العلاقات.

الشاعر الفلسطيني أحمد دحبور عرفه عن قرب، في إحدى الدول بعد أن شهد عاطف بسيسو يفض خلافاً عابراً بين صديقين من ادباء فلسطين احدهما الشاعر معين بسيسو، وعلى طريقته الخاصة أيضاً عندما يئس من الإصلاح فقال: «الآن سأطلق النار على نفسي إن لم ينته هذا الخلاف». فضحك الجميع وتصافح الأديبان، وسكن أحمد دحبور بجوار منزل عاطف بسيسو ووعده عاطف بزيارته وبقيت الزيارة مؤجلة حتى اغتيل. وأنشد فيه أحمد دحبور قصيدة جميلة بعد استشهاده بعنوان: «جار الرضا».

وسط المنافسة المشروعة في أوساط أجهزة أمن منظمة التحرير الفلسطينية، اعترف الجميع بقدراته الخاصة وكفاءته وإخلاصه، لمن أحبه منهم وللذين كرهوا نجاحاته. فاستطاع ترويض نفسه على قتل الرغبة في حب الظهور داخله، فاختفى يعمل بصمت كرجل ظل، ولدى قطاع واسع من الشعب الفلسطيني لم يسمع بعاطف بسيسو سوى عند الإعلان عن استشهاده في باريس، ودهش الكثيرون من الضجة الإعلامية حول اغتيال هذا المسؤول المجهول.

كان دائم التذمر والشكوى من الأوضاع الخاطئة، وفي الوقت نفسه يتجه لإصلاحها، لتصويب الأداء، ويعبر عن رأيه في مواقف كثيرة بسخرية، فكان خفيف الظل. اشتكى أحد ضباطه يوماً بأن عاطف بسيسو لا يكلفه بمهام فعلق على ذلك قائلاً: «لو كلفته بمهمة سرية، ووجد في الطريق نفراً من أصدقائه لأخذهم معه إلى مهمة يجب أن لا يطلع عليها أحد، هذه طبيعته لا أستطيع تغييرها، ولكن أكلفه بمهام إدارية غير حساسة».

لم يكن مغروراً ولكنه كان واثقاً بنفسه ويخشى الفشل دائماً، قبل أن يقوم بأي عمل كان يضع أمامه كافة الاحتمالات، يحاول أن لا يترك احتمالاً مهماً كان ضعيفاً. ولم يتحدث مطلقاً يوماً بغرور عن جهاز الأمن الموحد، كما لم يقلل من شأنه، كان يضع الجهاز ضمن الوضع الحقيقي الذي وصل إليه، إيجاباً وسلباً ويسعى لتطوير الجهاز، فقد أعطى معظم وقته لبناء الجهاز منذ تأسيسه وعلى مدى 18 عاماً، بدون انقطاع وفي كل الظروف، مع رفاقه في قيادة الجهاز.

ـ الجيش الفلسطيني:

في العام 1982 اندلعت الحرب وكانت حرباً حقيقية شاملة بين جيشين، استغرقت حوالي ثلاثة أشهر، ولكنها لم تكن مفاجأة لمنظمة التحرير الفلسطينية، بل كانت متوقعة والنوايا الإسرائيلية كانت مبيتة للقيام بحرب واسعة النطاق في لبنان، فاهتم عاطف بسيسو بنقل الوثائق السرية لمنظمة التحرير الفلسطينية وجهاز الأمن الموحد خارج لبنان قبل اندلاع الحرب وأثناءها أيضاً، إضافة إلى المهمات السرية التي كان يكلف بها من قبل أبي إياد، فغادر بعد الحرب بيومين إلى أبو ظبي مع مساعد له ثم عاد إلى الحدود السورية ـ اللبنانية يتابع الاتصالات والنشاطات الأمنية في ظل ظروف الحرب.

يقول عاطف بسيسو: «خلال فترات عديدة معروفة تعرضت مكاتبنا إلى الإغلاق، أو الاستيلاء عليها من قبل الدول العربية بسبب خلافات سياسية، ولكن أتحدى إن حصلت تلك الدول على وثيقة سرية واحدة بموجب الاستيلاء على المكاتب، لقد كنا ننقل وثائقنا فوراً عندما تلوح الخلافات السياسية في الأفق وحتى في الظروف العادية، بشكل منتظم إلى بلدان أخرى وفي بيوت سرية لضمان عدم وصولها لأي جهة، أصبحت مكاتبنا الرسمية وحتى منازلنا خالية من أي وثائق».

وقد استثمر جهاز الأمن الموحد علاقاته الأمنية الخارجية جيداً في كافة الجوانب لتوفير الحصانة والسلامة للجهاز، حتى أوجد قواعد أمنية إستراتيجية في العالم خاصة في أوروبا الشرقية خلال تواجد الثورة الفلسطينية في لبنان.

وضع أبو إياد الشروط والمقاييس لموافقة الأمن الموحد على إقامة تنسيق أمني مع أي بلد أوروبي والولايات المتحدة الأميركية، ولم يتنازل مطلقاً، رغم حاجة منظمة التحرير الفلسطينية في تلك المرحلة فتح حوار مع الولايات المتحدة الأميركية.

وكانت شروط أبي إياد: «الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بإقامة دولة فلسطينية، التنسيق السياسي أولاً ثم التنسيق الأمني ثانياً».

أما تبادل المعلومات والتدريب والقضايا الأخرى فلم يبحثها الأمن الموحد قبل ضمان حصوله على الشرطين السابقين. وبالتالي تقدم التنسيق الأمني بشروط أبي إياد بطيئاً خلال السنوات الأولى، ولكن ضغط الإرهاب دفع مجدداً هذا التنسيق، وفتح جهاز الأمن الموحد البوابات المغلقة في أوروبا.

ـ مكافحة الإرهاب:

كانت باريس المحطة الأولى والأهم في التنسيق الأمني مع دول أوروبا فنشط الوسطاء السريون لتوسيع الدائرة أوروبياً، وهؤلاء الوسطاء كانوا من الفلسطينيين أو العرب أو الأوروبيين، فانضمت ألمانيا وإسبانيا والنمسا واليونان وإيطاليا كدول أساسية في علاقات التنسيق الأمني.

وبعد أن نجح جهاز الأمن الموحد بإقامة علاقات تنسيق أمني مع المخابرات الفرنسية، اهتمت أوروبا بهذه القضية، نظراً للتنسيق القائم بين دول أوروبا وإن تميزت سياسة فرنسا بكونها الابن العاق

للولايات المتحدة الأميركية في أوروبا وبريطانيا الأكثر قرباً من السياسة الأميركية في أوروبا.

كانت موجة العنف تجتاح أوروبا خلال عقد الثمانينات، ولاسيما منذ عام 1985، فشهد ذلك العام عمليات خطيرة، في قبرص، وعملية أكيلي لاورو وكانت مبعث اهتمام بالغ من إسرائيل وإيطاليا والولايات المتحدة الأميركية إضافة إلى عمليتي فيينا وروما، نفذهما تنظيم أبي نضال في كانون الأول/ ديسمبر عام 1985 وعمليات أخرى مثل عملية مقهى «لابيل» في ألمانيا.

بعد عمليتي فيينا وروما في نهاية العام 1985، قام عاطف بسيسو بزيارة النمسا، واجتمع مع وزير الداخلية النمساوي، حيث كانت النمسا قد أقامت علاقات للتنسيق الأمني مع جهاز الأمن الموحد، وكان الوزير النمساوي غاضباً في الإجتماع وأخذ يهدد بأنه سيقطع دابر الإرهاب. أجابه عاطف بسيسو: لن تستطيع القضاء على الإرهاب، أنا هنا في النمسا واستطيع غداً أن أُدخل أسلحة إلى النمسا ومسدساً إلى مكتبك إن أردت، القضية ليست في الإجراءات الأمنية وإنما في القضية الأساسية التي تحتاج إلى حل وهي القضية الفلسطينية ولن يتم القضاء على الإرهاب بدون حل جذري للقضية الفلسطينية بإقامة دولة فلسطينية.

عاد الوزير إلى الهدوء، وفهم قصد عاطف بسيسو لأن أسلحة أُدخلت إلى النمسا في السابق من خلال فرقة موسيقية أوروبية!!

رغم إدراك دول العالم بعدم مسؤولية منظمة التحرير الفلسطينية

عن العمليات الإرهابية، وأن منظمة التحرير الفلسطينية اتجهت للاعتدال والتسوية السلمية، فقد وظف جهاز الأمن الموحد «الإرهاب» في مباحثاته المكثفة مع أجهزة المخابرات الأوروبية لصالح حل القضية الفلسطينية.

كان إعلان القاهرة بوقف العمليات الخارجية، في تشرين الثاني/نوفمبر عام 1985 نقطة تحول جريئة لمكافحة الإرهاب على نطاق واسع، ولكن بالمقابل بقي حق منظمة التحرير الفلسطينية باستخدام أسلوب الكفاح المسلح داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة، بقي قائماً وأشرف عليه أبو جهاد وبدأ الصراع الخفي والمعركة الخطيرة مع الإرهاب، حتى استطاع جهاز الأمن الموحد أن يُفشل ما يزيد عن مِئتي عملية إرهابية في أوروبا خلال عقد الثمانينات. وحصلت بالمقابل منظمة التحرير الفلسطينية على موقف سياسي أوروبي متقدم مساند لشرعية منظمة التحرير الفلسطينية دولياً ولقراراتها السياسية ومهدت بقوة لمؤتمر مدريد للسلام، وكان الثمن حياة أبو إياد وعاطف بسيسو.

لم يتوقف أحد كثيراً عند سياسة إدارة الصراع خلال الثمانينات بالصورة المنظمة سياسياً، وعسكرياً وأمنياً بحلقات متكاملة، بسبب الضجيج آنذاك وتلاحق الأحداث ودوي «الإرهاب» في كل مكان، عندما اعتقدت بعض المنظمات الفلسطينية المنشقة أنها تقطع الطريق على سياسة قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بدلاً من ذلك استطاعت قيادة منظمة التحرير أن توظف «الإرهاب» الذي استهدف به، لصالح توجهاتها بطريق غير مباشر بعد أن تخلصت من عبء المواقف

الداخلية الضاغطة عليها بفعل اختيار المعارضة للانشقاق والانفصال عن سياسة منظمة التحرير الفلسطينية.

ـ عمليات خاصة:

في العام 1985 اكتشف جهاز الأمن الموحد مجموعة فلسطينية دخلت تونس بجوازات سفر مغربية مزورة، أقامت في ضاحية المرسي في تونس العاصمة وتنتمي المجموعة إلى تنظيم أبي نضال، وكانت ضاحية المرسي تتواجد بها منازل ومكاتب بعض قيادات منظمة التحرير الفلسطينية، وتم إبلاغ أجهزة الأمن التونسية من خلال سفارة فلسطين في تونس، ولكن المعلومات وصلت متأخرة، فقد قامت أجهزة الأمن التونسية بتمشيط ضاحية المرسي بحثاً عن المجموعة التي غادرت الأراضي التونسية، ولم تحقق أهدافها آنذاك.

وجاءت العملية الثانية، في العام 1986، بعد أن تلقت أجهزة الأمن المغربية معلومات مسبقة من إحدى الدول العربية المشرقية، حول مجموعة فلسطينية من ضمنها فتاة تونسية، تحمل متفجرات بهدف القيام بعملية إرهابية في المغرب.

وبسبب حصول المغرب على المعلومات مسبقاً، تم القبض على المجموعة في المطار، وكانت هذه العملية ستلقي بظلالها على العلاقات الفلسطينية ـ المغربية والعلاقات الفلسطينية ـ التونسية، بسبب مشاركة فتاة تونسية، وعلى الفور سافر عاطف بسيسو مع أحد مساعديه إلى المغرب وعمل على إطفاء الحريق قبل أن تندلع النيران. وكانت العملية بعد زيارة شمعون بيريز للمغرب وإجتماعه

علناً مع الملك الحسن الثاني، وتوضحت الحقائق للمغرب، كما توضحت أيضاً لتونس.

وأخذ أبو إياد موقفاً حازماً ومتشدداً تجاه هذه القضية لمحو آثارها السلبية واستطاع تجميد عضوية أحد أعضاء المجلس الثوري لحركة فتح كإجراء رادع.

مثل هذه العمليات التي تكررت كثيراً خلال الثمانينيات، لم يكن دور جهاز الأمن الموحد، سواء أوروبياً أو عربياً بإطفاء الحرائق تقديم المجاملات السياسية، وإنما كشف الحقائق والجهات والأبعاد والأهداف، ولم يستطع فعل ذلك لو لم تتوفر لديه شبكة اتصالات وعلاقات ومعلومات واسعة امتدت من الوطن العربي إلى معظم دول العالم، ليحصل على المعلومات المسبقة الوقائية أو تفسير سريع لعمليات حصلت وبوقت قياسي.

ولم ينقطع عاطف بسيسو مطلقاً في ظل سياسة عقد الثمانينيات، السياسة الأمنية لمنظمة التحرير الفلسطينية، عن تنظيم الدورات الأمنية لكوادر وضباط جهاز الأمن الموحد، في بلدان أوروبا الشرقية، بل توصل لإتفاقيات مع فرنسا وإسبانيا لتدريب بعض ضباط جهاز الأمن الموحد. وكان هذا الإتفاق في حينه يعتبر إنتصاراً باهراً، جعل المخابرات الأميركية تطلب بدورها إقامة علاقات تنسيق أمني مع جهاز الأمن الموحد.

- الولايات المتحدة الأميركية:

تابعت الولايات المتحدة الأميركية باهتمام تطور علاقات التنسيق

الأمني بين جهاز الأمن الموحد ودول أوروبا، ولم تحاول عرقلة هذه التجربة، قياساً للمحاولات الإسرائيلية، حيث عملت المخابرات الإسرائيلية على إعاقة التنسيق الأمني، باستخدام أسلوب التحريض لدى الأجهزة الأمنية الأوروبية ثم لجأت إلى تسريب معلومات كاذبة حول مشاركة ألمانيا في عملية اغتيال أبو حسن سلامة قائد «القوة 17»، وأساليب أخرى كانت مكشوفة لدى أوروبا وجهاز الأمن الموحد.

وفي العام 1986 بدأت المخابرات الأميركية بالتحرك لإقناع أبي إياد بإقامة تنسيق أمني مع الولايات المتحدة الأميركية، من خلال وسطاء من الدول الأوروبية التي أقامت علاقات تنسيق أمني، ووسطاء آخرين من العرب.

كانت دوامة الإرهاب تتصاعد ضد المصالح الأوروبية والأميركية والإسرائيلية، وكان الرئيس الأميركي رونالد ريغان قد أخذ على عاتقه القضاء على الإرهاب، وتقدمت المخابرات الأميركية بطلب غير رسمي إلى أبي إياد لتحديد شروطه لإقامة علاقات تنسيق أمني مع الولايات المتحدة الأميركية، فحدد ثوابت التنسيق الأمني الأساسية أولاً، وكان رد الولايات المتحدة الأميركية بأنها ترغب في التنسيق الأمني فقط دون السياسي.

ووجه أبو إياد رداً قاسياً للولايات المتحدة الأميركية بقوله: «نحن لسنا عملاء لأجهزة المخابرات في العالم، لا نقدم خدمات لتلك الأجهزة، وإنما نقيم علاقات تنسيق أمني وتبادل معلومات مع أجهزة المخابرات التي تعترف دولها بالحقوق المشروعة لشعبنا،

بإقامة دولة فلسطينية، ولن نقيم علاقات تنسيق أمني مع الولايات المتحدة الأميركية قبل أن تعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني».

وتعثرت الاتصالات رغم المحاولات المتكررة من طرف الولايات المتحدة الأميركية، حتى نجحت بعد أن قررت الولايات المتحدة الأميركية فتح حوار رسمي مع منظمة التحرير الفلسطينية في تونس من خلال السفير الأميركي روبرت بليترو.

وتطورت علاقات التنسيق الأمني مع المخابرات الأميركية باتصالات تابعها عاطف بسيسو في تونس بزيارات سرية لبعض الوفود الأمنية الأميركية إلى تونس، ولقاءات أخرى تمت في إسبانيا وبعض الدول الأوروبية الأخرى مثل فرنسا وألمانيا عام 1991، شارك فيها عاطف بسيسو وعمل على تطويرها.

وحتى اغتيال عاطف بسيسو في 8 حزيران/يونيو عام 1992 لم يجتمع مطلقاً مع أجهزة الأمن الإسرائيلية، بل كان ما يزال يخوض حرباً سرية لمكافحة نشاط المخابرات الإسرائيلية، ونظراً لأن التنسيق الأمني مع إسرائيل جاء بعد إتفاق أوسلو في 13 أيلول/سبتمبر 1993، حيث فرضت الإتفاقيات وجود هذا التنسيق مع «الشاباك» المخابرات العامة الإسرائيلية، ورغم الطلب المتكرر للموساد الإسرائيلي بإقامة تنسيق أمني مع المخابرات الفلسطينية، بقي هذا الطلب مرفوضاً ولم تنجح الموساد مطلقاً بعقد لقاءات، نظراً لأن الموساد المسؤول عن اغتيال رموز أجهزة الأمن الفلسطينية مثل أبي إياد وأبي الهول وفخري العمري ـ أبي محمد وعاطف

بسيسو، فالحاجز النفسي كبير من الصعب تجاوزه إضافة إلى شهداء اللجنة المركزية لحركة فتح وقائمة طويلة من كوادر منظمة التحرير الفلسطينية قامت الموساد بتصفيتها جسدياً.

ـ مكافحة نشاط الموساد:

وضع جهاز الأمن الموحد إستراتيجية لمكافحة نشاط الموساد، بعد خروج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت عام 1982، على مستوى منظمة التحرير الفلسطينية والوطن العربي والعالم فيما يتعلق بنشاطات الموساد الموجهة ضد منظمة التحرير الفلسطينية، وعمل عاطف بسيسو بمهمات متداخلة متشابكة لإعادة ترتيب أوضاع جهاز الأمن الموحد طبقاً للمرحلة الجديدة، فأعطى الأهمية والأولوية لتواجد الجهاز في عدد كبير من دول العالم، نظراً لأن دول العالم حيث الجاليات الفلسطينية كانت الخطوط الدفاعية الأمنية الأمامية للنشاط الاستخباري الإسرائيلي، لكن المهمة كانت صعبة على أرض الواقع وبقدر النجاح الذي تحقق كان الإحباط والمرارة.

كان تركيز عاطف بسيسو على دول أوروبا، باعتبار أن نشاط الموساد في عمليات التجنيد معظمها يتم في أوروبا، وركز على متابعة النشاطات الاستخبارية الإسرائيلية بإقامة شبكات اتصال داخل الأرض المحتلة وتابعها من بلدان عربية مجاورة «دول مواجهة».

ولإنجاح المهمة، فقد احتاج جهاز الأمن الموحد لإقامة علاقات تنسيق أمني مع الدول العربية، رغم أن هذه العلاقات كانت قائمة مع عدد من الدول العربية أثناء وجود منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، مثل سوريا، التي أقامت علاقات تنسيق أمني

متميزة مع الأمن الموحد، في مجال مكافحة نشاط الموساد، ولكن الخلافات السياسية لاحقاً أعاقت تواصل التنسيق، رغم أن اللقاءات الأمنية استمرت خلال الثمانينات مع قادة الأجهزة الأمنية السورية في دول أوروبا الشرقية وغيرها، بهدف العمل على إنهاء الخلافات السياسية وشارك عاطف بسيسو في هذه الإجتماعات في أواخر العام 1985. في لبنان قدمت سوريا تسهيلات كبيرة لجهاز الأمن الموحد في إطار التنسيق الأمني وتحققت إنجازات حقيقية في تلك الفترة.

كان جهاز الأمن الموحد يبادر بحرص كبير لإقامة علاقات تنسيق مع عدد من أجهزة المخابرات العربية لمكافحة نشاط الموساد، وبقي طلب الأمن الموحد بدون موافقة في العراق، حتى بادر العراق في نهاية الثمانينات بطلب إقامة تنسيق أمني، وتمت إتفاقية للتنسيق مع المخابرات العراقية.

لم يكن التنسيق مثالياً مع بعض أجهزة المخابرات العربية، فقد قام الموساد بتجنيد شاب فلسطيني، وقام الشاب بإبلاغ جهاز الأمن الموحد، حيث أشرف عاطف بسيسو على تشغيله كعميل مزدوج، فطلبت المخابرات الإسرائيلية «الموساد» من الشاب التوجه إلى إحدى الدول العربية التي ارتبطت بإتفاقية تنسيق أمني مع جهاز الأمن الموحد، وكان عاطف بسيسو حريصاً على معرفة المهام التي ستوكلها الموساد للشاب في ذلك البلد ومن سيتصل به هناك، فقام بتوجيه رسالة رسمية إلى مخابرات ذلك البلد العربي حول مهمة الشاب، وطلبت الرسالة تسهيل مهمته باعتباره تحت سيطرة الأمن الموحد.

فور وصول الشاب إلى ذلك البلد بدأت مراقبة استفزازية مكشوفة، فعاد الشاب واتصل بالأمن الموحد بأنه انكشف ولا داعي لإكمال المهمة، فاضطر الأمن الموحد لرسالة ثانية لضمان خروج الشاب سليماً!!

مثل هذه الحادثة كانت خيبة أمل لعاطف بسيسو، وتوصل إلى قناعة بأن بعض الدول العربية حددت سياسة أمنية بعدم التعرض لنشاط الموساد.

بالمقابل وافقت المخابرات الجزائرية على تشكيل وحدة في أجهزة الأمن الجزائرية لمكافحة النشاط التجسسي الإسرائيلي، خلال عقد الثمانينات وقد قام عاطف بسيسو بالإتفاق مع المخابرات الجزائرية على تدريب الوحدة من خلال مجموعة من ضباط جهاز الأمن الموحد، وقاموا فعلاً بتدريب ضباط المخابرات الجزائرية على أساليب المخابرات الإسرائيلية خاصة بعد أن أصبحت الجزائر هدفاً للنشاط الاستخباري الإسرائيلي.

في أوروبا نشطت محطات جهاز الأمن الموحد، سواء في أوروبا الشرقية أو الغربية لمكافحة النشاط الاستخباري الإسرائيلي، وكانت إحدى ثمرات التنسيق الأمني مع دول أوروبا.

إن عاطف بسيسو دخل إلى الدوائر الحمراء مجدداً، من خلال عملية بحث صعبة، حول تغلغل الموساد في أجهزة الأمن الأوروبية، وبهذا البحث والتحرك وضع يده في فرن ملتهب. لم يكن أيضاً هذا النشاط الواسع، في مكافحة نشاط الموساد في أوروبا من خلال بوابة التنسيق الأمني، ثم رفض أبو إياد لإقامة

تنسيق أمني مماثل مع الولايات المتحدة الأميركية ليمر بسلام.

فقد أعقب رفض أبو إياد حملة ضغط واضحة تعرض لها جهاز الأمن الموحد، حتى أن عاطف بسيسو جرى توقيفه في إحدى الدول العربية مدة ثماني ساعات في عام 1987، بسبب ضغط أميركي واضح. وجرى توقيفه لدى جهاز مخابرات عربية أقام علاقات تنسيق أمني مع جهاز الأمن الموحد ثم تعثر التنسيق، وأخلي سبيله بهدوء، ولكن الساعات الثماني لم تكن هادئة على الإطلاق وكان تهديد أبو إياد قوبل بإخلاء سبيل عاطف والاعتذار أيضاً.

ورغم مرارة تلك الأحداث، فإن جهاز الأمن الموحد كان متفهماً للضغوط التي تمارس والتحريض الإسرائيلي - الأميركي على جهاز الأمن الموحد.

- اغتيال أبي إياد:

كانت علاقة عاطف بسيسو مع عاطف أبي بكر علاقة مميزة والاتصالات مستمرة قبل انشقاق أبي بكر عن تنظيم أبي نضال في ليبيا كجزء من نشاط عاطف بسيسو الأمني على مستوى المنظمات الفلسطينية المتطرفة.

وقد توصل عاطف أبو بكر لقناعة بالانشقاق عن التنظيم وطلب من عاطف بسيسو المساعدة في الإجراءات اللازمة لذلك. وفعلاً تمت العملية بعد أن انضم إليه عبد الرحمن عيسى، وذلك بعد مقتل أحد كوادر التنظيم أبي مصطفى فراس في ليبيا.

كانت قضية انشقاق عاطف أبي بكر وعبد الرحمن عيسى ربما قصمت ظهر تنظيم أبي نضال، وكانت آخر ضربة يوجهها أبو إياد للتنظيم، حيث كشف هذا الانشقاق عن قضايا داخلية خطيرة للتنظيم أشبه بالخرافة، من الإعدامات وإلقاء الجثث بأعمدة بناء العمارات في ليبيا، والمشاركة مع الموساد في اغتيال أبي جهاد.

لكن المعلومات التي أدلى بها عاطف بسيسو في تونس بعد الانشقاق أعادت التساؤلات ودوامة الألغاز حول تنظيم أبي نضال فقد أكد عاطف أبو بكر وجود عضو من تنظيم أبي نضال شارك بعملية اغتيال أبي جهاد، فاعتقل عضو التنظيم في ليبيا ثم أفرج عنه لوجود شقيقيه في تنظيم أبي نضال.

لم يكتف عاطف بسيسو بسماع هذه المعلومات بل طلب من أبي بكر أن تسمع أم جهاد إنتصار الوزير بنفسها، وفعلاً أكد عاطف أبو بكر ذلك بحضور أم جهاد وعاطف بسيسو. لقد كان تأثير انشقاق عضوي قيادة تنظيم أبي نضال المسؤول الإعلامي عاطف أبو بكر، والمسؤول العسكري والأمني عبد الرحمن عيسى، سيئاً بكشف قضايا وملفات التنظيم.

ـ زيارة أخيرة:

بعد إحتلال العراق للكويت في الثاني من آب/ أغسطس عام 1990، اختلطت الأوراق في الوطن العربي، ونشطت الدبلوماسية وإجتماعات القمة على مستوى العالم. وتكثفت الاتصالات والتشاور، والوساطات والتحركات العسكرية أيضاً، وأصبح الشرق الأوسط على فوهة بركان. وفي ظل هذا الوضع

الدولي الخطير، كان هنالك من يفكر باغتيال أبي إياد وينتظر الفرصة. كانت زيارة أبو إياد للأردن في أواخر كانون الأول/ ديسمبر عام1990 زيارة وداع. ومكث في عمان أسبوعين، وتوافد رجال منظمة التحرير الفلسطينية في الأردن إلى مقر إقامته. وشارك في احتفال جماهيري وألقى كلمة مؤثرة. ولكن أحد ضباط جهاز الأمن الموحد في عمان استطاع أن ينقل أبا إياد سراً إلى الأغوار يوماً كاملاً، ليستعيد ذكريات معركة الكرامة، فقضى يوماً مختفياً بسعادة غامرة في منطقة الكرامة والأغوار. حيث شهدت البدايات المسلحة والتحدي للجيش الإسرائيلي وكسر شوكة الجندي الذي لا يقهر.

في تلك المرحلة حدثه الضابط بأن هنالك من يرغب بإعادة طباعة كتابه «فلسطين بلا هوية» فقال أبو إياد: «لا مانع لدي وأبلغه تحياتي، لكن بشرط أن لا يعيد نشر فصل «حرب الأشباح»!!

بعد أيام غادر الأردن متوجهاً إلى تونس، وكان يتطلع إلى استكمال إنجاز تحقق على مستوى أجهزة أمن منظمة التحرير الفلسطينية، بتوحيد جهازي الأمن الأساسيين وهما: جهاز الأمن الموحد وجهاز الأمن والمعلومات «الأمن المركزي».

وكان القرار قد اتخذ على مستوى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، وتم الإتفاق على دمج الجهازين بإطار جهاز واحد برئاسة أبي إياد ونائبه أبي الهول، وفي 14 كانون الثاني/ يناير 1991، توجه مع صديقه المخلص ونائبه في جهاز الأمن الموحد فخري العمري ـ أبي محمد إلى منزل هايل عبد الحميد ـ أبي الهول ليلاً، وكان الرئيس الأميركي الأسبق جورج بوش الأب قد وجه إنذاراً

للعراق للانسحاب من الكويت، في تلك الليلة دخل حمزة أبو زيد أحد مرافقي أبي الهول إلى الصالون حيث يجلس القادة الثلاثة، وأطلق النار على أبي إياد فحاول أبو الهول الوقوف فأطلق القاتل الرصاص على رجليه فسقط على الأرض، ارتمى أبو محمد العمري على أبي إياد ليحميه ويتلقى الرصاص بظهره. واستشهد القادة الثلاثة بأيدي عملاء الموساد الإسرائيلي.

بعد اغتيال أبي إياد قام عاطف بسيسو بالتحقيق مع القاتل، ثم نقل حمزة أبا زيد من تونس إلى اليمن بالطائرة، ولم يكن نادماً على فعلته أثناء نقله بالطائرة، واستكمل التحقيق مع القاتل في اليمن. وبقيت حلقات مفقودة في قضية حمزة أبي زيد وتساؤلات حول الجهة الحقيقية التي أعطته التعليمات باغتيال أبي إياد.

عاطف بسيسو الأكثر حرفية، اتخذ قراراً برد الاعتبار لجهاز الأمن الموحد والثورة الفلسطينية، فقد كان اغتيال قائده الذي عمل معه كظله مدة خمسة وعشرون عاماً، كانت صفعة مدمرة نفسياً ومعنوياً بالدرجة الأولى. ومنذ 14 كانون الثاني/ يناير عام 1991 وظف عاطف بسيسو كل الإمكانيات وشبكة اتصالات جهاز الأمن الموحد سراً لجمع المعلومات والخيوط الخفية والتفاصيل، حتى اكتمل ملف اغتيال أبي إياد.

بعد اغتيال أبي إياد جاء وزير الداخلية الفرنسي إلى تونس، وكان صديقاً شخصياً لأبي إياد، وقدم تعازي الحكومة الفرنسية لقادة منظمة التحرير الفلسطينية وذوي الشهيد. وقبل أن يغادر تونس عائداً إلى باريس، ترك الوزير الفرنسي مرافقيه الفرنسيين والتونسيين

والفلسطينيين واختفى. وبحثوا عنه فوجدوا الوزير يجلس قرب قبر أبي إياد يبكي صديقه!! كانت معاني الوفاء والتضحية عظيمة في قضية اغتيال أبي إياد فنائبه ضحى بحياته ليتلقى بجسده الرصاص ليحمي قائده.

كانت ضربة قاسية أخرى تعرضت لها إستراتيجية منظمة التحرير الفلسطينية، خلال عقد الثمانينات، بسقوط أحد أعمدتها الأساسية أبي إياد لإضعاف توجهات منظمة التحرير الفلسطينية وحصارها والضغط عليها داخلياً بفقدان رموز مرحلة ما قبل مؤتمر السلام في مدريد. فجاء دور عاطف بسيسو لإنقاذ الإستراتيجية الأمنية الفلسطينية من الانهيار، فقد كان المحور واعتمد عليه أبو إياد نظراً لأنه كان لديه نشاطه ومسؤولياته السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية، بينما كان عاطف بسيسو مهيأً لأن يكون ناجحاً، فأرسى أيضاً نمط علاقات الند للند، وفرض دائماً على محاوريه احتراماً كبيراً لعاطف بسيسو.

لم تكن الحرب التي أعلنها جهاز الأمن الموحد على «الإرهاب» خلال عقد الثمانينات، حرباً تكتيكية، بل خاض المعركة حتى نهايتها، وانفجر الصراع بصورة دموية في نهاية الأمر ليتحول «الإرهاب» الموجه إلى أوروبا والولايات المتحدة الأميركية إلى حرب أعلنها تنظيم أبو نضال على قيادة جهاز الأمن الموحد وتحديداً أبي إياد وعاطف بسيسو.

عاطف بسيسو كان ربما الأكثر فهماً لأبي نضال قبل اغتيال أبي إياد ولم يكنّ كراهية شخصية له، بل كان حزيناً على أبي نضال

واهتم بالحوار معه لنبذ «الإرهاب»، ولم يرغب مطلقاً بأن يخرج الصراع عن إطاره ليدخل في إطار تصفية حسابات وانتقام.

كان عاطف بسيسو يعتقد أن أبا نضال يستطيع آنذاك، نبذ «الإرهاب» وطوي الصفحة، ولكنه كان يشعر بالألم نتيجة لإصرار أبي نضال على خوض الشوط حتى نهايته. بعد اغتيال أبي إياد لم يعد هناك مجال للحلول الوسط مع أبي نضال.

ـ إنطلاقة مدريد:

ما إن وضعت حرب الخليج أوزارها، حتى انطلقت مبادرة للرئيس الأميركي جورج بوش الأب لعقد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط ووافقت جميع أطراف الصراع على عقد المؤتمر في مدريد في 30 تشرين الأول/أكتوبر عام 1991. وبعد أن انتهت ترتيبات الوفود المشاركة في مؤتمر مدريد غادر الوفد الفلسطيني برئاسة د. حيدر عبد الشافي من عمان إلى مدريد، وكان توجيه واختيار منظمة التحرير الفلسطينية للوفد المشارك سرياً. وقبل وصول الوفد، كان عاطف بسيسو يشارك رسمياً في مدريد بإجتماعات الوفود الأمنية لكافة الدول المشاركة في مؤتمر مدريد، كما عقد إجتماعات تنسيق مع أجهزة الأمن الإسبانية التي ترتبط بعلاقات وثيقة مع جهاز الأمن الموحد.

وكان المطلوب أيضاً، تأمين اتصالات أعضاء الوفد مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في تونس أثناء انعقاد المؤتمر وإجتماعات خاصة في مدريد بصورة سرية، وقد استطاع القيام بمهمته بنجاح كبير حتى طريقة خروج ودخول بعض أعضاء الوفد من أبواب خلفية

لإجتماعات مع مسؤولين في منظمة التحرير الفلسطينية والعودة إلى قاعة الإجتماعات بعيداً عن الأعين، بتنسيق مع أجهزة الأمن الإسبانية.

استغرقت مهمة عاطف بسيسو في مدريد عشرة أيام، قبل وأثناء انعقاد المؤتمر، ولعب دوراً بارزاً في هذا المؤتمر إنطلاقاً من إيمانه بأهمية هذا المؤتمر لتحقيق آمال وطموحات الشعب الفلسطيني.

على هامش انعقاد المؤتمر، شارك في الإجتماعات الأمنية لوفود الدول المشاركة، واجتمع رسمياً مع وفد أمني من وكالة المخابرات المركزية الأميركية وفتحت البوابة الكبرى، وكان ذلك الإجتماع الرسمي تتويجاً لاتصالات سابقة، ولكن «الموساد» الإسرائيلي بدأ بالعد التنازلي منذ انعقاد المؤتمر والنجاح الذي حققه عاطف بسيسو.

ـ في قصر الصنوبر:

أثناء انعقاد مؤتمر مدريد للسلام في الشرق الأوسط، تواجد وفد فلسطيني سراً مثل عاطف بسيسو ود. نبيل شعث وأكرم هنية، وغيرهم، وكانت للوفد مهمات مختلفة أمنية مثل عاطف بسيسو وسياسية مثل د. نبيل شعث، وعمل عاطف بسيسو من خلف الكواليس بالتنسيق مع أجهزة الأمن الإسبانية، وبالتنسيق مع الوفد السري أيضاً، دون محاولة الاحتكاك بأعضاء الوفد الفلسطيني المعلن والمشارك بصفة علنية.

وأثناء انعقاد المؤتمر وصلت تعليمات من الرئيس أبي عمار ياسر عرفات برغبته بالإجتماع سراً وخارج إسبانيا مع الوفد المشارك في المؤتمر، وقام عاطف بسيسو بإجراءات العملية، وأرسل مع د. نبيل شعث رسالة إلى أعضاء الوفد ذات مضمون غامض، شخصية هامة ترغب بلقاء الوفد سراً.

وتجمع أعضاء الوفد الفلسطيني، دون معرفتهم بالشخصية التي ترغب بالإجتماع معهم أو مكان اللقاء، وكان عاطف بسيسو حريصاً على سرية الموضوع بدرجة قصوى.

وليلاً توجه الوفد مع د. نبيل شعث وأكرم هنية خارج منطقة المؤتمر إلى مطار صغير في مدريد، ووجدوا بانتظارهم طائرة خاصة، وأُبلغوا آنذاك أنهم في الطريق إلى الإجتماع مع الرئيس أبي عمار. وغادرت الطائرة الخاصة الساعة العاشرة ليلاً إلى الجزائر، وهناك توجهوا فوراً إلى مقر الصنوبر، حيث اجتمع الرئيس أبو عمار مع الوفد لمدة ثلاث ساعات بحضور بعض أعضاء قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، وجرى نقاش طويل حول سير أعمال المؤتمر، وقبل الفجر كانت الطائرة تهبط في المطار الصغير في مدريد، ليعود أعضاء الوفد إلى الإجتماعات بهدوء دون أن يشعر أحد بهذه الرحلة الليلية السرية، التي قام بترتيبها عاطف بسيسو، وبعد انتهاء أعمال المؤتمر عاد الوفد إلى الأردن.

ويصف د. زكريا الآغا، العضو المشارك بالمؤتمر عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية واللجنة المركزية لحركة فتح حالياً إجراءات الرحلة بأنها كانت بغاية الدقة ومثالية بالسرية.

ـ خطة اغتيال عاطف بسيسو:

خلال شهري نيسان/ أبريل وأيار/ مايو 1992، كانت أجهزة الأمن الفلسطينية قد حصلت على معلومات من مصادر أمنية مختلفة ومنها دول أوروبا الغربية، بموجب التنسيق الأمني وتبادل المعلومات، بأن الموساد الإسرائيلي أعد قائمة سوداء لعدد من مسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية للاغتيال قبل الانتخابات الإسرائيلية، وشعر أبو عمار أن إسرائيل تدبر عملية خطيرة في شهر نيسان/ أبريل وتذكر شهداء اللجنة المركزية. فقد نفذت الموساد اغتيال القادة في عملية فردان وأبي جهاد في نيسان/ أبريل. وحاول أبو عمار أن لا يستقر في مكان فقام بزيارات لدول عديدة بهدف تفويت الفرصة على المخابرات الإسرائيلية، وطلب من مساعديه أخذ الحيطة والحذر خاصة في أوروبا، ومنهم كان عاطف بسيسو.

الإحساس الداخلي لأبي عمار دفعه للابتعاد فترة عن تونس، حتى سقطت الطائرة في الصحراء الليبية «طائرة النجاة» في نيسان/ أبريل عام 1992. كانت طائرة أبو عمار قد رصدت تحركاتها المخابرات الإسرائيلية حتى سقوطها، لأنها كانت هدفاً أساسياً للموساد. وقد تأكد ذلك بالدليل القاطع بعد الحادث، عندما قامت إذاعة إسرائيل ببث تسجيل صوتي لنداءات الاستغاثة التي وجهها قائد الطائرة في الصحراء الليبية قبل سقوطها. وقالت إذاعة إسرائيل إن أحد الهواة الإسرائيليين قام بتسجيل النداءات!!

طبعاً المسألة واضحة أن يتابع أحد «الهواة» نداءات طائرة أبي عمار على بعد آلاف الأميال بأجهزة متطورة لغاية!! والحقيقة

أن المخابرات الإسرائيلية تابعت «الهدف» حتى سقوط الطائرة.

خلال تلك الفترة كان الإحساس بالموت يسيطر على عاطف بسيسو فهناك جهتان تتسابقان للوصول إليه، تنظيم أبو نضال والموساد الإسرائيلي. وكان لديه معلومات حول خطر يتهدد حياته من إحدى الجهتين. وفي منزله في تونس سيطرت أجواء القلق على المنزل، ولأول مرة، فأخذ احتياطات أمنية مشددة في المنزل، فمنع أطفاله من اللعب في حديقة المنزل، وكان متوتراً على غير عادته. وأوصى زوجته بأخذ الحيطة والحذر وخاصة أثناء خروجها من المنزل مع الأطفال. استغربت زوجته كل تلك الإجراءات والحذر والتوتر، فقالت له: «لقد كنت في السابق تتعرض لمحاولات اغتيال وتنجو منها، ما الذي تغير الآن»؟

«لقد تعرضت في لبنان لمحاولة اغتيال من تدبير الموساد وبواسطة الجاسوسة أمينة المفتي وغير ذلك، لماذا هذا القلق»؟!

في بيروت كانت الجاسوسة أمينة المفتي اختارت السكن في بناية مجاورة لمنزله، واكتشفها الأمن الفلسطيني واعترفت أنها كانت ترصد تحركات عاطف بسيسو لاغتياله على يد الموساد، وجرى لاحقاً تسليم الجاسوسة لإسرائيل وتمت المبادلة بأسرى من منظمة التحرير الفلسطينية وهما: مهدي بسيسو «أبو علي» ووليام نصار. وتعرض أيضاً لكمين نصبه تنظيم أبو نضال لاغتيال عاطف بسيسو في العام 1990 في دولة أوروبية، ونجا عاطف من تلك المحاولة، بعد انشقاق عاطف أبي بكر وعبد الرحمن عيسى.

قال عاطف بسيسو لزوجته: «المرحلة الآن خطيرة للغاية، من

يسلم فقد سلم»! تغير سلوكه قبل أن يغادر تونس بفترة وجيزة، فقد تزايد الإحساس الداخلي بالموت، فأصبح يأخذ أطفاله معه إلى الجبل في تونس ويجلس منفرداً لساعات يفكر، لاحظ زملاؤه في الجهاز أنه تحول إلى اللامبالاة في الاحتياطات الأمنية والحذر الذي تعود عليه طوال حياته، فأصبح يردد: «لا يمنع حذر من قدر».

من الواضح أن مخاوف عاطف بسيسو لم تكن بسبب التحذيرات التي تلقاها من مصادر مختلفة، وإنما نابعة من إحساس داخلي، لكنه سرعان ما تجاوز ذلك الإحساس وواصل نشاطه في منتصف أيار/مايو 1992، فقد حدد خط رحلة عمل لعدة دول في العالم، وكان خط السير: تونس ـ مدريد ـ هافانا ـ برلين ـ باريس ـ مرسيليا ـ تونس.

اتصل عاطف بسيسو بعدنان ياسين، بسفارة فلسطين في تونس، والذي اكتشف لاحقاً تعاونه مع المخابرات الإسرائيلية، وكان عادة ما يتولى ضمن نطاق عمله في سفارة فلسطين متابعة الشؤون والقضايا الجمركية والتسهيلات التي منحتها الخارجية التونسية لسفارة فلسطين، وطلب من عدنان ياسين القيام بالإجراءات الجمركية لإدخال سيارة إلى تونس قادمة بالباخرة من ميناء مرسيليا. وكان أخ زوجته ديما السبع المقيم في الولايات المتحدة الأميركية قد اتصل بعاطف بسيسو وأبلغه بأنه سيرسل له سيارة لاندروفر للصيد، نظراً لمعرفته بهواية عاطف بسيسو، فاتفقا على أن يرسل السيارة بالباخرة إلى ميناء مرسيليا، حيث سيقوم عاطف بسيسو بشحن السيارة إلى ميناء تونس.

في فترة سابقة كان عدنان ياسين قد التقى بعاطف بسيسو في باريس في فندق «الميريديان» أثناء إحدى زياراته لفرنسا، وبعد ذلك كان عدنان ياسين يحاول إسداء أي خدمة لعاطف بسيسو، ولكن هذه المرة كانت خدمة قاتلة، كما أدى خدمة ملغومة لأبي مازن محمود عباس بشحن أثاث مكتبه بعد أن زرعت به الموساد أجهزة تنصت وفي تونس أيضاً قبل أن يكتشف عدنان ياسين وقد زرعت الأجهزة الدقيقة في ظهر المقعد الذي كان يجلس عليه أبو مازن وفي مصباح المكتب الخاص بالقراءة والكتابة.

وبهذا تحدد خط سير عاطف بسيسو على الأقل في بعض المحطات من خلال خط سير سيارة اللاندروفر من الولايات المتحدة الأميركية حتى وصولها لتونس. وهذا الأمر أبقى، ربما، عاطف بسيسو على اتصال مع عدنان ياسين خاصة في المرحلة الثانية والحاسمة من رحلته، وبعد أن وصلت سيارة اللاندروفر إلى ألمانيا بدلاً من ميناء مرسيليا نظراً لأن أخ زوجته لم يجد باخرة آنذاك تصل إلى مرسيليا، فقام بشحن السيارة إلى ألمانيا.

في منتصف أيار/مايو 1992 غادر عاطف بسيسو تونس إلى مدريد، حيث قام بمهمة سريعة، وواصل رحلته إلى كوبا في زيارة رسمية، بهدف إجراء مباحثات مع أجهزة المخابرات الكوبية، حول الجالية الفلسطينية في كوبا واستكمال التنسيق بين جهاز الأمن الموحد والمخابرات الكوبية بشأن مكافحة النشاط الاستخباري الإسرائيلي في أميركا اللاتينية. كما قام أثناء زيارته التي استغرقت عشرة أيام بمهمات خاصة تتعلق بتواجد ونشاط

جهاز الأمن الموحد في كوبا وبعض مناطق أميركا اللاتينية ومتابعة دورات أمنية لعدد من الضباط في كوبا. خلال إقامته في كوبا اتصل عاطف بسيسو بزوجته مرات قليلة، نظراً لصعوبة الاتصال من كوبا.

ـ معلومات في يوغسلافيا:

كان جهاز الأمن والمعلومات «الأمن المركزي» والذي كان يترأسه الشهيد هايل عبد الحميد أبو الهول، ومنذ اغتياله في 14 كانون الثاني/ يناير عام 1991، تولى الإشراف على الجهاز طارق أبو رجب، والذي تربطه بعاطف بسيسو علاقة نضالية ومودة معروفة على مستوى جهازي الأمن الموحد للأمن المركزي، لعبت دوراً هاماً في تحقيق خطوة إستراتيجية بدأ بها قادة الجهازين الشهداء، وتحولت المسؤولية الكبيرة إلى قيادات أمنية ذات كفاءة عالية أمين الهندي، طارق أبو رجب، عاطف بسيسو، شكلوا بعد 14 كانون الثاني/ يناير 1991 وحدة قيادية واحدة.

كان جهاز الأمن والمعلومات قد ركز جهوده في أوروبا الشرقية بعد انهيار الإتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية، على متابعة نشاط الموساد الإسرائيلي، وفي يوغسلافيا كان ضابط الأمن والمعلومات يتميز بالذكاء الحاد والشجاعة وحظيت قدراته بتقدير المسؤولين في منظمة التحرير الفلسطينية، وبعد مطاردة الولايات المتحدة الأميركية لأبي العباس بعد عملية أكيلي لاورو، استطاع أن يقوم بتهريب أبي العباس من يوغسلافيا رغم الرقابة التي تكثفت حول مقر إقامته في براغ عندما استخدم الخدعة والماكياج وأشخاص تتشابه بشكل

كبير مع أبا العباس، وغادروا المقر المشتبه به بموكب يستخدمه أبو العباس عادة لصرف الرقابة، ثم اكتشفت الرقابة أنهم أشخاص عاديون. أما أبو العباس الحقيقي فقد غادر برفقة ضابط الأمن الفلسطيني فقط وبسيارة أجرة عادية إلى المطار.

قبل 25 يوماً من اغتيال عاطف بسيسو حصل الضابط على معلومات محددة بأن الموساد الإسرائيلي قرر اغتيال عاطف بسيسو في باريس أو تونس والشخصية الثانية كانت أمين الهندي الذي خضع لمراقبة الموساد كهدف ثانٍ. وقام الضابط بإبلاغ قيادة جهاز الأمن والمعلومات في تونس ليلاً باتصال هاتفي عند الساعة الثالثة فجراً مع طارق أبي رجب.

كان عاطف بسيسو قد غادر إلى كوبا، رغم أن المعلومات لم تكن جديدة، على المعلومات التي توفرت لجهاز الامن الموحد قبل سفر عاطف بسيسو ولكنها كانت تحمل تفاصيل دقيقة، وطلبت استفسارات من ضابط الأمن وقدم إجابات عليها حول المصدر أو المصادر!

ـ عصابات المافيا:

بعد أن قام الموساد بمحاولة اغتيال أبي حسن سلامة قائد «القوة 17» في النرويج، وقتل عن طريق الخطأ عامل مغربي يدعى أحمد بوشيكي، حيث ألقت قوات الأمن النرويجية القبض على مجموعة من ضباط الموساد الإسرائيلي وتسببت ذلك العملية الفاشلة في منتصف عقد السبعينيات بأزمة دبلوماسية بين النرويج وإسرائيل. حاولت الموساد بعد ذلك استخدام عناصرها وضباطها في عمليات

الاغتيالات بطريقة مباشرة، في أوروبا، واعتمدت لتنفيذ أهدافها على عصابات المافيا والقتلة المحترفين في أوروبا. أما ضابط الموساد الذي كان يكلف هؤلاء القتلة بالتنفيذ مقابل مبالغ مالية كبيرة، كان عادة يعمل في العصابات المعروفة لإبعاد أي خيوط تصل إلى الجهة الحقيقية، وهي الموساد.

بعد انهيار الإتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية، اندلعت الحرب الأهلية في يوغسلافيا، ولجأ عدد كبير من العرب اليوغسلافيين إلى فرنسا ودول أوروبية أخرى.

وفي باريس ومنذ سنوات طويلة، كان للصرب اليوغسلافيين تواجد هام في فرنسا، قبل الحرب الأهلية أيضاً، واحترف عدد كبير منهم مهنة المرافقة Body garde وأسسوا شركة عريقة في باريس للمرافقة بإشراف فرنسي.

كما عمل جزء آخر في شركات «البوليس السري الخاص». واعتمدت هذه الشركات الفرنسية على اليوغسلافيين المقيمين في فرنسا، وتدربوا على الأمن لدرجة الاحتراف. عدد آخر منهم شاركوا في عصابات المافيا للقتل والجرائم المختلفة، وهنالك أصبح في باريس عصابات يوغسلافية من العرب معروفة تحترف الإجرام والقتل مدفوع الأجر، ولكل عصابة يوجد زعيم يعمل معهم بصورة خفية أو علنية لدى أفراد العصابة.

بعد اندلاع الحرب الأهلية اتجهت مجموعات من الصرب إلى فرنسا من أجل شراء الأسلحة من السوق السوداء لاستخدامها في الحرب الأهلية في يوغسلافيا، وكانت لهذه المجموعات اتصالات

وتنسيق مع الموساد الإسرائيلي الذي ساعدهم في شراء أسلحة احتاجوها في الحرب.

اهتم الموساد بتقديم خدمات للصرب خلال الحرب الأهلية، ضمن الاهتمامات الإسرائيلية بأوروبا الشرقية وسعى الموساد من خلال العصابات اليوغسلافية إلى شراء الزئبق الأحمر ودفع مبالغ ضخمة لشراء بضعة كيلو غرامات، لاستخدامها في الصناعة النووية الإسرائيلية وحتى لا يذهب الزئبق الأحمر لبعض الدول العربية خاصة العراق.

أقام الموساد الإسرائيلي محطات سرية في أوروبا الشرقية، خاصة محطة أساسية في هنغاريا بإشراف يهودي يدعى موريس.

كانت المخابرات اليوغسلافية بعد الحرب الأهلية ضعيفة، ولم يكن لديها اهتماماتها الخارجية ونشاطاتها السابقة قبل الحرب الأهلية، ولكن كان لديها نشاطها الواسع على مستوى اليوغسلافيين داخل يوغسلافيا وخارجها، ولا سيما في باريس.

ورغم حالة الانهيار فقد رفضت المخابرات اليوغسلافية أمن الدولة اليوغسلافي التنسيق مع الموساد الإسرائيلي، باعتبار أن قيادات الجهاز أبناء الثورة ورفضوا إقامة علاقات تنسيق مع الموساد، ولبعض القضايا المحددة أقيم اتصال غير مباشر عن طريق النمسا فقط.

في المقابل، كانت أجهزة الأمن الفلسطينية تتابع نشاطات الموساد عن قرب، وهذه النشاطات على مستوى يوغسلافيا كانت جزءاً من نشاطات الموساد السرية في أماكن مختلفة في العالم والتي

كان «جهاز الأمن الموحد» يعمل على مكافحتها من خلال نشاط عاطف بسيسو وهي نشاطات سرية إسرائيلية تستحق التوقف عندها طويلاً، وقد استطاع جهاز الأمن والمعلومات تحديد نوايا الموساد الإسرائيلي بدقة قبل خمسة وعشرين يوماً من اغتيال عاطف بسيسو، وكان الموساد خلال الأشهر السابقة قد بدأ يرسم سيناريو الاغتيال، وبعد عرض صورة عاطف بسيسو على القتلة والإتفاق معهم على التفاصيل مالياً وخطة التنفيذ، لم يعرف القتلة اسم الشخص المطلوب اغتياله، ولكن هنالك من تعرف على صورته قبل تنفيذ العملية، وبعد أن أشيع لاحقاً في أوساط أمنية، وتمت عملية ربط المعلومات حول مصدر تسريب المعلومات بخصوص اغتيال عاطف بسيسو حاول الموساد اختطاف ضابط الأمن الفلسطيني في يوغسلافيا بنصب كمين له وأفلت منهم وكان ذلك بعد اغتيال عاطف بسيسو.

خلال الأشهر التي سبقت اغتياله، كانت المخابرات الإسرائيلية قد أحكمت الطوق حول عاطف بسيسو ووضعت خطط الاغتيال في باريس أو في تونس في حالة تعذر التنفيذ في باريس لعدم زيارته لها مثلاً، رغم حذره الدائم وحرصه، ولكن بالمقابل كان جهاز الموساد بإمكاناته الضخمة يحاصر عاطف بسيسو.

تقول صحيفة «معاريف» بتاريخ 9/ 6/ 1992: «وعلى عكس رؤساء التنظيم ابتعد عاطف بسيسو».

ذكر اسمه في جميع وسائل الإعلام ولم يكثر من حب الظهور، حيث كان مكلفاً بأمن الدبلوماسيين التابعين لمنظمة التحرير

الفلسطينية. نفذ ذلك بصفة دائمة مرسلون من طرفه إلا في عمليات خاصة حيث سافر بنفسه للتنسيق، وكان ذلك دائماً بشكل سري للغاية، ودائماً بأسماء مستعارة كما هو الحال في سفرته الأخيرة إلى باريس.

ـ اغتيال عاطف بسيسو:

بعد اغتيال خليل الوزير أبي جهاد، كان عاطف بسيسو وراء جميع المطالبات لتشديد الحراسة على رجال منظمة التحرير الفلسطينية البارزين في كل مكان في العالم، وحتى في الدول العربية، وقد أمر جميع البارزين في منظمة التحرير الفلسطينية القادمين إلى تونس بعدم النزول في الفنادق حتى لا يكونوا مكشوفين حتى لدوائر الاستقبال. وفي السنتين الأخيرتين أعلن عاطف بسيسو لرؤساء التنظيم أن عليهم تملّك بعض البيوت الفاخرة في ضواحي تونس لاستقبال واستضافة القياديين القادمين من أماكن مختلفة في العالم، وأصبح يتم استقبال الشخصيات الفلسطينية البارزة واستضافتهم من سلم الطائرة إلى هذه البيوت والمسؤولين عن حراستهم هم رجال «القوة 17» الذين تحولوا لوحدة كبيرة قائمة بحد ذاتها.

الإجراءات التي كان يقوم بها عاطف بسيسو تعتبر إجراءات أمنية مثالية، ولكن زيارة برلين كانت محطته الأخيرة قبل رحلة الموت إلى باريس، ففي نهاية أيار/ مايو عام 1992 وصل عاطف بسيسو إلى برلين ونظراً لكثرة زياراته إلى برلين والتي أصبحت في مرحلة الثمانينات محطة رئيسية وآمنة لجهاز الأمن الموحد، وحتى يضمن

سرية زيارته، فقد كان لديه منزل سري في برلين الشرقية قريب من «الكسندر بلادز» في مركز العاصمة، وقد استأجر جهاز الأمن الموحد هذا المنزل لاستخدامه لأغراض زيارات كبار المسؤولين في الجهاز.

وكانت برلين المركز الرئيسي الذي ينطلق منه عاطف بسيسو لكل أوروبا الشرقية.

يمكن الإشارة إلى أن بداية تكشف خيوط قصة التجسس بدأت مع عملية اغتيال مروعة ذهب ضحيتها عاطف بسيسو، الذي يعتقد بأنه واحدٌ من ثلاثة حلّوا محل صلاح خلف أبا إياد، الذي اغتيل في تونس، عشية حرب الخليج الثانية، في قيادة الجهاز الأمني التابع لمنظمة فتح.

وفي يوم 8 حزيران/ يونيو 1992، كان عاطف بسيسو قد وصل فجأة إلى العاصمة الفرنسية باريس للالتقاء مع مسؤولين من المخابرات الفرنسية، عائداً مع صديقين لبنانيين إلى فندق «المريديان مونفرانس» في شارع كومندينت موشوط، في العاصمة باريس، عندما اقترب منه رجلان وأطلقا النار عليه من مسدسات مزوّدة بكواتم للصوت وجمعا فوارغ الرصاصات وغابا عن الأنظار. ويعتبر هذا الفندق فألاً سيئاً على الشخصيات العربية المهدّدة بالاغتيال، ففي 13/ 6/ 1980، تم اغتيال الدكتور يحيى المشد في إحدى غرف الفندق، والمشد كما هو معروف كان مسؤولاً في المشروع الذري العراقي.

ويمكن القول أن اغتيال بسيسو شكّل، على الأقل مفاجأة، إن

لم نقل صدمة لرفاقه، فالرئيس الفلسطيني الراحل عرفات والقيادة الفلسطينية كانت تخوض مفاوضات مع إسرائيل ضمن الترتيبات التي أفرزتها حرب الخليج الثانية ومؤتمر مدريد، وفتح صفحة جديدة في العلاقات بين الفلسطينيين وإسرائيل.

وأمام أصابع الاتهام التي وجهت إلى إسرائيل، نفى اللواء أوري ساغي رئيس شعبة الاستخبارات الإسرائيلية، أية علاقة لبلاده في الحادث، ولكنه أشار إلى أن بسيسو مسؤولٌ عن قتل الرياضيين الإسرائيليين في ميونخ وعن المحاولات الفاشلة لضرب طائرة العال في روما عام 1978.

وقيل كثير عن ملابسات اغتيال بسيسو وعن طبيعة الرسالة التي حاولت إسرائيل توصيلها والجهة المستهدفة بذلك.

ومثلما يحدث في مرات كثيرة، غابت قضية عاطف بسيسو، عن اهتمامات الرأي العام الفلسطيني، ولكن هناك من كان يعاين حادث الاغتيال بصورة مباشرة مثل زوجته ديما، ومحاميها فرانسوا جيبو، والقاضي جان لوي بروغيير، الذي كلّف بالتحقيق في ملف اغتيال عاطف بسيسو في قلب العاصمة الفرنسية، ومعرفة الجهة التي تقف وراء حادث الاغتيال.

وبعد مرور سبع سنوات، وفي شهر آذار/ مارس 1999م قدّم القاضي الفرنسي تقريره عن الحادث واتهم فيه الموساد الإسرائيلي بالوقوف وراء قتل بسيسو، وأنه استعان بذلك بالجاسوس عدنان ياسين لتنفيذ عملية اغتيال بسيسو. وفتح ذلك من جديد ملف عدنان ياسين الذي أصبح أشهر جاسوس يتم اكتشافه كان يعمل في منظمة

التحرير عقب انتقالها من بيروت إلى تونس، وكان مسؤولاً عن ترتيبات السفر في المنظمة. وقال عدد من الكوادر الفلسطينية التي عرفت عدنان ياسين أنه كان يطلب من الواحد منهم ثلاث صور لإنجاز معاملات الإقامة لهم في تونس وعندما يسأل الواحد منهم لماذا ثلاث صور كان عدنان ياسين يجيب مازحاً: «صورة للتونسيين، وأخرى للملف، وثالثة للموساد»..! وبحكم علاقاته كان عدنان ياسين يدخل إلى مكاتب كبار المسؤولين بسهولة ويسر، وبفضل تعاونه مع إسرائيل كانت المخابرات الإسرائيلية على علم بكثير مما يدور في المكاتب الفلسطينية، وخلال جولات المفاوضات الفلسطينية ـ الإسرائيلية التي سبقت توقيع إتفاق أوسلو، كان المفاوضون الفلسطينيون يصابون بالذهول عندما يدركون بأن الطرف الآخر لديه معلومات كافية عما سيطرحونه وما سيناورون عليه وخطط التفاوض التي عادةً ما كانت توضع في مكتب محمود عباس أبي مازن.

وأثار نشر تقرير القاضي الفرنسي، سجالات بين الإسرائيليين والفرنسيين، مع غياب عربي وفلسطيني واضح. ولم يفكر أحد حتى بالإشادة بجهد القاضي بروغير، ومهنيته، فهذا الرجل أخذ المسألة، كما اتضح بشكلٍ جدي، وليس كما كانت تفعل الأجهزة المشابهة في الدول الغربية الأخرى عندما يتعلق الأمر بالإرهاب الإسرائيلي على أراضيها.

علم بورغيير بأن ثلاثة أشخاص فقط علموا بنية عاطف بسيسو التوجه إلى فرنسا، ضيفاً على جهاز المخابرات الفرنسية أل «دي أس

تيه»، وهؤلاء هم: زوجته ديما، وأحد المسؤولين في المنظمة وعدنان ياسين، وبعد التحقيق، اشتبه القاضي الفرنسي بعدنان ياسين بأنه وفّر المعلومات عن تحرّكات بسيسو للموساد الإسرائيلي.

وتوجّه القاضي إلى منظمة التحرير الفلسطينية، في مطلع العام 1993، مطالباً بتفاصيل المكالمات التي كان يجريها عدنان ياسين، من مقر المنظمة في تونس في اليوم الذي سبق حادث الاغتيال، وحسب مصادر فلسطينية فإن المنظمة لم تستجب، ولكن هذا القاضي، وجد طريقة للوصول إلى هدفه، ويعتقد أن المخابرات الفرنسية ساعدته بوضع يده على المكالمات التي كان يتركها عدنان ياسين في «آنسر مشين» الهواتف التي يتحدّث إليها في فرنسا وإيطاليا، وبعد تحليل هذه الرسائل تأكّد الفرنسيون من علاقة عدنان ياسين بالموساد.

ـ العميل الفلسطيني عدنان ياسين:

كان الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات في مكتبه في شارع يوغرطة في أحد أحياء العاصمة التونسية حين اتصل به الرئيس التونسي زين العابدين بن علي صباح يوم الاثنين 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1993 طالباً منه رفع الحصانة الدبلوماسية عن عدنان ياسين الذي يحمل صفة رئيس شعبة في سفارة دولة فلسطين في تونس بسبب ضلوعه في قضية تجسس خطيرة. وعندما استفسر عرفات من بن علي عن الموضوع وافق على الفور وأبدى كل استعداد للتعاون. فقال بن علي إن وحدات خاصة من الشرطة ستتوجه على الفور إلى مقر سفارة فلسطين في شارع باستور.

وفي منتصف الطريق تقدمت باتجاه السفارة أربع سيارات مدنية ترجل منها رجال أمن بلباس مدني طوق بعضهم مبنى السفارة ودخل البعض الآخر حيث كان عدنان يجلس في أحد مكاتبها في الطابق الأرضي ولم يكن أحد في المكتب يعرف أسباب اعتقال المسؤول الفلسطيني ومع راويات كثيرة ترددت عن أن سبب اعتقاله هو تجارته بالعملة المزورة ومصادرة مخدرات من منزله، إلا أن عمليات تفتيش دقيقة للسفارة، ولمنازل عدد من القادة الفلسطينيين ومنزل عدنان ياسين نفسه، سرعان ما أخذت أبعاداً كبيرة. ولعب نبأ اكتشاف جهازي إرسال، الأول مثبت في كرسي والآخر في جهاز إضاءة، دوراً في إحداث الصدمة الكبيرة، لا سيما أن عدنان ياسين، وحسب قول أحد زملائه في العمل، كان مسؤولاً عن أشياء كثيرة ومتشابكة بحكم وجوده في مكتب المنظمة في تونس على مدى 23 عاماً وقد تجمعت بين يديه أشياء ومهام متراكمة من إصدار شهادات الميلاد وحتى شهادة الوفاة والإشراف على تكفين الموتى ودفنهم إلى علاقته بوزارة الداخلية والجمارك، وما ينتج عن ذلك من معرفته بدخول وخروج كل ضيف على القيادة الفلسطينية سواء كان ذلك في السر أم في العلن.

وفيما كانت عمليات تفتيش المكاتب والمقرات مستمرة، كان الرئيس عرفات يدقق في تقارير أولية وصلته عن نشاط عدنان ياسين من أجهزة الأمن التونسية وكان من بين الأشياء التي تسلمها تسجيلات لمكالمة هاتفية. كان عدنان يجريها مع حليم الصاوي ضابط الاتصال المصري الأصل الذي كان حلقة اتصال بين عدنان والمقر الرئيسي لجهاز الاستخبارات الإسرائيلية «الموساد» في

إسرائيل، وكان حليم قدم نفسه لعدنان حسب اعترافاته للجنة التحقيق - التي شكّلت من حكم بلعاوي وزير الداخلية الفلسطيني، وعبد الله الإفرنجي سفير فلسطين في ألمانيا، واللواء أمين الهندي رئيس جهاز المخابرات الفلسطينية، والساعد الأيمن للشهيد أبي أياد، ومجيد الآغا محافظ رفح - بأنه رجل أعمال وعرض عليه المساعدة أثناء وجوده في باريس لمتابعة علاج زوجته المصابة بمرض السرطان وسنحت ظروف تواجد الاثنين في فندق «ميرديان» الباريسي لتبادل الأحاديث في قضايا عامة عرف من خلالها حليم الصاوي أن عدنان في مكتب المنظمة. وفي إحدى السهرات طلب عدنان من حليم مساعدته لإيجاد وظيفة لابنه الذي يتابع دروسه في ألمانيا.

- عملية قبرص:

ومع تردد عدنان حسب ما يقول في اعترافاته، نجح حليم في تجنيده للتجسس لمصلحة حلف شمال الأطلسي وليس الموساد، وكانت المعلومات التي طلبت منه في بداية الأمر معلومات عامة انطباعات أكثر من كونها تقارير. وقال عدنان أن تجنيده تم في العام 1990.

وتؤكد المخابرات الفلسطينية أن عدنان ياسين لعب دوراً بارزاً في إعطاء معلومات لجهاز الموساد لاغتيال ثلاثة قادة بارزين في قبرص وهم أبو حسن محمد بحيصي، حمدي سلطان، مروان كيالي بعد أن غادروا تونس متوجهين إلى قبرص للإشراف على تنظيم عدد من الخلايا العاملة داخل الأراضي المحتلة، وقد اعتبر

اغتيالهم في حينها بأنه من أبرز الضربات الموجعة التي تلقاها جهاز القطاع الغربي داخل حركة فتح، ولم يستبعد مسؤول في اللجنة المركزية لحركة فتح أن يكون نشاط ياسين لمصلحة الموساد امتدت سنوات طويلة. وأن عدنان ياسين لم يكن ليصل إلى هذا المستوى من التعامل مع الموساد على استعمال أجهزة متطورة وحبر سري ورسائل بالشفرة لو لم يكن مر قبلها في مراحل عدة.

ولهذا فإن ربط اسمه بقضايا أخرى مثل اغتيال عاطف بسيسو رجل الأمن الأول والابن المدلل للرئيس عرفات، والذي وصفه الرئيس ياسر عرفات برجل الأمن القومي، والكشف عن زيارة جورج حبش لفرنسا واغتيال أبي جهاد خليل الوزير ليس مستبعداً، لأنه كان من القلائل جداً الذين يطلعون على تحركات المسؤولين الفلسطينيين بحكم إشرافه ومعرفته بأسماء المسافرين ورحلاتهم.

ويتذكر مسؤول في اللجنة المركزية لحركة فتح أحد الإجتماعات التي عقدتها اللجنة ويقول: إن عرفات قال للمجتمعين أن دنيس روس الموفد الأميركي الخاص بمفاوضات السلام طلب منه عقد الإجتماع في مقر السفارة الأميركية أثناء زيارته الأخيرة لتونس بسبب وجود أجهزة تصنت، إلا أن أعضاء اللجنة المركزية وخصوصاً الرئيس عرفات رفضوا عقد الإجتماع في السفارة نظراً إلى ما يتضمنه ذلك من معان، واستنتج المسؤولون الفلسطينيون أن الأميركيين على علم بعمليات التجسس التي تقوم بها المخابرات الإسرائيلية منذ زمن، ولكن منذ أن وقّعت المنظمة الإتفاق مع

إسرائيل، رأى المسؤولون الأميركيون أنه يجب وضع حد لهذا النشاط.

وكشف عبد الله الإفرنجي عضو اللجنة المركزية لحركة فتح وعضو لجنة التحقيق وسفير دولة فلسطين في ألمانيا، بعض الاعترافات التي أدلى بها ياسين في الأيام الأولى من اعتقاله، حيث قال: «إن اعترافات ياسين الأولية فيها ثغرات كبيرة فهو حاول أن يقلص الفترة التي عمل فيها لمصلحة الموساد، إذ قال إنها تعود إلى ثلاث سنوات فقط، وهو تاريخ انتقال زوجته للعلاج في باريس وتعرفه على حليم الصاوي. وواضح أن حجم المعلومات التي أدلى بها ياسين حتى هذه الفترة ليس قليلاً فهناك جواسيس لم يتم اكتشافهم في ألمانيا والولايات المتحدة وبريطانيا وحتى في دول عربية على رغم أننا نعترف بأنهم نجحوا في تجنيد عناصر جديدة.

ـ معلومات سياسية:

وأوضح الإفرنجي «إن تزويد ياسين بأجهزة إرسال وتسجيل لوضعها في مكتب السيد محمود عباس الذي يشرف على ملف المفاوضات مع إسرائيل، يعني أن ياسين بعيد بشكل أو بآخر عن مصادر المعلومات. ولهذا لا نريد أن نقلل من أهمية عملية الكشف أو نبالغ في حجم الدور الذي قام به. لكن الأكيد أن حرص إسرائيل على الحصول على تفاصيل موقف المنظمة من المفاوضات من خلال استماعها إلى ما يجري من حوارات في مكتب أبي مازن آنذاك، يعني أن إسرائيل لا تنوي تنفيذ عمليات اغتيال بقدر ما هي حريصة على معرفة تفاصيل الموقف والتوجهات الفلسطينية في

عملية السلام». وذكر الإفرنجي أن ياسين سلم الكرسي وجهاز الإضاءة في مكتب أبي مازن في 3 تشرين الأول/أكتوبر عام 1993 وأن اكتشاف عملية التجسس لم يستغرق أكثر من ستة أسابيع بفضل الحذر التونسي والفلسطيني وعمليات الكشف الدوري على مقرات ومكاتب منظمة التحرير وأجهزتها المختلفة. ونفى الإفرنجي أن تكون المخابرات الألمانية أو الفرنسية زودت الحكومة التونسية أو جهاز الأمن الفلسطيني بأية معلومات عن نشاط ياسين.

ـ محطة الاستقبال ومطاردة عدنان ياسين لعاطف بسيسو في باريس:

عن حجم جهاز التنصت والإرسال الذي عثر عليه في كرسي أبي مازن قال الإفرنجي إن بطارية الجهاز من النوع المتطور وهي صالحة لمدة 5 سنوات وثبت باتجاه محطة استقبال مزروعة في الأراضي التونسية، الأمر الذي يثبت وجود أشخاص آخرين قد يكون ياسين على معرفة بهم. كما أن جهاز الإضاءة الذي كان موضوعاً على مكتب أبي مازن يحتوي على جهاز تسجيل تتم تعبئة بطاريته بشكل أوتوماتيكي بحكم توصيل السلك الكهربائي في المكتب. وقال عضو لجنة التحقيق الفلسطينية أن مهمة عدنان الرئيسية كانت وضع الأجهزة في المكان المناسب. ولم يستبعد الإفرنجي أن يكون لياسين صلة باغتيال عاطف بسيسو القيادي البارز في الأمن الفلسطيني والذي اغتاله الموساد في باريس في فندق «ميرديان» وهو الفندق الذي تعرف فيه ياسين على ضابط الاتصال حليم الصاوي. ومما قاله الإفرنجي أن عدنان التقى بالشهيد عاطف

بسيسو في فندق «الميرديان» قبل عام من اغتياله وأنه خلال الفترة التي كان يتواجد فيها الشهيد عاطف في باريس قبل اغتياله بأيام كان على اتصال بعدنان في تونس ليساعده على إدخال سيارة له اشتراها من فرنسا وذلك بحكم اختصاص عدنان وصلاته بالجمارك والسلطات التونسية المعنية.

واعترف الإفرنجي بحجم الإمكانات الهائلة التي يستخدمها جهاز الموساد، وقال إن أجهزة للتصنت والتجسس تم العثور عليها إلا أنها لم تكن بأهمية الجهاز الذي زرع في كرسي أبي مازن، وقال: إن ياسين اعترف بأن الموساد طلب منه تقديم وثائق مختلفة، لكنه كان يعجز عن ذلك بعد أن تقلصت صلاحياته في العامين الماضيين لأسباب مسلكية تعود إلى إدمانه الكحول، الأمر الذي أكده حكم البلعاوي.

ويؤكد مستشار مقرب من الرئيس ياسر عرفات أنه لم يعثر على أي جهاز تنصت في مكتب عرفات أو في أي من المقرات التي يتردد عليها. وأكد أن الكرسي المجهز وجهاز الإضاءة وأشياء أخرى وصلت إلى تونس في اليوم الذي تم فيه توقيع الإتفاق الفلسطيني - الإسرائيلي.

ملكيور نداداي

(... - 1993)

هل يسقط مليون قتيل في مئة يوم والعالم لا يعرف شيئاً؟ منذ الإستقلال في العام 1962 كان جميع الذين يهتمون برواندا يعرفون أن النار تحت الرماد. وأساساً من العام 1959 كان الهوتو، وبمساعدة بلجيكا التي راهنت عليهم كغالبية إثنية قد طردوا من البلاد أكثر من 300,000 من التوتسي. ومنذ دخول الجبهة الوطنية الرواندية (FPR) الحرب في تشرين الأول/أكتوبر عام 1990، وهي منظمة سياسية عسكرية تناضل من أجل المنفيين وأعضاؤها لاجئون في أوغندا ويتكلمون الإنكليزية، ترجم كل تقدم بمجازر ارتكبت في حق التوتسي.

في آب/أغسطس، وتحت ضغط من الدول المموِّلة وقعت معاهدة سلام في أروشا في تنزانيا. وقد نصت المعاهدة على تشكيل حكومة انتقالية تتمثل فيها الجبهة الوطنية الرواندية إلى جانب المعارضة السياسية وبضمان من قوة سلام تابعة للأمم المتحدة. ويومها فقط أبدى الدبلوماسيون الأجانب تفاؤلاً إلى درجة أن الدول الأعضاء في مجلس الأمن اعتبرت أنه يكفي تخصيص رواندا بقوة

من 2548 عنصراً (بدلاً من 4500) كما كان يطالب قائد قوات الأمم المتحدة في رواندا (MINUAR)، الجنرال الكندي روميو دالار، وبحصر مهمتها بالباب السادس من ميثاق الأمم المتحدة الذي يحظر اللجوء إلى القوة. والحقيقة أن رواندا، الدولة الفقيرة والمحرومة ظاهرياً من أي أهمية إستراتيجية قد تحملت عواقب هزيمة الولايات المتحدة في الصومال وأن أحداً لم يرد فعلاً التورط فيها باستثناء البلجيكيين والفرنسيين.

وفي أي حال فإن المؤشرات المقلقة لم تكن خافية، ففي تموز/يوليو عام 1993 أطلق «متشددو» النظام، بالتكافل في ما بينهم، محطة راديو وتلفزيون «التلال الألف» التي راحت تشكك في معاهدة السلام وتبث عبر موجاتها دعايات الكراهية بحق الجبهة الوطنية الرواندية، التوتسي عامة والبعثة البلجيكية متهمة إياها بالانحياز إلى الجبهة الوطنية. وأساساً كان يتم، منذ شباط/فبراير عام 1993 تجنيد عشرات الآلاف من شباب الهوتو الذي جرى تدريبهم في المعسكرات، التي كان يمكن رؤيتها من الطريق، على استخدام الأسلحة النارية والسواطير. فكيف فاتت عملية التعبئة هذه، المتعاونين العسكريين من البلجيكيين والفرنسيين والذين كانوا يزودون حكوماتهم أدنى تحرك للقوات؟

وفي تلك الحقبة ذاتها كان يتم تحويل بعض الاعتمادات المقدمة من البنك الدولي عن وجهة استخدامها لشراء الأسلحة والمجارف، فيما كانت مصر، ومقابل أموال مضمونة في مصرف «كريدي ليوني» تسلم على دفعات أسلحة وذخائر. وفي تشرين

الأول/ أكتوبر عام 1993 جاء اغتيال ملكيور ندادا‌ي، وهو رئيس من الهوتو منتخب شرعياً، في بوروندي، على يد عسكريين من التوتسي ليساهم في زيادة حدة التوتر في رواندا.

وفي كانون الثاني/ يناير عام 1994 تأكدت الشبهات عندما أكد أحد المخبرين لقوات الأمم المتحدة «مينوار» أنه جرى تسجيل جميع التوتسي كما يجب. وقد وصف هذا المخبر تدريب «الانترهاهاموي» (يَقتلون معاً)، وإقامة مخازن الأسلحة والذخيرة وقدّم الدليل على صحة مزاعمه بمرافقته عناصر من قوات حفظ السلام إلى أحد الملاجئ في مقر الحزب الرئاسي، وقد حُوِّل إلى مخبأ أسلحة. كما شدد على التهديدات التي تحف بالقبعات الزرق البلجيكية.

غير أن البرقية المرمزة التي أرسلها الجنرال دالار إلى نيويورك في 15 كانون الثاني/ يناير، طالباً فيها السماح بتفكيك مخابئ الأسلحة، لم تحظَ بالجواب المنتظر، فقسم عمليات حفظ السلام، الذي كان يديره وقتها السيد كوفي أنان، حظر عليه القيام بأي مبادرة. وأكثر ما جرى هو أن السفراء الغربيين فاتحوا بالموضوع الرئيس جوفينال هابياريمانا، الذي مع نفيه حقيقة الواقع راح يوزع الأسلحة على كل بلدة في البلاد.

وبالرغم من التحذيرات التي وجهها في شباط/ فبراير، من كيغالي، وزير الخارجية البلجيكي ويلي كلاييس، ومن اغتيال وزير الأشغال العامة وزعيم الحزب الإجتماعي الديمقراطي فيليسيان غاتابازي، وبالرغم من الرسائل التي وجهها إلى الجنرال دالار

العديد من كبار الضباط منذرين فيها من «خطة ماكيافيلية» ومن تضاعف الاعتداءات وما رافقها تقريباً من تصاعد أعمال العنف، بالرغم من كل ذلك فإن شيئاً لم يتغير. فلم تعدَّل مهمة قوات «مينوار» واكتفى مجلس الأمن في 17 شباط/ فبراير بالتعبير عن مخاوفه.

وفي نيسان/ أبريل عام 1994 جاء الاعتداء على طائرة الرئيس هابياريمانا وحتى الآن لم تحدد هوية منفذيه ومدبريه، ليشكل نقطة إنطلاق عملية الإبادة. فجرت حملة اغتيالات مركزة، استهدفت شخصيات معتدلة من الهوتو ومواطنين توتسي عاديين، وهي عملية كان قد خطط لها منذ أشهر ونفذت بكل دقة، وقدمت على أنها «تعبير عن حالة الغضب الشعبي» إثر موت رئيس البلاد. وفي هذا الوقت كانت قوات الأمم المتحدة مبعثرة في البلاد تنقصها الذخائر والعناصر. وفي صبيحة 7 نيسان/ أبريل 1994، حين علم الجنرال دالار ومساعده لوك مارشال أن عشرة عناصر من القبعات الزرق البلجيكيين مكلفين حماية رئيس الوزراء يواجهون وضعاً حرجاً في كيغالي، لم تطرح حتى فكرة المبادرة إلى نجدتهم.

وفيما كانت الجثث تُجمع في شاحنات المصالح العامة، وفيما كانت فرق الجزارين تجوب المدينة والجنرال دالار يطلب التعزيزات، انحصرت الأمور بشكل أساسي في عملية إخلاء المبعدين. ومن أجل ذلك أرسل الفرنسيون 450 عنصراً والبلجيكيون 450 مظلياً ثم 500 آخرين إلى كينيا، انضم إلى العملية 80 إيطالياً فيما كان هناك 250 رانجرز في بوروندي. ولو أن هذه القوات

الغربية ضمت جهودها إلى جهود مينوار لكان في إمكانها على الأرجح منع وقوع المجازر في كيغالي وإسكات الإذاعة المتطرفة وفرض وقف إطلاق النار. لكن هذه القوات وبناء على أوامر من حكوماتها، اكتفت بمهمة إخلاء الجاليات الأجنبية متخلية عن المدنيين التوتسي ومن بينهم الأزواج من الجنسيتين وموظفو السفارات ومنهم العاملون في المركز الثقافي الفرنسي والعشرات من التوتسي الذي وضعوا أنفسهم في حماية قوات الأمم المتحدة. كما تم التخلي أيضاً عن قوات حفظ السلام وهي في حالة العجز هذه. إلا إن الفرنسيين، وبناء على أوامر الرئيس فرنسوا ميتران حرصوا على إخلاء أرملة الرئيس هابياريمانا الذي كان ينتمي إلى معسكر «المتشددين»، وعلى وضع بعض شخصيات النظام في أماكن آمنة.

ولم يكن هذا كل شيء في عملية التخلي عن رواندا، ففي 12 نيسان/ أبريل 1994 أبلغ الوزير ويلي كلاييس الذي صدمه مقتل عشرة من قوات حفظ السلام، إلى الأمين العام للأمم المتحدة بطرس غالي أنه سوف يتم سحب القوة البلجيكية في «مينوار» وباشر نشاطاً ديبلوماسياً في محاولة لإقناع سائر الدول بالقيام بالمثل.

وفي الوقت نفسه كان ممثل رواندا المرتبط بالمتطرفين يحتل في مجلس الأمن مقعد عضو غير دائم وكان ممثلون عن حكومته يستقبلون في باريس فيما استمرت فرنسا، وعبر غوما في شمال كيفو، في تسليم الأسلحة. أما في ما يتعلق بالأميركيين والبريطانيين فإنهم تمسكوا بالاعتراض على تعزيز عديد قوات «مينوار» كما ولو

أن الضرورة القصوى كانت تفرض عدم القيام بأي عمل. ومن جهة أخرى حرصت وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت على منع استعمال كلمة إبادة كونها تفرض عندها التدخل. وفي أواخر نيسان/ أبريل 1994 كان السيد بطرس غالي لا يزال يتكلم عن «حرب أهلية». وفي 21 نيسان/ أبريل صدر القرار 912 عن مجلس الأمن داعياً إلى خفض قوات الأمم المتحدة في رواندا ليصبح عددها أقل من 500 عنصر من القبعات الزرق. وقد كان هؤلاء محرومين من الطعام والذخيرة والسيارات وحتى من مياه الشرب، وعاجزين عن نجدة المدنيين الذين كانوا يطلبون الحماية أو المساعدة، حتى وإن كانوا قد نفذوا بشجاعة ونجاح العديد من عمليات الإخلاء.

وإذ اهتمت الصحافة برواندا فإنما كان ذلك لكي تصور من جهة أوغندا الجثث التي كانت تطفو على بحيرة فيكتوريا أو من أجل متابعة الهجرة الكثيفة في أوساط الهوتو الذين بعد أن ارتكبوا جريمتهم فروا إلى تنزانيا للإفلات من الأعمال الانتقامية.

وقبل ذلك بكثير كان فيليب غايار باسم اللجنة الدولية للصليب الأحمر، ومنظمة أطباء بلا حدود التي قتل إداريوها ومرضاها في بوتاري والجنرال دالار نفسه قد كرروا الشهادات المقلقة ونداءات المساعدة. وقد كان يجب الانتظار حتى 11 و12 أيار/ مايو 1994 لكي يستخدم مفوض الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، السيد جوزي أيالو لاسو الذي زار البلاد، كلمة «إبادة» أخيراً. وفي هذا الوقت كانت الصحافة في أغلبيتها لا تزال تتحدث عن مجازر بين الإثنيات

وعن نزاعات قبلية. وفي حين أن المجازر قد ديرت ونظمت على يد الحكومة المؤقتة التي شكّلت بعد مقتل هابياريمانا، كانت رواندا توصف على أنها «دولة مفلسة» غارقة في نوع من الفوضى البربرية. وكأنما المقصود وبأي ثمن نقل الكليشيه الصومالي إلى هذا البلد الخاضع لتراتبية دقيقة حيث المواطنون تعودوا إطاعة الأوامر الآتية من فوق.

وطوال مدة المأساة لم يتحرك الرأي العام إلا في حزيران/ يونيو 1994. وبالرغم من المعارضة الأميركية انتهى مجلس الأمن إلى التصويت لصالح تشكيل قوات «مينوار2» معززة، غير أن الأمم المتحدة لم تجد لا الرجال ولا المال لتنفيذ هذه المهمة. أما الولايات المتحدة التي كان يتوقع أن تقدم السيارات والمصفحات، فطالبت بأن يدفع لها سلفاً. أما في ما خص الجبهة الوطنية فقد كانت تتقدم ببطء وإنما بشكل واثق في اتجاه كيغالي، مضيِّقة الخناق على خصومها وضحاياها، معتبرة أنه لم يعد هناك فائدة بعد الآن من تدخل قوات أجنبية.

وليس ذلك فقط لأن غالبية التوتسي كانت قد قتلت بل بنوع خاص لأنها لم ترضَ بأن يسلبها أحد إنتصارها. وعندها اندفعت فرنسا إلى المواقع الأمامية، ففي 22 حزيران/ يونيو 1994 حصلت من مجلس الأمن على موافقة للإنطلاق في عملية يغطيها الباب السابع الذي يسمح باستخدام القوة.

ولئن كان الأوان قد فات على إنقاذ مئات الآلاف من المدنيين الذين قضوا خلال الأسابيع الأولى من عملية الإبادة، وإذا كان قد

أمكن إيواء ما بين 1000 و15000 شخص فقط في مخيمي نياروشيشي وبيسيسيرو، إلا أنه ظل من الممكن محاولة إنقاذ رهان الحكومة الانتقالية التي استقبلت الفرنسيين بحماسة. وهي، على أمل أن تنتهي عملية قوات حفظ السلام إلى منع تقدم الجبهة الوطنية، فرضت مفاوضات على أساس تقسيم الأراضي. غير أن تقدم قوات الجبهة الوطنية بسرعة وأخيراً تأثر الرأي العام نجحا في التسبب بانقسام الحكومة الفرنسية. ففي وجه العسكريين الذين أرادوا «كسر شوكة الجبهة الوطنية» ولم يخفوا تضامنهم مع رفاق السلاح من الهوتو والفرنكفونيين الذين أعدوهم ودربوهم، قرر رئيس الحكومة إدوار بالادور أن يحد من طموحات العسكريين من وراء عمليات قوات الأمم المتحدة التي اضطرت إلى الاتصال بالجبهة الوطنية مما جعلها تكتفي بإقامة منطقة إنسانية آمنة في غرب البلاد حيث التقت كل المجموعات المتطرفة والحكومة المؤقتة جامعة بذلك ملايين المدنيين الهوتو.

وفي هذه المنطقة بدا الفرنسيون عاجزين عن منع وقوع العديد من المجازر إلا أنهم رفضوا نزع سلاح العسكريين والميليشيويين وتفادوا توقيف المسؤولين عن المذبحة الذين لجأوا في ما بعد إلى زائير، ولم يوقفوا إرسال إذاعة «التلال الألف» الحاقدة. والفرنسيون الذين أتوا بطائرات هليكوبتر قتالية وطائرات جاغوار وميراج والمئات من المدرعات ومدافع الميدان، إنما مع قليل من الشاحنات والأدوية، وجدوا أنفسهم عاجزين إزاء وباء الكوليرا التي تفشى في غوما وأودى بحياة ما يزيد على 40000 لاجئ من الهوتو.

وفي هذه الأثناء حضرت الصحافة، كما الجمعيات الإنسانية، للقيام بدورها بعد أن تأثرت أخيراً بالمأساة الرواندية، وقد شجعها على ذلك الوجود الفرنسي وسهولة الاتصالات. وقد استقرت السلطة الجديدة في صحراء بكل معنى الكلمة، فكوادر الدولة كانوا قد هربوا ناقلين الملفات والسيارات والودائع المصرفية و300,000 يتيم يجوبون البلاد. إلا أن المجتمع الدولي رفض التدخل ومساعدة الجبهة الوطنية، وفيه من شجب المجزرة المزدوجة وآخرون طالبوا بنظام يعطي ضمانات للمصالحة فيما كانت الجثث لا تزال مكومة في الحفر.

وفي الحقيقة أن الجبهة الوطنية، وبالرغم من علاقاتها الجيدة بالولايات المتحدة وبريطانيا، قد دفعت ثمن وصولها إلى السلطة في دولة فرنكفونية بدون أن تحصل على موافقة القوى الاستعمارية السابقة.

إن وجود مخيمي كيفو التي تأوي ما يزيد على مليوني لاجئ من الهوتو يطوقهم مرتكبو المجزرة ويتغذون من المساعدات الإنسانية، سوف يجعل المنطقة في حالة دائمة من عدم الاستقرار. ففي تشرين الأول/ أكتوبر عام 1996، وبعد أن طلب السيد بول كاغام زعيم الجبهة الوطنية عبثاً من اللجنة العليا للاجئين ومن سائر وكالات الأمم المتحدة أن تزيل عن حدود بلاده الخطر الذي يشكله هذان المخيمان، أطلق هجوماً أراد به خلق حالة تجبر على إعادة اللاجئين الروانديين وإلى تشتيت الآخرين في أراضي زائير الشاسعة (وقد أصبحت في ما بعد جمهورية الكونغو الديمقراطية).

وكان المجتمع الدولي، العاجز عن تفادي مذبحة مخطط لها ومعلنة، يشهد دورة أخرى من المأساة. فبعد سبعة أشهر تمت إطاحة المارشال جوزف ديزيريه موبوتو، الذي كانت تدعمه فرنسا إلى أقصى الحدود، على يد لوران ديزيريه كابيلا وحلفائه الرونديين والأوغنديين. وإلى أن نشبت حرب جديدة في العام 1998 كان الروانديون لا يزالون يطاردون «الانترهاهاومي» الفارين عامدين في طريقهم، مع حلفائهم الأوغنديين، إلى نهب موارد الكونغو. وبعد سقوط مليون قتيل في المذبحة، جاء دور ما يزيد على ثلاثة ملايين ضحية من الكونغوليين، الذي وقعوا هم أيضاً طي النسيان، وقد وقعوا في كماشة بين الحرب ونهب الموارد الطبيعية وصراع شرس على النفوذ بين الفرنكفونيين والأنغلوفونيين من أجل السيطرة على قلب أفريقيا.

نائب عمران المعايطة

(- 1994)

رد المجلس العدلي برئاسة القاضي أنطوان خير، بالإجماع، الطلب الذي تقدم به المحكوم عليه يوسف محمود شعبان بإعادة محاكمته في قضية اغتيال المستشار الأول للسفارة الأردنية في لبنان نائب عمران المعايطة بعد صدور حكم في حقه عن المجلس العدلي بإنزال عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة.

وجاء في القرار:

«إن المجلس العدلي مؤلف من الرئيس الأول لمحكمة التمييز أنطوان خير والرؤساء: عفيف شمس الدين ومهيب معماري ورالف الرياشي والمستشار لدى محكمة التمييز بركان سعد، لدى التدقيق والمذاكرة، تبين أن المحكوم عليه يوسف محمود شعبان، وكيلته المحامية مي الخنساء، تقدم في تاريخ 13/2/2005 من المجلس العدلي بواسطة النائب العام التمييزي بطلب إعادة محاكمة في الحق العام طعناً في القرار رقم 2 الصادر في تاريخ 19/10/1994 عن المجلس العدلي في دعوى مقتل المستشار الأول في سفارة المملكة الأردنية الهاشمية في لبنان نائب عمران المعايطة والقاضي في شق

من فقرته الحكمية بتجريمه وثائر محمد علي بالجناية المنصوص والمعاقب عليها في المادة 549 فقرتها الأولى من قانون العقوبات، وبإنزال عقوبة الإعدام بكل منهما، وبخفضها تخفيفاً إلى الأشغال الشاقة المؤبدة سنداً إلى المادة 253، وبإدانتهما بالجنحة المنصوص عليها في المادة 13 أسلحة وبحبس كل منهما مدة ستة أشهر وبإدغام العقوبات المقررة فتنفذ في حق كل منهما العقوبة الجنائية كونها الأشد، وبإلزام يوسف شعبان بتقديم المسدس الحربي غير المضبوط تحت طائلة دفع ضعفي ثمنه مبلغ تسعماية ألف ليرة لبنانية، وبالحبس يوماً واحداً عن كل ألفي ليرة عند عدم الدفع.
أدلى المستدعي بقبول طلب إعادة المحاكمة في الشكل والأساس ورؤية الدعوى مجدداً تمهيداً لإعلان براءته من الجرائم المنسوبة إليه، وهو عرض الآتي:

1 ـ أنه تم توقيفه في لبنان منذ حوالي أحد عشر عاماً لاتهامه بالإقدام بالإشتراك مع آخرين على قتل نائب عمران المعايطة المستشار الأول في سفارة المملكة الأردنية الهاشمية في لبنان. وقد صدر في حقه قرار عن المجلس العدلي في تاريخ 19/ 10/ 1994 قضى بتجريمه سنداً إلى المادة 549 فقرتها الأولى من قانون العقوبات وبإدانته بجنحة المادة من قانون الأسلحة وبإنزال عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة به.

2 ـ أنه وبعد مرور أكثر من ثمانية أعوام على توقيفه في لبنان، قبضت السلطات الأمنية التركية في تاريخ 18/ 1/ 2000 على المتهم آسر محمد أحمد سلامه أبو شنار الملقب بثائر محمد

علي، فتم تسليمه إلى السلطات الأردنية التي ادعت عليه وعلى المتهمين الفارين: عقاب نمر سليمان الفقهاء الملقب بعز الدين نمر، وجمال درويش مصطفى فطاير الملقب براشد أحمد عطية، وإحسان صادق صالح الرضوان الملقب بسعد عمر، وصدري خليل عبد الحميد البنا الملقب بأبي نضال. وقد وجهت إليهم تهمة الانتماء إلى جمعية غير مشروعة باسم المجلس الثوري هدفها القيام بعمليات عسكرية ضد أمن بعض الدول ومن بينها قتل المستشار الأول في السفارة الأردنية في لبنان نائب المعايطة.

3 - أنه في تاريخ 3/ 12/ 2001، صدر عن محكمة أمن الدولة في المملكة الأردنية الهاشمية القرار رقم 465/ 2001 وهو وجاهي في حق المتهم ياسر محمد أحمد سلامه أبو شنار وغيابي في حق المتهمين الآخرين، قضى بتجريمهم ومن ذلك إنزال عقوبة الإعدام شنقاً بالمتهم أبو شنار سنداً إلى المادتين 147 و148/ 4 من قانون العقوبات رقم 16 لعام 1960. وقد أُبرم هذا القرار بموجب القرار الصادر في تاريخ 16/ 6/ 2002 عن محكمة التمييز في المملكة الأردنية الهاشمية.

4 - إن القرار رقم 465/ 2001 الصادر في تاريخ 3/ 12/ 2001 عن محكمة أمن الدولة أورد الوقائع التي استنبتها وهي تفيد بما مضمونه أن المتهم أبو شنار والمتهمين الآخرين ينتمون إلى المجلس الثوري المنشق عن منظمة التحرير الفلسطينية الذي قرر القيام بعمليات عسكرية ضد الأردن ومن ذلك

اغتيال أي دبلوماسي أردني في السفارة الأردنية في لبنان. وأنه بعد ظهر يوم 28/ 1/ 1994، وبتكليف من المتهمين إحسان صادق صالح الرضوان وصبري خليل عبد الحميد البنا، توجه ياسر أبو شنار وعقاب الفقهاء وجمال فطاير إلى مكان وقوف سيارة الدبلوماسي الأردني في لبنان نائب المعايطة قاصدين اغتياله بعدما توزعوا الادوار في ما بينهم. الا انه لم يحضر إلى سيارته فغادروا المكان خوفاً من انكشاف أمرهم، وأنه صباح اليوم التالي في 29/ 1/ 1994، عاد المتهمون الثلاثة المذكورون إلى المكان نفسه قرب البناء الذي يقيم فيه نائب المعايطة في بيروت. وكان ياسر أبو شنار يحمل مسدساً كذلك المتهم عقاب الفقهاء الذي كان دوره حماية الأول عند تنفيذ الجريمة، فيما تولى المتهم جمال فطاير قيادة السيارة التي نقلتهم إلى مسرح الجريمة، ولما شاهد المتهم ياسر أبو شنار نائب المعايطة يركب سيارته تقدم منه وأطلق النار عليه من نافذتها طلقات عدة أصابته في أنحاء متفرقة من جسمه وقد غادر المتهمون الثلاثة المكان إثر ذلك.

خلال محاكمته أمام المجلس العدلي في لبنان في أي دور له في جريمة الاغتيال، ولم يكن بالإمكان التعويل على أقوال الشهود المستمعين في التحقيقات الجارية في لبنان لجهة تحديدهم لمكان وجوده يوم الحادثة، وذلك لتباين أقوالهم لهذه الجهة، فضلاً عن أن أوصافه لا تنطبق على أوصاف القاتل التي أفاد بها من شاهد الجريمة وإن شهادة عطاف يوسف في حقه هي باطلة كونها أخذت

تحت وطأة الإكراه. بالإضافة إلى أن الطبيب الشرعي اللبناني أحمد الحاراتي الذي كشف على جثة المغدور أكد أن القتل تم بفعل شخص واحد، متوافقاً بذلك مع ما جاء لهذه الجهة في تقرير الطبيب الشرعي الأردني قيس القسوس.

وتبين أن النيابة العامة التمييزية أحالت في تاريخ 17/ 1/ 2006 طلب إعادة المحاكمة إلى المجلس العدلي مرفقاً بمطالعتها المؤرخة في 12/ 1/ 2006 والتي طلبت بموجبها قبول طلب إعادة المحاكمة شكلاً ورده أساساً لعدم قانونيته نتيجة عدم اكتمال الشروط المقررة في البند (ب) من المادة 328 من قانون أصول المحاكمات الجزائية.
وفي المقابل، تبين من قرار المجلس العدلي اللبناني الصادر في تاريخ 19/ 10/ 1994 في حق يوسف محمود شعبان استثباته الوقائع التي تفيد أنه في تاريخ 29/ 1/ 1994 توجه المتهمون سمير أحمد وثائر محمد علي - وهو المتهم ياسر أبو شنار الذي حكم عليه القضاء الأردني - وعقاب الفقهاء في سيارة مرسيدس إلى منطقة الروشة وقد اصطحبوا معهم يوسف شعبان الذي كان في حوزته مسدساً من عيار 9 ملليمترات، كذلك ثائر علي الذي كان يحوز مسدساً مشابهاً، وأنه بوصولهم إلى قرب منزل نائب المعايطة، توقفوا هناك وانتظروا خروجه من منزله، وأنه حوالي الساعة 9,15 صباحاً نزل المغدور من المنزل وصعد في سيارته التي اقترب منها ثائر محمد علي - أي ياسر أبو شنار - وأطلق عليه عيارات نارية عدة من مسدسه محدثاً كوة في زجاج الباب الأمامي الأيسر للسيارة حين تقدم يوسف شعبان منها بدوره وأطلق عيارات نارية عدة من مسدسه محدثاً كوة في زجاج الباب الأمامي الأيسر للسيارة حين تقدم يوسف

شعبان منها بدوره وأطلق عيارات عدة في اتجاه رأس نائب المعايطة وجسمه، ولم يتوقف حتى تأكد من مقتله، وكان عقاب الفقهاء يقوم في هذه الأثناء بتأمين الحماية، ثم فر الجناة بعد ارتكابهم جريمتهم.

اعتبر المجلس العدلي في قراره أن الوقائع المنسوبة إلى المتهم يوسف شعبان هي مؤيدة بأكثر من دليل من ذلك؟

1 ـ اعتراف المتهم يوسف عبواني أمام قاضي التحقيق في 15/ 2/ 1994 بحصول الإتفاق في حضور يوسف شعبان لاغتيال نائب المعايطة وحضور شعبان يوم السبت في 29/ 1/ 1994 لإعلامه ومن معه بإشتراكه مع ثائر محمد علي وعقاب الفقهاء بعملية الاغتيال التي تمت.

2 ـ اعتراف يوسف شعبان أمام قاضي التحقيق الأول في 14/ 2/ 1994 بإشتراكه باغتيالات عدة وبأنه ينتمي ويوسف عبواني إلى المجلس الثوري الفلسطيني الذي يرأس عبواني فيه لجنة المهمات.

3 ـ اعتراف يوسف شعبان الصريح أمام قاضي التحقيق الأول في تاريخ 5/ 2/ 1994 بإشتراكه في تنفيذ عملية اغتيال نائب المعايطة مع سمير أحمد وثائر محمد علي وعقاب الفقهاء. وقد كرر شعبان اعترافه هذا في حضور وكيله المحامي بشارة أبو سعد.

4 ـ بأقوال الشاهدة عطاف يوسف في التحقيق الأولي وأمام قاضي التحقيق الأول عن مشاهدتها ليوسف شعبان يطلق النار على نائب المعايطة وهو على ستة أمتار منه.

5 ـ إفادة الشاهد حميدة علي خلوف أمام قاضي التحقيق الأول بمشاهدتها يوم الحادثة، بعد سماعها لصدى طلقات نارية لشخصين يسيران هرولة في اتجاه البحر أحدهما كان يحمل مسدساً قرب سيارة المغدور وقد تعرفت إلى هذا الأخير فيما بعد على أنه يوسف شعبان.

وقد خلص المجلس العدلي في ضوء الأدلة التي اعتمدها إلى إعتبار أن يوسف محمود شعبان وثائر محمد علي ـ يا ياسر أبو شنار ـ قد أطلقا النار بالإشتراك على المغدور وقضى بتجريمهما بجناية القتل المنصوص عليها في المادة 549 فقرتها الأولى من قانون العقوبات. بناء عليه:

ـ في الشكل:

بحيث إن القانون رقم 711 تاريخ 9/ 12/ 2005 المعدل لقانون أصول المحاكمات الجزائية رقم 328/ 2001 أجاز الطعن أمام المجلس العدلي عن طريق إعادة المحاكمة بكل القرارات الصادرة عنها بما فيها تلك الصادرة قبل نفاذ إذا توافرت فيها شروط المادة 328 الجديدة من أصول المحاكمات الجزائية، وحيث إن القانون 711/ 2005 أعطى لنفسه مفعولاً رجعياً فتنطبق أحكامه على القرار الصادر عن المجلس العدلي موضوع طلب إعادة المحاكمة الحاضرة، ولو كان قد صدر وأبرم قبل نفاذه لوجود نص قانوني مخالف للقاعدة العامة المقرر في هذا الشأن.

وحيث أن طلب إعادة المحاكمة المحال على هذا المجلس في تاريخ 17/ 1/ 2006 والمسجل لديه برقم 1/ 2006 يستجمع شروط

الشكلية المحددة في المادة 329 الجديدة من أصول المحاكمات الجزائية فيقبل في الشكل.

ـ في الأساس:

حيث إن يوسف محمود شعبان يسند طلبه بإعادة المحاكمة إلى البند (ب) من المادة 328 من قانون أصول المحاكمات الجزائية المعدلة بموجب القانون رقم 711 تاريخ 9/ 12/ 2005 وهي تنص على إحدى حالات إعادة المحاكمة المتمثلة بصدور حكم على شخص بجناية أو بجنحة، والحكم في ما بعد على شخص آخر بالجرم ذاته وبالصفة نفسها شرط أن ينتج من ذلك دليل على براءة أحد المحكومين عليهم.

إن طلب إعادة المحاكمة يعتبر أن القرار الصادر عن محكمة أمن الدولة في الأردن في حق ياسر أبو شنار الذي جرمه بقتل الديبلوماسي نائب المعايطة من شأنه أن يؤلف دليلاً على براءته من هذه الجريمة خلافاً لما قضى به قرار المجلس العدلي الصادر بحقه في لبنان.

وحيث إنه يفهم من البند (ب) من المادة 328 المذكورة أن حالة إعادة المحاكمة الملحوظة بموجبها تستوجب من ضمن شروطها صدور حكمين جزائيين كليهما عن القضاء اللبناني، متناقضين أي غير متوافقين في القانون، بمعنى أن تكون المسؤولية الجزائية المقررة بموجب أحد هذين الحكمين نافية بصورة جازمة للمسؤولية الجزائية المقضي بها في الحكم الآخر بشكل يستنتج منه دليل على براءة أحد المحكوم عليهما بموجب هذين الحكمين.

وحيث إن القرار المدلى به كسند لإعادة المحاكمة صادر عن القضاء الأردني وليس عن القضاء اللبناني، فلا يكون قد توافر للطلب أحد شروطه المعينة في المادة 328 محاكمات جزائية، مثل هذا التعارض لا يؤلف التناقض بين حكمين والمقرر لاكتمال شروط إعادة المحاكمة المبينة في البند (ب) من المادة 328 المذكورة.

وحيث إنه بعدم تحقق التناقض، وعدم التوافق بين ما انتهى إليه قرار المجلس العدلي في لبنان في حق المحكوم عليه يوسف محمود شعبان وثائر محمد علي، وما انتهى إليه قرار محكمة أمن الدولة في حق المحكوم عليه يوسف محمود شعبان وثائر محمد علي، وما انتهى إليه قرار محكمة أمن الدولة في الأردن للأسباب السابق بيانها، فإنه لا يكون قد ترتب على صدور القرار الأردني ما يمكن أن يبنى عليه الدليل على براءة يوسف محمود شعبان مما حكم به لجهة تجريمه بمقتل نائب المعايطة، وفقاً لما هو مقرر في البند (ب) من المادة 328 محاكمات جزائية، مما يجعل الشرط الآخر المفروض لتطبيق هذه المادة غير محقق بدوره. وحيث إن طلب إعادة المحاكمة تبعاً لكل ما تقدم يستوجب الرد.

لذلك يقرر المجلس العدلي بالإجماع:

أولاً: قبول طلب إعاذة المحاكمة المقدم من المحكوم علي يوسف محمود شعبان شكلاً ورده أساساً وإبرام قرار المجلس العدلي المطعون فيه في الشق منه المتعلق به.

ثانياً: تضمين يوسف محمود شعبان كل النفقات القانونية ومصادرة مبلغ التأمين.

ـ الأردن أصدر حكماً بالإعدام على أبو نضال:

أصدرت محكمة أمن الدولة في الأردن حكماً بالإعدام شنقاً حتى الموت على صبري البنا الشهير بأبي نضال وأربعة من أعضاء تنظيم حركة فتح/ المجلس الثوري الذي يتزعمه بعد أن أدانتهم باغتيال دبلوماسي أردني في بيروت عام 1994.

وجرت محاكمة أغلبية المتهمين غيابياً حيث لم يمثل منهم أمام القاضي سوى متهم واحد ويدعى ياسر أبو شمار، وأدينوا جميعاً باغتيال السكرتير الأول في السفارة الأردنية في بيروت نائب عمران المعايطة خارج منزله عام 1994.

ووجهت للمتهمين الخمسة تهمتا التآمر من أجل القيام بأعمال إرهابية أفضت إلى مقتل المعايطة والانتماء إلى تنظيم غير مشروع وهو تنظيم حركة فتح/ المجلس الثوري.

وأشارت لائحة الاتهام إلى أن المتهم الرئيسي في القضية هو عقاب نمر سليمان المعروف بعز الدين نمر الذي يترأس لجنة خاصة تابعة للمجلس الثوري مهمتها الأساسية استهداف دبلوماسيين أردنيين بناء على تكليف من أبو نضال.

وتُتهم حركة أبو نضال بالتسبب منذ العام 1973 في عدد من عمليات التفجير والاغتيالات أسفرت عن مقتل وجرح مئات الأشخاص في بلدان متفرقة. وكانت وزارة الخارجية الأميركية قد وصفت هذه الحركة بأنها أخطر تنظيم في العالم.

نجيب محفوظ

(1911 - ...)

(محاولة اغتيال في العام 1994)

نجيب محفوظ عميد الرواية العربية هو نجيب محفوظ بن عبد العزيز بن إبراهيم بن أحمد باشا. فاسمه المفرد مركب من اسمين تقديراً - من والده - للطبيب العالمي الراحل نجيب محفوظ الذي أشرف على ولادته. روائي مصري حائز على جائزة نوبل في الآداب عام 1988. ولد في 11 كانون الأول/ ديسمبر عام 1911 في القاهرة، وحصل على ليسانس الآداب قسم الفلسفة من جامعة القاهرة وتدرج بالوظائف الحكومية حتى عمل مديراً عاماً للرقابة على الأعمال الفنية عام 1959.

- نشأته الثقافية:

أتم دراسته الإبتدائية والثانوية وعمره 18 سنة، وهذا مؤشر على نجابته إذ كان الحصول على شهادة الدراسة الثانوية في هذه السن وفي ذلك الوقت يعتبر علامة بارزة على ذكائه. وقد التحق بالجامعة سنة 1930 ثم حصل على الليسانس في الفلسفة.

يُعدّ نجيب محفوظ من الأدباء العباقرة في مجال الرواية وقد وهب حياته كلها لهذا العمل، كما أنه يتميز بالقدرة الكبيرة على التفاعل مع القضايا المحيطة به، وإعادة إنتاجها على شكل أدب يربط الناس بما يحصل في المراحل العامة التي عاشتها مصر. يتميز أسلوب محفوظ بالبساطة، والقرب من الناس كلهم، لذلك أصبح بحق الروائي العربي الأكثر شعبية.

ـ مجال العمل:

رغم أن نجيب قد انخرط في عدة أعمال إلا أن العمل الذي «إلتَهَم» حياته هو الكتابة. فقد كتب في مجلة «الرسالة» قصصاً صغيرة، وأثناء ذلك كان يبحث عن مقومات فنه، ويشق طريقه بخطوات ثابتة.

ـ أعماله:

بدأ نجيب محفوظ بكتابة الرواية التاريخية ثم الرواية الإجتماعية. وتزيد مؤلفاته على 50 مؤلفاً. ومن مؤلّفاته الروائية:

* «**الطريق**».
* «**السمان والخريف**» الناشر مكتبة مصر للطباعة.
* «**بداية ونهاية**» وله أيضاً رواية «**ثرثرة على النيل**» التي أثارت ضجة واسعة حين صدورها في الستينات. بالإضافة إلى مجموعاته القصصية العديدة ومنها:
* «**تحت المظلة**».
* «**همس الجنون**».

ترجمت معظم أعماله إلى جميع اللغات العالمية وحصل على جائزة الدولة التشجيعية في الرواية عام 1959.

يقدر النقاد نجيب بفضل رواياته المتميزة، كيفاً وكمّاً، وذلك بفضل ريادته لهذا الفن وتطويره الدائم لأساليب الكتابة القصصية. ومن رواياته:

* **«زقاق المدق»** (1947).
* **«ثلاثية القاهرة»**:

1 ـ **«بين القصرين»** (1956).

2 ـ **«قصر الشوق»** (1957).

3 ـ **«السكرية»** (1957).

* **«أولاد حارتنا»**، والتي كانت السبب في محاولة اغتياله في العام 1994.
* **«اللص والكلاب»** (1961).

وقد تعرض محفوظ للمحاربة من قبل بعض المسلمين الذين رأوا في كتاباته مساساً بالشخصيات الدينية، خصوصاً بسبب روايته «أولاد حارتنا» التي منعت من الطبع في مصر، حيث يستخدم محفوظ الرموز الشعبية ليقدم شخصيات الأنبياء.

ـ محاولة الاغتيال والأسباب:

عندما قام شاب في مساء الجمعة 14 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1994 بطعن نجيب محفوظ في رقبته بالسكين محاولاً اغتياله، كتب المعلقون وقتها أن هذا الشاب لم يكن يعرف ماذا يفعل!

وعندما سمعوه يتحدث في مقابلة تليفزيونية بعد الحادث، تأكدوا من ذلك إذ أنه لم يقرأ حرفاً واحداً للروائي العربي والعالمي الكبير، ومع ذلك قام بمحاولة قتله بناء على ما كان يسمعه من تحريض ضد الكاتب من بعض المتطرفين الذين سمح لهم مجتمع فقد بوصلته الحضارية بأن يسطوا على منابر الجوامع ليبثوا من عليها خطب الكراهية والعدوانية. وكان البعض من هؤلاء ليس فقط من خطباء الجوامع بل أيضاً من أساتذة الجامعات الذين نشروا كتباً ودراسات عن نجيب محفوظ، كانوا قد دأبوا لعدة سنوات يخطبون ويكتبون مهاجمين الأديب العربي الوحيد الذي حصل على جائزة نوبل في الأدب، متهمينه بأنه ليس مسلماً صحيح الإسلام، وبأنه يكتب ضد الإسلام. وقاموا بإلقاء التهمة الجاهزة لديهم التي يطلقونها بخفة وكراهية على الكثيرين وهي نفس التهمة التي أطلقها أسامة بن لادن على الكثيرين.. أنهم كفّار! فقالوا إن نجيب محفوظ كافر..!

ولكن الذين قاموا بمحاولة قتل نجيب محفوظ لم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون. فرغم أن الشاب الذي طعن بالسكين لم يقرأ لنجيب محفوظ ولم يعرفه، فإن الذين حرضوا ضد نجيب محفوظ كانوا يعلمون تماماً ماذا يفعلون، فرغم أن اتهاماتهم محفوظ بالكفر وبعدم التدين هي اتهامات مشينة وباطلة ـ لأن كل من عرف نجيب محفوظ عرفوا فيه الرجل المحبّ الجميل بالغ الحساسية والحكمة والفضيلة ـ رغم ذلك فقد كان هؤلاء المتطرفون يدركون جيداً أن نجيب محفوظ في كل كتاباته وأعماله الروائية الباهرة المضيئة يمثل النقيض تماماً لكل ما يمثلونه هم من فكر عدواني دموي كاره للآخر

وللحياة. لقد قرأوا بلا شك بعض ما كتب نجيب محفوظ. ويكفي أن نقرأ كلمات قليلة من أي عمل من أعمال هذا المبدع الفذ لندرك توّاً مبلغ سموّ الطاقة الإنسانية والروحية الشاهقة التي يمتلكها، والتي تقطر كل كلمة يكتبها بشهد هو شهد الحياة نفسها. ليس الحياة بأبعادها اليومية الوجودية الجسدية الغرائزية فقط، بل أيضاً، وفي نفس الوقت، الحياة بأبعادها الروحية العالية، ذات الاشتياق الصوفي العظيم للكمال الأعلى، وللحقيقة الخالدة.

لقد كان قاتلو الفكر والفعل يعرفون تماماً ماذا يفعلون عندما ارتعبوا مما يكتبه هذا الإنسان المرهف من كتابات تجمّعت فيها عصارة الألم والأمل والخوف والحب واليقين والبحث والضمير والخطأ الإنساني كله. كما تتجمع في كل إنسان حيّ جدير بهذه الصفة، لكنه سبق الآخرين في أنه استطاع أن يسبر غور هذه المشاعر المتلاطمة كلها ويعبّر عنها على لسان شخصياته في رواياته وقصصه، فإذا هو يهدي إلينا، ويهدي الإنسانية جمعاء، أجمل هدية، هي هدية الكشف وإضاءة جوانب الذات المظلمة، هدية معرفة النفس، ومعرفة الآخر، ومعرفة الوجود، والسعي الدائم لمعرفة خالق هذا الوجود. وقد فعل ذلك ليس بأسلوب الوعظ المباشر المعنّف الذي لا يلمس قلب الإنسان وبالتالي لا يؤثر ولا يجدي كمعظم الخطب المباشرة المعنفة المقرعة بلا جدوى، وإنما فعله بأسلوب الطبيب الجراح الذي يبحث عن أصل الداء، ويضع يده على الجزء المريض المتعب من الجسد. لكي يمكننا بعد هذا أن نقدم العلاج، أو الراحة المسكنة. كما فعله بأسلوب المحبّ لكل الناس، فعندما نقرأ شخصيات رواياته، حتى الشخصيات

الإجرامية مثل «سعيد مهران» في رواية «اللص والكلاب» لا نملك إلا أن نشعر بالعطف والحزن والمشاركة الإنسانية لشقاء هذه الشخصيات الإجرامية، ونلمس فيما يكتبه نجيب محفوظ أن طاقته على محبة الجميع تشمل حتى المجرمين الذين يصورهم ببراعة وإنسانية بالغة في رواياته.

نعم إن القاتلين قد رأوا في فكر نجيب محفوظ تهديداً لهم، لأن جمال وبهاء الإنسانية التي في إبداعاته تفضح قبح ودمامة مشاعر الكراهية والعدوانية التي يمثلونها هم بفكر عدواني كاره للحياة.

لقد عرف العالم كله قدر هذا المبدع العظيم فمنحه العالم جائزة نوبل في الأدب عام 1988، وذلك عن أربع روايات بشكل خاص، ثلاثيته الشهيرة التي تضم «بين القصرين» و«قصر الشوق» و«السكرية»، وكلها أسماء حارات في حي الجمالية الذي وُلد فيه محفوظ، ثم رواية «أولاد حارتنا» التي قام إرهابيو الفكر والفعل بتكفيره بسببها! والجميع يذكر «أولاد حارتنا» والتي كانت جريدة «الأهرام» تنشرها مسلسلة في «أهرام الجمعة». كما نُشر في الأهرام أيضاً «الطريق» و«اللص والكلاب» و«السمان والخريف» و«ميرامار». وكان كل جزء ينشر كل جمعة هو زاد القارئ الحضاري والروحي للأسبوع كله، وكان عدداً كبيراً من طلاب الجامعات يتابع هذه الكتابات الباهرة التي يتحفنا بها محفوظ كل أسبوع.

بالطبع لا تستطيع روايات عادية أو حتى جيدة أن تفعل هذا

الفعل في عقول ونفوس عدة أجيال من شباب مصر والعالم العربي. فقد كان هناك كُتاب آخرون كبار وقتها مثل إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي وعبد الحليم عبد الله وغيرهم، يكتبون الرواية أيضاً، ولكن لم يقترب أي منهم من مكانة محفوظ، ولم يحصل أي منهم على نوبل. فما الذي في كتابات محفوظ لكي يكون لها فعل السحر هذا؟ إن السر في كتاباته لا يكمن في صفة واحدة منها، ولا يرجع إلى سبب واحد، ولكن إن كان لنا أن نوجزها كلها في صفة أساسية شاملة واحدة، فهي أن كتاباته كانت مملوءة حتى الثمالة بعصارة الحياة نفسها وكلها. عصارة هي مزيج من الشهد والمرّ، والخمر والعلقم، والفاكهة وماء الورد وأمطار الجبال وأنهار السفوح، وينابيع الشباب السحرية التي تحدثنا عنها الأساطير دون أن نجدها في مكان. كل هذا في أسلوب يجمع بين الفلسفة والشعر. ففي حواراته ووصفه حكمة عالية هي حكمة الفلاسفة، وشاعرية مرهفة نافذة مثل وحي أبلغ الشعراء. ولكن من أين لمحفوظ كل هذه الفلسفة وكل هذا الفكر والشعر؟! من سلامة موسى، أما الفلسفة فقد درسها في كلية الآداب قسم الفلسفة، والتي تخرج منها عام 1934. ولكن الملفت أن نبوغه كان قد ظهر عدة سنوات قبل هذا، إذ بدأ ينشر المقالات النقدية عام 1928 أي وهو طالب في سن السابعة عشر.

ويقول الناقد الكبير رجاء النقاش في كتابه «في حب نجيب محفوظ»: «الحقيقة أن نجيب محفوظ هو خلاصة الامتزاج والتفاعل في شخصيته بين أستاذين كبيرين هما الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب، وسلامة موسى، الصحفي

والمفكر الكبير. وكان سلامة موسى ثائراً مجدداً، ومؤمناً متطرفاً بالحضارة الغربية الحديثة. وكان في نفس الوقت من المتحمسين للحضارة الفرعونية والداعين إلى إحيائها، وقد تأثر به نجيب محفوظ تأثراً واضحاً، فتحمس للحضارة الفرعونية وترجم عنها ـ وهو طالب في الجامعة ـ كتاب «مصر القديمة»، وهو أول كتاب يكتبه محفوظ، وقد نشره له سلامة موسى، وتحت تأثير سلامة موسى أيضاً أصدر نجيب محفوظ رواياته الثلاث الأولى، وكلها عن مصر الفرعونية، وهي: «عبث الأقدار» و«رادوبيس» و«كفاح طيبة». أما الشيخ مصطفى عبد الرازق، وشقيقه علي عبد الرازق، فقد كانا منارتين للفكر الإسلامي المتفتح المستنير في مطلع القرن العشرين، وهو الفكر الذي تراجع في مصر منذ السبعينات أمام زحف الفكر المتطرف للجماعات الإسلامية. وبذلك تعلم نجيب محفوظ من أستاذيه مصطفى عبد الرازق وسلامة موسى التدين في اعتدال، والإيمان مع الانفتاح على عقائد الآخرين بدون تعصب، وتعلم أسس الفكر العلمي الموضوعي، والثقافة الإجتماعية العلمانية، وهكذا نجد في كل كتاباته بعد ذلك فكراً متحرراً موضوعياً سابقاً لمجتمعه.

إبداعاته الفلسفية من الضروري أولاً التنبيه إلى أن المقاطع التي سنوردها هنا مأخوذة معظمها من روايات وقصص نجيب محفوظ عن لسان شخصياته الروائية، وبالتالي لا نستطيع أن نقول إن هذه هي بالضرورة أفكاره هو، فعندما يضع المؤلف كلمات عن لسان مجرم شرير، مثلاً، فستكون أفكاره وأقواله شريرة، ولا نستطيع أن نقول إن هذه هي أفكار المؤلف أيضاً ووجهة نظره، ومع هذا

فيمكننا من طريقة صياغة المؤلف للكلمات والأفكار أن نعرف شيئاً عن فكر المؤلف حتى ولو جاء متخفياً على لسان شخصياته الروائية.

لنبدأ بعرض فكرة قالها نجيب محفوظ مباشرة في مقابلة مع محمد بركات، وهي بهذا فكره الشخصي، ويتضح منها المنحى الفلسفي لهذا الكاتب الكبير: «أعتقد أن كل إنسان يبحث عن السعادة وعن الحقيقة.. ورغبة بعض الناس الشديدة في السعادة ربما سقطت بهم إلى تحقيقها على حساب الحقيقة.. كما أن رغبة البعض الآخر في نشدان الحقيقة والبحث عنها ربما كانت على حساب ما يحققونه من سعادة.. ويبلغ الإنسان مرتبة الكمال عندما يتضح له في لحظة أن الحقيقة كل الحقيقة هي السعادة كل السعادة».

ويقول في قصة «الحب والقناع»: «الإنسان يفوق الحيوان في شهوة القتل فيقتل نفسه أيضاً». ونقرأ له في روايته «الحرافيش»: «إفرح عند كل شروق شمس، ولا تحزن عند غروبها.. و.. يا لتعاسة القلوب الغافلة..!». وفي «حضرة المحترم»، نقرأ هذه الكلمات الرائعة التي هي مزيج من الفلسفة والشعر والصلوات: «على الأرض تطرح أسرار إلهية لا حصر لها لمن له عين وبصيرة.. إن الله لم يخلقنا للراحة ولا للطريق القصيرة.. بالحزن يتقدس الإنسان ويعد نفسه للفرح الإلهي.. لم يعد يبالي بما كان ولا بما هو كائن ولا بما سوف يكون..» ونلاحظ في هذه المقاطع تعبيرات متأثرة بالعهد القديم. كما نلاحظ في الكثير من كتابات

وشخصيات محفوظ تأثيرات إسلامية واضحة، وهكذا فالرجل مسلم في اعتدال وانفتاح. . ولذلك اتهمه الإرهابيون بأنه ليس مسلماً صحيح الإسلام! أي ليس مسلماً على طريقتهم العدوانية.

ولكن لا نريد أن نعطي انطباعاً أن نجيب محفوظ رجل شديد التدين بالمعنى الفقهي للكلمة. . فكتاباته تنضح بقدر عظيم من عنفوان الحياة وشهواتها وتقلباتها. . فهو من ناحية له جانب صوفي روحي ينشد الحقيقة ويبحث عن المطلق، ومن ناحية أخرى لا يمنعه هذا من اجتراع عصارة الحياة حتى الثمالة. دون أن يعني هذا انغماسه في أي نوع من الابتذال في حياته الشخصية بل بالعكس، فحياته الشخصية كتاب مفتوح للجميع، فهو زوج وأب محبّ محافظ ليس له نزوات ولا عادات إجتماعية سيئة، وتتجلى محبته للناس وللحياة في حفاوته بالناس وحبّه للضحك الصافي وللسخرية والنكتة والقافية على طريقة المصريين جميعاً. فهو مصري في كل قطرة من دمائه وبكل مشاربه، لكنه يمثل أجمل ما في الأخلاق والطبائع المصرية. وله في وصف المصريين كلمات جميلة قالها في مقابلة مع ألفريد، إذ قال فيهم: «المصريون لطاف وأهل مودة، يحبون الحياة ويعشقون مسراتها، وبخاصة المسرّات الحسية، وفيهم من طبيعة النمل، ذلك هو دأب الواحد منهم. . وحتى لو لم تكن همته عالية، إلا أنها همة متصلة باستمرار. . تثمر في النهاية عملاً ضخماً، ومن صفات المصريين العجيبة أنهم تمرسوا بالاستبداد. . وهم من أقوى الناس على كراهيته وعلى الصبر عليه. إنهم يحتملونه كما يحتمل الشخص مرضاً مزمناً لا يحبه ولكنه يصبر عليه. يخيّل لي أنهم من أكثر شعوب العالم إحساساً بالحاكم.

وسبب ذلك أن الحاكم كان له دائماً وفي كل العصور أثر في كل تفاصيل حياتهم اليومية. . وهم من الشعوب المتدينة جداً. . ويغلب عليهم التعلق بالطقوس والمراسم والعادات الدينية. . وإن أي نقائص في الشخصية المصرية ـ كالقدرية وندرة الروح العلمية والسلبية في كثير من الأحيان ـ إنما ترجع إلى ما ورثته من عهود الظلام التي شملتها آلاف السنين».

ولنجيب محفوظ كلمات أخرى بها نقد عظيم للشخصية المصرية وللمصريين ـ على قدر حبه العظيم الواضح لهم ـ نقرأها على لسان شخصياته الروائية. ومنها: «كان كالثور المصري عظيم الخوار عديم الأذى». وتمنحه الروايات فرصة استخدام كلمات قد لا تكون لائقة لا يقولها هو ولكن تقولها شخصياته الروائية بشكل معبر قوي. . فنقرأ في «السكرية»: «الحق إن الاستبداد هو مرضهم (المصريين) المتوطن. . كل ابن كلب غرّته قوته يزعم لنا أنه الوصي المختار وأن الشعب قاصر. . نحن شعب قليل الأدب! . . لا أعرف شعباً كالشعب المصري ولعاً بالخوض في أعراض الأمهات. ! . . إن الزمن أدّبنا أكثر مما ينبغي، والشيء إذا زاد عن حدّه انقلب إلى ضده، ولذلك فنحن غير مؤدبين! ولكن تغلب علينا الطيبة رغم ذلك».

أما في «ميرامار» فيصرخ «عامر وجدي» في غضب: «أيها الأنذال، أيها اللوطيون، ألا كرامة لإنسان عندكم إن لم يكن لاعب كرة؟». . ويقول عامر وجدي أيضاً في نفس الرواية: «لقد سلبت (الثورة) البعض أموالهم وسلبت الجميع حرياتهم». أما حسني

علام، شخصية أخرى من شخصيات ميرامار فيخاطب المصريين قائلاً: «إني أتبرأ منكم!.. أتبرأ منكم يا فتات العصور البالية»!

وفي «المرايا» نقرأ على لسان شخصية تدعى «عبد الرحمن شعبان» هذه السخرية اللاذعة: «هكذا أنتم أيها المصريون، لن تزالوا غارقين في أوهام الكلمات حتى تموتوا.. لو لم أكن مصرياً لتمنيت أن أكون مصرياً! ولِمَ لا تتمنى أن تكون حماراً فيكون لك نفع على الأقل؟!.. وفي موضع آخر من «المرايا» أيضاً يقول عبد الرحمن شعبان: «أتعرف ما هي أكبر نعمة أُغدقت علينا؟ هي الاستعمار الأوروبي، وسوف تحتفل الأجيال القادمة بذكراه كما تحتفلون بمولد النبي».

ولكننا نعرف من كل هذا النقد القاسي، أن الذين يحملون للوطن حباً حقيقياً هم الذين ينتقدونه أشد النقد، بينما لا يقدم المنافقون سوى الطبل والزمر في الزفة.

ـ مزامير نجيب محفوظ:

في مقطع جميل من كتاب «في حب نجيب محفوظ» يصف رجاء النقاش النفحات الشعرية الخلابة في كلمات محفوظ هكذا: «نحس أن الكلمات مليئة بندى الشعر الجميل، كما نتذكر ونحن نقرأ هذه المقاطع «مزامير داود» التي جاءت بالعهد القديم والتي تعتبر ـ بعيداً عن قيمتها الدينية ـ مجموعة من أجمل الأغاني التي عرفتها الإنسانية في تعبيرها عن همومها وجروحها وآلامها ومناجاتها الصوفية للكون والحياة. ويمكننا أن نسمي هذه المقاطع «مزامير نجيب محفوظ» ولعل نجيب محفوظ قد تأثر بهذه المزامير وليس

عندنا من دليل إلا تشابه الروح التي تتأمل وتغني وتفكر وتصوغ خواطرها صياغة شعرية جميلة».

وليس أجمل من هذه «المزامير» نختم بها هذه المادة، اخترناها من عدد من أعمال نجيب محفوظ:

- في ظل العدالة الحنون تطوى آلام كثيرة في زوايا النسيان.. ولكن هل يتوارى الضياء والسماء صافية؟ - عاد إلى دنيا النجوم والأناشيد والليل والسور العتيق. قبض على أهداف الرؤية، وانتفض ناهضاً ثملاً بالإلهام والقدرة، فقال له قلبه لا تجزع فقد ينفتح الباب ذات يوم تحية لمن يخوضون الحياة ببراءة الأطفال وطموح الملائكة.
- إنه فقير ولكنه غنّي بحمل هموم البشر.
- ما أكثر العفة المتولدة عن العجز.
- إننا نأبى التسليم بالمثل العليا من طول انغماسنا في الماء الآسن.
- مأساة الآدمية أنها تبدأ من الطين، وأن عليها بعد ذلك أن تحتل مكانتها بين النجوم.
- الدنيا بلا أخلاق ككون بلا جاذبية.
- لماذا لا يسود النقاء؟ ما الذي حال دون ذلك طوال القرون؟ وهل يوجد في مكان ما من الأرض إنسان يعيش بلا خوف ولا رذائل؟
- تساؤل: ألا يمكن أن يؤكد انتسابه إلى الإنسان ويتناسى انتسابه الجبري إلى هذا الوطن؟

ـ ثمة آلام أعنف من ترف الضمير!

ـ الإنسان إما أن يكون الإنسانية جمعاء وإما أن يكون لا شيء.

وقد استطاع هذا الإنسان الجميل نجيب محفوظ أن يكون أقرب ما يكون إلى الإنسانية جمعاء.

ـ نجيب محفوظ يقاطع المنتجات الدانمركية:

في الحادي عشر من شباط/ فبراير عام 2006 أعلن الأديب المصري الحائز على جائزة نوبل للآداب نجيب محفوظ أنه يدعم مقاطعة المنتجات الدنمركية لأن العالم لا يفهم إلا لغة القوة.

وأضاف حسب صحيفة «العرب أونلاين»، أن المقاطعة قد لا تكون أفضل وسيلة لمواجهة هذا الوضع لكن في مثل هذه الظروف إنها الخيار الوحيد الموجود أمامنا.

العالم لا يفهم إلا لغة القوة. وتابع: قد يرى الغرب أخيراً وجهة نظر المسلمين ويفهم حاجتنا لحماية الرموز الدينية. معتبراً أنه من الضروري التفريق بين حرية التعبير وعدم احترام الرموز الدينية.

وشهدت مصر حملة مقاطعة للمنتجات الدنمركية وكذلك عدة دول عربية وإسلامية أخرى احتجاجاً على نشر رسوم كاريكاتورية للنبى محمد (صلعم) في صحيفة دنمركية.

فؤاد مغنية

(1962 ـ 1994)

ـ اغتياله:

لم ينجح الموساد في تطبيق سياسة الاغتيالات في لبنان ضد رجال حرب العصابات التي يقودها بكل قوة وتفوق وشجاعة «حزب الله»، وأصبحت سياستهم العسكرية تقوم على الهروب من لبنان والدفاع في الجنوب وراء جدار بشري لجيش لحد، ولكن هذا الجدار الذي لم يفلح في حمايتهم بدأ في التفكك، وأصبح الجنوب مقبرة للوحدات المختارة في الجيش الصهيوني والتي لا تقاتل إلاّ من وراء جدران محصنة. إن هذا الفشل والانهيار والتراجع دفع قادة الجيش الإسرائيلي، خاصة بعد عملية الدبشة البطولية، إلى الاستنجاد بالموساد لكي تغطي عجزهم في الجنوب، من خلال تنفيذ عمليات استعراضية في بيروت، اندفعت الموساد التي تشعر أنها عاجزة عن تنفيذ أي عمل مهم ضد قيادات «حزب الله» الدينية، والأمنية والسياسية والعسكرية، إلى تغطية عجزها وعجز المؤسسة العسكرية الصهيونية وإلى الخروج من هذا المأزق من خلال تنفيذ عملية اغتيال ضد تاجر في سوبر ماركت في حي صفير بالضاحية،

على أن ينفذها مجموعة من العملاء يتزعمها رائد التحق مع ياسر عرفات في العام 1988م، وعمل مع أمن عرفات، وكان مكلفاً بالمهمات القذرة.

طلب ضابط الموساد داني من العميل أحمد عبد البديع الحلاق، ومجموعته المتورطة بسلسلة جرائم أن يقوموا بمراقبة فؤاد مغنية أحد مسؤولي «حزب الله»، وبعد تنفيذ المراقبة، طلب منهم خطفه ونقله إلى الشريط الحدودي المحتل، وعندما اكتشف ضابط الموساد أن خطة الخطف لن تنجح، طلب منهم تصميم خريطة واضحة لمكان عمل فؤاد مغنية، وأرسلت الخريطة مع العميلة حنان ياسين زوجة العميل أحمد الحلاق إلى قبرص حيث قامت بتسليمها لضابط الموساد في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1994م. استدعت الموساد أحمد الحلاق إلى إسرائيل ودربته طوال فترة 12 يوماً على جهاز تفجير إلكتروني، وكلفته باغتيال فؤاد مغنية بينما يكون جالساً وراء مكتبه، بواسطة عبوة موضوعة لهذه الغاية.

كان العملاء طوال فترة ثلاثة أشهر يراقبون الحاج فؤاد، وكانوا يذهبون إلى المتجر، ويشربون القهوة لديه، ويرسلون بشكل دائم تقاريرهم بالهاتف إلى ضابط الموساد. وفي يوم التنفيذ ذهب العميل أحمد الحلاق إلى السوبر ماركت، وشاهد الحاج جالساً خلف مكتبه وسلم عليه وخرج وركب سيارته، وضغط على زر جهاز التفجير، حيث انفجرت العبوة التي تزن 50 كيلوغرام من مادة الـ «تي أن تي» وفرّ بسيارته مع زوجته من الضاحية، بعد أن ترك خلفه ثلاثة قتلى والعديد من الجرحى، وذلك بتاريخ 21/ 12/ 1994م.

تعتمد الموساد في عملية تفجير السيارات على مجموعتين مجموعة تقوم بإعداد السيارة المتفجرة، ووضعها في مكان الانفجار، ومجموعة أُخرى مهمتها فقط التفجير وليس لها أي علاقة بالمجموعة الأولى.

كان الحاج فؤاد مغنية من كوادر «حزب الله»، إلاَّ أنه متفرغ للعمل التجاري في السوبر ماركت الذي يديره بنفسه، وكان يعيش حياة علنية مدنية، سمتها الثبات في العنوان والمكان، وبرنامجه لا يتغير. لم يتخذ الحاج فؤاد الإجراءات الأمنية حول نفسه، لأنه يحيا كتاجر، ولم يخامره الشك أن آخر من يسلم عليه سيكون أول من يقتله.

إن شبكة العملاء التي نفذت الاغتيال مؤلفة من أشخاص مأجورين لا دوافع قوية لهم سوى المكاسب المادية، لذلك لم تنجح هذه الشبكة في تنفيذ عمل حقيقي ومؤثر لصالح الموساد وكان أداؤها طوال فترة المراقبة ضعيفاً. وقد نجحت الشبكة في التنفيذ، ولكنها فشلت في الفرار، فقد استطاعت الأجهزة الأمنية اكتشاف الشبكة وتفكيكها بعد 24 ساعة من تنفيذ العملية.

محمد حسني مبارك

(1928 ـ....)

(محاولة اغتيال في العام 1995)

نجا الرئيس محمد حسني مبارك من عشر محاولات اغتيال على الأقل، كانت الأولى عندما كان جالساً إلى جانب الرئيس محمد أنور السادات على المنصة خلال العرض العسكري الذي اغتيل فيه الرئيس السادات، والأخيرة في العام 1995.

خاض ثلاث حروب، اثنتين ضد الدولة العبرية، انتهت إحداهما بهزيمة، والأخرى خبا أوارها بفعل ثغرة الدفرسوار وخيمة الكيلو 101، وثالثة ضد الجماعات الإسلامية، أفَلت وغابت شمسها أمام مذبحة الأقصر التي راح ضحيتها 58 سائحاً.

رجل يتقن احتواء الأزمات وتجنب الانزلاق نحو الفوضى سواء انتفاضات الأمن المركزي، أو ثورات الخبز، وضمن إستراتيجيته للإمساك بخيوط اللعبة وأهداب السلطة، أبقى البلاد في حالة طوارئ.

تمتع بحياة صحية استثنائية بالنسبة لرجل في السابعة والسبعين

من العمر، وإن اهتزت قليلاً صورة الرجل العصي على المرض التي أطرت حياته، بعد إصابته بأزمة صحية أمام كاميرات التلفزة التي كانت تبث خطابه أمام مجلس الشعب، وتعلقت أنظار المصريين لنحو ساعة حين قطع التلفزيون المصري بثه، عاد بعدها مبارك ليكمل خطابه بعد إجراء الفحوصات اللازمة.

هو أقرب إلى الرئيس السادات ورؤيته الإقتصادية والسياسية، وأبعد عن الرئيس جمال عبد الناصر صاحب فن المواجهة والإشتراكية والتأميم والانفتاح على الإتحاد السوفياتي، مبارك أكمل ما بدأ به السادات سواء في الجانب الإقتصادي أو المواجهة مع الإسلاميين أو الانفتاح على الغرب وبناء علاقات إستراتيجية مع الولايات المتحدة الأميركية، وهو في الجانب العسكري يعتبر وريث ثورة 23 تموز/يوليو باحتفاظ العسكر بمنصب رئيس الجمهورية، وإبقاء المؤسسة العسكرية متماسكة وبعيدة نسبياً عن السياسة.

ـ من هو محمد حسني مبارك؟

ولد الرئيس حسني مبارك في العام 1928 في محافظة المنوفية بالدلتا من أسرة ريفية من الطبقة المتوسطة.

في العام 1950 حصل على البكالوريوس في علوم الطيران من أكاديمية القوات الجوية.

وفي العام 1963 تزوج من السيدة سوزان خريجة «الجامعة الأميركية» في القاهرة، والدتها بريطانية.

عين في العام 1967 مديراً للأكاديمية الجوية العسكرية.

وفي العام 1972 أصبح قائد القوات الجوية ونائباً لوزير الدفاع للشؤون العسكرية.

في العام 1973 قاد الضربة الجوية الأولى في حرب تشرين الأول/ أكتوبر، مما وضعه كخليفة للرئيس محمد أنور السادات ورقي إلى رتبة فريق.

عُين في العام 1975 نائباً للرئيس أنور السادات. وفي العام 1978 نائباً لرئيس الحزب الوطني الديمقراطي الحاكم.

انتخب في العام 1981 رئيساً للجمهورية بعد اغتيال الرئيس السادات في حادث المنصة.

أُعيد انتخابه في العام 1987 وكذلك للفترات الرئاسية للأعوام 1993، 1999، 2005، ضمن نظام الاستفتاء.

خاض في العام 1992 مواجهات عنيفة ضد التنظيمات الإسلامية، وموجة العنف التي أدت إلى سقوط 1300 شخص.

في العام 1995 تعرض لمحاولة اغتيال في أديس أبابا أثناء حضوره قمة منظمة المؤتمر الإسلامي بعد إطلاق النار على موكبه.

تعرض لمحاولة اغتيال ثانية في العام 1998 في مدينة بورسعيد خلال زيارته للمدينة عندما اقترب منه رجل يحمل سكيناً.

ـ مصطفى حمزة مهندس أول محاولة اغتيال:

كشف مركز المقريزي، الذي يديره الأصولي المصري هاني السباعي، في 4 كانون الأول/ ديسمبر عام 2004، نقلاً عن مصادر موثوقة في الجماعة الإسلامية أن الشيخ مصطفى حمزة 48

سنة متزوج ولديه أولاد قد تم تسليمه بالفعل من إيران إلى السلطات المصرية بموجب صفقة تحصل إيران بموجبها على تسهيلات من خلال إنشاء بعض المراكز الثقافية وتبادل المعلومات الأمنية حول بعض المعارضين للحكومة الإيرانية من «مجاهدي خلق» الذين يعيش بعضهم في حماية الأمن المصري بالإضافة إلى تحسين وجه إيران لدى الحكومة الأميركية عبر وساطة مصر.

وجاء في سيرة مصطفى حمزة، كما نشرها المركز:

أولاً: المهندس مصطفى حسن حمزة كان متهماً في قضية تنظيم الجهاد 462 لسنة 1981م حصر أمن دولة عليا.

ثانياً: كان قد تعرف على قيادي جماعة الجهاد أحمد سلامة مبروك قبل عام 1981م إذ كان معه في نفس الكلية التي تخرجا فيها سوياً من جامعة القاهرة، ثم كان ضابط احتياط في الجيش المصري. وكان القيادي أحمد سلامة مبروك 50 سنة قد اختطفته المخابرات الأميركية في أذربيجان وسلمته إلى مصر ثم حكم عليه في قضية العائدون من ألبانيا في نيسان/ إبريل عام 1999م.

ثالثاً: بعد اغتيال الرئيس المصري أنور السادات عام 1981م اعتقل ثم التحق في داخل السجن بالجماعة الإسلامية واقتنع بأفكارها.

رابعاً: سافر إلى أفغانستان وتنقل في عدة دول منها باكستان والسودان وإيران وكان المسؤول عن الجناح العسكري للجماعة الإسلامية الذي قام بعدة عمليات كبرى ضد الحكومة المصرية من منتصف الثمانينات حتى عام 1997م.

خامساً: في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1997 بعد عملية الأقصر ومقتل بعض السياح اختلف مع أمير الجماعة الإسلامية السابق الشيخ رفاعي طه، (أبي ياسر) الذي اختطف من سوريا وسلم إلى مصر أيضاً في العام 2001م. وأكد المهندس مصطفى حمزة في عدة تصاريح له أن الجماعة الإسلامية غير مسؤولة عن حادثة الأقصر. وكانت زوجة الشيخ رفاعي طه وأولاده يعيشون مع أولاد وزوجة الشيخ مصطفى حمزة في منزله بمدينة مشهد في إيران بعد اختطاف الشيخ رفاعي. (وقد سمحت السلطات المصرية مؤخراً لزوجة الشيخ رفاعي وأولاده بالرجوع إلى مصر).

سادساً: وفي العام 1998م تولى إمارة الجماعة الإسلامية (رئيس مجلس الشورى) بعد استقالة الشيخ رفاعي طه. ومنذ ذلك التاريخ وهو في نفس منصبه إذ أيدته القيادة التاريخية للجماعة الإسلامية في مصر بعد أن وافقها على بعض تراجعاتها الأخيرة.

سابعاً: والمهندس مصطفى حمزة محكوم عليه بالإعدام من قبل المحكمة العسكرية العليا في كانون الأول/ ديسمبر 1992 في قضية «العائدون من أفغانستان».

ثامناً: وكان المهندس أبو حازم (مصطفى حمزة) المشرف على عملية محاولة اغتيال الرئيس المصري حسني مبارك في أديس أبابا عام 1995م وحكم عليه أيضاً بالإعدام غيابياً من محكمة عسكرية خاصة.

تاسعاً: كان مركز المقريزي قد نشر في 26 تشرين الأول/ أكتوبر 2003م خبراً مفاده أن السلطات الإيرانية قامت باعتقال

الشيخ مصطفى حمزة ووضعته رهن الإقامة الجبرية رغم أنه لم يكن عضواً في تنظيم القاعدة ولم يكن ضمن المطلوبين لدى الإدارة الأميركية.

عاشراً: أفادت معلومات فيما بعد أن السلطات الإيرانية نشرت إشاعة مفادها أن المهندس مصطفى حمزة هو الذي قبل أن يسلم إلى مصر بعد مفاوضات أمنية جرت معه!!

حادي عشر: إننا نؤكد أن هذا محض افتراء وكذب إذ كيف يرضى أن يرجع إلى مصر طواعية وعليه حكما إعدام صادران من محكمة عسكرية لا يجوز الطعن في أحكامها وأن أحكامها، واجبة النفاذ سواء كان الحكم حضورياً أم غيابياً.

- محاولة اغتيال مبارك:

توترت العلاقات بين مصر والسودان عندما اتهمت أثيوبيا حكومة جمهورية السودان بالضلوع في محاولة اغتيال الرئيس المصري حسني مبارك في أديس أبابا يوم 26 حزيران/ يونيو عام 1995م. وعندما رفض السودان تسليم - بموجب معاهدة تسليم المجرمين التي وقعتها الدولتان العام 1964م - ثلاثة مطلوبين متورطين في محاولة الاغتيال الفاشلة هم مصطفى أحمد حمزة، وعزت ياسين وحسين أحمد شميط علي المعروف باسم فتحي أو سراج، الذي غادر أديس أبابا عقب محاولة الاغتيال إلى السودان، قامت جمهورية أثيوبيا الديمقراطية الفيدرالية بإغلاق القنصلية السودانية في قامبيلا، ووقف أنشطة المنظمات السودانية العاملة لديها تحت ستار وكالات إغاثة غير حكومية، وتقليص البعثة

الدبلوماسية في أديس أبابا إلى أربعة، ووقف رحلات الخطوط الجوية السودانية بين الخرطوم وأديس أبابا، ووجوب الحصول على تأشيرة الدخول للرعايا السودانيين الذي يرغبون دخول أثيوبيا، وتجميد تفاهم 1993م بين الخرطوم وأديس أبابا على التعاون في استعمال مياه النيل.

وفي تفاصيل ذلك اليوم، وبينما كان الرئيس المصري حسني مبارك في موكب يقله من مطار أديس أبابا إلى داخل المدينة للمشاركة في القمة الأفريقية تعرض موكبه لهجوم مسلح استهدفه، ولم يشارك الرئيس مبارك في القمة حيث أقفل عائداً إلى مصر. وجه الاتهام إلى تنظيم كانت تأويه السودان، وأهم أعضائه مصطفى حسن حمزة، وهو في الأصل من عناصر ما سمي بالـ «الأفغان العرب».

ـ من هم الأفغان العرب؟

برز مصطلح الأفغان العرب في وسائل الإعلام ليطلق على أخلاط من الشباب العربي العائد من باكستان وكان له ارتباط ما بالقضية الأفغانية وشارك في أعمال عنف في بعض الدول العربية مثل مصر والجزائر وليبيا واليمن، ثم تطور ليشمل كل من شارك في الحرب الأفغانية بأي صورة. ويمكن تحديد أسباب قدوم العرب إلى أفغانستان في النقاط التالية:

ـ مساندة المجاهدين الأفغان في حربهم على القوات السوفياتية منذ أواخر السبعينيات وطوال عقد الثمانينيات، وفي حربهم على الحكومة الموالية لروسيا حتى نيسان/ أبريل عام 1992.

- العمل في المجال الإغاثي داخل أفغانستان وفي مناطق اللاجئين في باكستان.
- الالتحاق بمعسكرات التدريب العربية في أفغانستان وذلك بعد العام 1992.
- العيش في أفغانستان فراراً من دولهم إما خوفاً من الاعتقال أو لملاحقتهم بتهم موجهة إليهم.

- الظروف الدولية والإقليمية لقدوم العرب إلى أفغانستان:

ساعدت عدة عوامل في وجود المقاتلين والإغاثيين العرب في أفغانستان وباكستان، وهو ما لم يتوفر لعمليات مقاومة مسلحة أخرى سابقة للقضية الأفغانية مثل القضية الكشميرية والفلسطينية، أو لاحقة بها مثل القضية البوسنية أو الشيشانية. ويمكن تلخيص تلك العوامل في النقاط التالية:

- شجعت الحرب الباردة الولايات المتحدة على تشجيع الشباب الإسلامي على التوجه إلى أفغانستان وباكستان للإشتراك في الحرب على السوفيات أو في العمليات الإغاثية هناك، خاصة أن واشنطن كانت تعيش التجربة الفيتنامية التي دعم فيها الإتحاد السوفياتي الثوار الفيتناميين، فكانت الحرب الأفغانية فرصة للانتقام.
- سمحت الحكومات العربية الصديقة للولايات المتحدة والتي تخشى من المد الشيوعي لكثير من المتطوعين من مواطنيها بالسفر للإشتراك في تلك الحرب. وكانت أهم الدول التي قدمت دعماً سياسياً وإقتصادياً وعسكرياً

للمجاهدين الأفغان هي السعودية وباكستان ومصر والكويت.

وفيما يلي مواقف أهم الدول الإسلامية والعربية ذات الشأن بالحرب الأفغانية:

1 ـ الموقف الباكستاني:

نظرت باكستان إلى الغزو السوفياتي لأفغانستان باعتباره تهديداً لأمنها القومي وأنها الدولة الثانية المستهدفة بعدها، ففتحت مطاراتها لاستقبال الوافدين إليها للقتال إلى جانب المجاهدين الأفغان.

2 ـ الموقف السعودي:

رأت السعودية أن الإتحاد السوفياتي يخطط لتطويق أراضيها عبر قوس يمتد من اليمن الجنوبي في جنوب الجزيرة العربية والحبشة بدعم الحكومة العسكرية اليسارية في الصراع على إقليم أوغادين ومحاربة المقاتلين في إريتريا، فقامت بدور كبير في إرسال الراغبين في القتال بأفغانستان من مواطنيها وغيرهم بتوفير تذاكر سفر وخطوط الطيران الدائم إلى بيشاور وإسلام آباد، كما دفعت هيئات الإغاثة السعودية إلى العمل في بيشاور وأفغانستان لصالح العرب والأفغان.

3 ـ الموقف المصري:

قام الرئيس أنور السادات بإمداد المجاهدين الأفغان بصواريخ صقر 20، وكان في هذا موافقة للرغبة الأميركية بعد طرد الخبراء والمستشارين السوفيات من الجيش المصري عام 1972 والتوجه إلى الغرب والولايات المتحدة.

4 ـ الموقف الكويتي:

لعبت الكويت كذلك دوراً مهماً إبان تلك الفترة في مساعدة الجهاد الأفغاني وبخاصة فيما يتعلق بالجوانب الإغاثية، فأسست المستشفيات والمدارس والمعاهد التي كان الأفغان العرب يستفيدون منها في تعليم أبنائهم والعمل فيها أحياناً.

وقد سارعت هذه الدول إلى تقديم مختلف أنواع الدعم للجهاد الأفغاني، فاعترفت بالحكومة المؤقتة للمجاهدين برئاسة صبغة الله مجددي الذي استقبله الرئيس السادات أكثر من مرة هو والوفد المرافق له في قريته بميت أبو الكوم وزودهم بالسلاح بالتنسيق مع المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأميركية، وأمر بتشكيل لجنة للتضامن مع الشعب الأفغاني برئاسة هارون المجددي الأمين العام المساعد لجامعة الشعوب الإسلامية التي أعلنت مصر إنشاءها عوضاً عن الجامعة العربية التي انتقلت إلى تونس عقب توقيع معاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية عام 1979.

وسارع الأزهر الشريف إلى إصدار فتوى تصف من يتعاونون مع القوات الروسية على أرض أفغانستان بالخيانة وتصف كذلك كل حكومة «تقوم لتمكين أقدام الروس في أرض أفغانستان بأنها حكومة غير شرعية».

ونشطت رابطة العالم الإسلامي السعودية ولجان وجمعيات العمل الخيري في الكويت والإمارات وقطر بافتتاح مراكز إغاثية وأخرى صحية ساعدت في مجملها الوجود العربي على الاستمرار في القتال إلى جانب الأفغان.

ـ دور الدكتور عبد الله عزام:

نتيجة لهذا التشجيع السياسي على المستوى الرسمي وما صاحبه من دعايات استندت إلى منطلقات دينية انتشرت فتاوى وجوب الجهاد ضد القوات السوفياتية الغازية. ونشط بعض الدعاة الذين يتمتعون بالقدرة على تجييش المشاعر الدينية مثل الدكتور عبد الله عزام الذي كان لتسجيلاته وزياراته الدعوية وكتبه التي تتحدث عن إنتصارات المجاهدين الأفغان والكرامات التي تحدث لهم مثل كتاب «آيات الرحمن في جهاد الأفغان». . كان لهذا كله دور مهم في إقبال المتطوعين العرب على باكستان وأفغانستان.

ـ دور أسامة بن لادن:

كذلك برز المليونير السعودي أسامة بن لادن بإقامته معسكرات لاستقبال المتطوعين والإنفاق على إعاشتهم وتدريبهم خاصة الشباب القادم من دول الخليج العربي، فأسهم في إنشاء مكتب الخدمات، وبيت الأنصار الذي أصبح منطلق تنظيم القاعدة بعد تعاظم تأثير جماعة الجهاد المصرية على أسامة بن لادن، وأعيد فيه تنظيم الوجود العربي بناء على التوجه الفكري كالتالي:

- اكتفى عبد الله عزام بالعمل مع شباب ينتمون فكرياً إلى جماعة الإخوان المسلمين وإن كان كثير منهم لا ينتظمون في صفوفهم، وكان لهم معسكر مشهور باسم معسكر صدى.
- انتسب لتنظيم القاعدة الكثير من العرب القادمين من دول الخليج العربي وكان التنظيم يرسل دعاته إلى مكة لاستقطاب

الشباب القادم من البلاد العربية للالتحاق بالقتال إلى جانب المجاهدين الأفغان. واستفادت جماعة الجهاد المصرية من أسامة بن لادن وتنظيم «القاعدة» في توفير مصادر تمويل لبرامجهم التدريبية والثقافية فكان لهم نفوذ في معسكرات تدريب «القاعدة» مثل معسكر الفاروق ومعسكر الصديق. كما أسسوا لهم مركزاً ثقافياً عرف بمركز النور في مدينة بيشاور الباكستانية.

- ظلت الجماعة الإسلامية المصرية محتفظة بخصوصيتها التنظيمية وأصدرت مجلتها «المرابطون» وإن استفادت من تدريب عناصرها في معسكرات القاعدة.

- الأفغان العرب في جبهات القتال:

لم تستقبل جبهات القتال أي مقاتل عربي إلا بعد مدة من الغزو السوفياتي حين بدأ عددهم يزداد في العام 1982 وحتى العام 1984. وكان للمجلات العربية المختصة بالشأن الأفغاني والتي تصدر من بيشاور ويسمح بتوزيعها في أكثر دول الخليج والسودان والأردن في حين تهرب إلى دول المغرب العربي والعراق وسوريا. كان لهذه المجلات دور كبير في إذكاء الروح المعنوية ودفع الشباب للتوجه إلى أفغانستان.

وكان معظم المقاتلين العرب القادمين إلى جبهات القتال آنذاك يفتقرون إلى الخبرة العسكرية واللياقة البدنية، بل كان الكثير منهم يلمس السلاح لأول مرة في جبهات القتال ذاتها. ثم تطورت الأوضاع وأنشئت معسكرات للتدريب كان أهمها معسكر مأسدة

الأنصار الذي أنشأه بن لادن ومعسكر صدى التابع لمكتب الخدمات الذي يشرف عليه عبد الله عزام. وكان من أهم المعارك التي خاضها الأفغان العرب ضد القوات السوفياتية معركة جلال آباد أو ما تعرف بالانحياز والتي قتل فيها عشرات العرب ومعركة المأسدة في جلال آباد أيضاً.

ـ الأفغان العرب بعد سقوط كابل:

يمكن تحديد مصير الأفغان العرب في ما بعد سقوط مدينة كابل بأيدي المجاهدين في النقاط التالية:

- رجوع أعداد كبيرة منهم إلى بلدانهم خاصة من جاء من بلاد الخليج والأردن والسودان، إذ لم تكن هناك مشكلة مع حكومات تلك الدول.
- انخراط البعض للعمل في المجال الإغاثي سواء أكان في أفغانستان أو باكستان.
- البقاء في معسكرات التدريب التابعة للاتجاهات الإسلامية المختلفة مثل جماعة الجهاد والجماعة الإسلامية المصريتين، وتنظيم «القاعدة» التابع لأسامة بن لادن، و«الجماعة الإسلامية المقاتلة الليبية» و«الجماعة الإسلامية المسلحة الجزائرية».
- المشاركة في الحرب الأهلية الدائرة بين الفصائل الأفغانية بعد دخولها إلى العاصمة كابل.
- الانتقال للقتال في أماكن أخرى مثل البوسنة وكشمير وجنوب السودان والصومال وطاجيكستان والشيشان.

- الرجوع إلى بلدانهم الأصلية لقتال حكوماتهم مستفيدين من خبرتهم في القتال وعمليات حرب العصابات مثل جماعة الجهاد والجماعة الإسلامية المصريتين والجماعة الإسلامية المسلحة الجزائرية، والجماعة الإسلامية المقاتلة الليبية
- اتجاه مجموعات منهم إلى دول أوروبا وأميركا الشمالية بقصد الحصول على اللجوء السياسي خاصة بالنسبة لأولئك القادمين من دول شمال أفريقيا والعراق وسوريا.
- انتقال بعضهم إلى العديد من الدول العربية مثل السعودية واليمن وسوريا للاستقرار والعيش فيها.

- العرب الباقون في أفغانستان:

لا يعرف بدقة عدد الأفغان العرب الموجودين في أفغانستان إبان حكم طالبان، فبعض التقديرات ترفع العدد إلى أكثر من أربعة آلاف فرد في حين يصل عددهم في تقديرات أخرى إلى أقل من ألف.

وتتعدد الهياكل والانتماءات التنظيمية لهم، فبعضهم ينتمي إلى تنظيمات قديمة نشأت في بلدانهم الأصلية مثل الجماعة الإسلامية وتنظيم الجهاد وجماعة التكفير والهجرة في مصر وجيش عدن أبيَن الإسلامي في اليمن، وبعضهم الآخر كان ينتمي إلى تنظيمات نشأت على الأرض الأفغانية والباكستانية واستمرت حتى الآن مثل تنظيم القاعدة التابع لبن لادن والذي تطور إلى ما يعرف بالجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين التي أعلن عن تشكيلها في شباط/ فبراير عام 1998، وذلك عبر التحالف مع جماعة الجهاد المصرية

والجماعة الإسلامية المسلحة الجزائرية والجماعة الإسلامية المقاتلة الليبية. وهناك تنظيمات أخرى نشأت أيضاً في أفغانستان أو باكستان ثم اندثرت مثل جماعة الخلافة وجماعة الفطرة. كما يوجد من بينهم أفراد لا ينتمون إلى تنظيم معين.

ـ الإطار الفكري للأفغان العرب:

ينتمي أغلبية الأفغان العرب الذين بقوا في أفغانستان إلى خط فكري سياسي يمكن أن يطلق عليه الاتجاه الجهادي السلفي، وهو إطار فكري مشابه للإطار الفكري للجماعات والتنظيمات التي ينتمون إليها. وتعتبر كتابات ابن تيمية وابن رجب الحنبلي ومحمد بن عبد الوهاب وابن كثير ـ خاصة أبواب الجهاد ـ من مصادر التراث المعتمدة لديهم.

أما بالنسبة للكتابات المعاصرة فقد استندوا إلى قراءاتهم لفكر سيد قطب ومحمد قطب وأبو الأعلى المودودي ولا سيما فيما يتعلق بمفاهيم الجاهلية والحاكمية والعصبة المؤمنة وفي رؤيتهم للواقع وكيفية التعامل معه. واعتمدوا كذلك على ما ألفه بعض قادتهم عن تصنيف الحكام وأحكامهم والطائفة الممتنعة عن شعيرة من شعائر الإسلام والعذر بالجهل وغير ذلك مما ظهر في كتيبات مثل الفريضة الغائبة ومنهاج العمل الإسلامي للجماعة الإسلامية والمنهاج الحركي لجماعة الجهاد والحصاد المر وحكم قتال الطائفة الممتنعة وغيرها من الكتابات.

ويمكن رصد الملامح الأساسية لفكر الأفغان العرب الذين بقيت لهم علاقة بأفغانستان على النحو التالي:

- يعتبر الأفغان العرب الحكومات القائمة في البلدان العربية والإسلامية غير شرعية.
- يؤمنون بأن الجهاد هو الوسيلة الأساسية لتغيير هؤلاء الحكام.
- يرفضون التعامل مع مؤسسات الدولة بحجة أنها تدعم دولة الكفر والطاغوت.
- يجوز عندهم تغيير المنكر والأمر بالمعروف دون إذن من السلطات المختصة طالما توافرت شروطه الشرعية لديهم.
- ينظر بعضهم إلى المجتمعات العربية والإسلامية على أنها كافرة، والبعض يراها جاهلية في تصوراتها وتشريعاتها وعاداتها، والبعض الثالث ينظر إليها على أنها مغلوبة على أمرها.
- يعتقد بعض الأفغان العرب مثل جماعة الجهاد والجماعة الإسلامية المصريتين والجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر والجماعة الإسلامية المقاتلة في ليبيا، بوجوب قتال الحكومات العربية والإسلامية بوصفها طوائف ممتنعة عن تطبيق شرائع الإسلام، ولا بأس في سقوط ضحايا أبرياء أثناء هذا القتال استناداً إلى ما يسمونه بحكم التترُّس أو التخفي والذي يقضي - كما يقولون - بوجوب قتال الطائفة الممتنعة حتى ولو تخفت أو تترست بمجموعة من المسلمين الأبرياء، فيجوز - حسب فهمهم - قتال الجميع، ومن يموت من الأبرياء يبعث على نيته يوم القيامة.

ـ يستحوذ مفهوم الولاء والبراء على حيز كبير من المنطلقات الفكرية لفصائل الأفغان العرب، وينادون بالبراء من غير المسلمين وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأميركية والعالم الغربي.

ـ التحولات الحركية بعد سقوط كابل:

انغمس بعض العرب بعد انتهاء الحرب الأفغانية ـ السوفياتية عام 1989 وسقوط كابل في أيدي المجاهدين، في الحرب الأهلية التي دارت رحاها بين فصائل المجاهدين، فبعضهم انضم إلى قوات قلب الدين حكمتيار الذي دعا من استقر منهم في بيشاور بباكستان إلى الدخول إلى الأراضي الأفغانية بعد أن بدأت الأجهزة الأمنية الباكستانية في ملاحقتهم بالتعاون مع الأجهزة الأمنية لبعض الدول العربية. وانضمت أعداد أقل إلى قوات أحمد شاه مسعود، وبعضهم الآخر رفض الدخول في هذه الحرب وقرر الذهاب إلى مناطق أخرى من العالم للقتال مع شعوب مسلمة أخرى. وقرر بعضهم العودة إلى بلدانهم الأصلية وممارسة العنف ضد حكوماتهم مما أسفر عن عمليات قتل واغتيال وتدمير كبيرة. وإبان حكم طالبان رأت بعض فصائل الأفغان العرب توجيه جهودها لمحاربة الولايات المتحدة التي تقود كما يقولون تحالفاً دولياً صليبياً على الإسلام.

ـ أشهر عمليات الأفغان العرب خارج أفغانستان:

أعلن الأفغان العرب مسؤوليتهم عن العديد من حوادث العنف

التي وقعت في بعض البلدان العربية والأجنبية، كما اتهمتهم أجهزة الأمن في تلك البلدان بحوادث أخرى نسبتها إليهم، وكان من أشهر تلك العمليات:

أولاً: في مصر

- محاولة اغتيال وزير الداخلية المصري زكي بدر في كانون الأول/ ديسمبر عام 1989 والتي اتهم فيها عناصر ثبت أنهم تدربوا في أفغانستان.
- اغتيال رئيس مجلس الشعب المصري الدكتور رفعت المحجوب في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1990.
- محاولة اغتيال وزيري الداخلية حسن الألفي والإعلام صفوت الشريف عام 1993.
- محاولة اغتيال الرئيس حسني مبارك بإثيوبيا في حزيران/ يونيو عام 1995 واتهم فيها القيادي مصطفى حمزة أحد أبرز الشخصيات في الأفغان العرب المصريين.
- التفجير الذي تعرضت له السفارة المصرية بإسلام آباد في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1995 والذي زاد على أثره التعاون الأمني بين مصر وباكستان والولايات المتحدة لملاحقة الأفغان العرب.

وقد نجم عن تضييق هامش الديمقراطية وعدم السماح للتيارات الإسلامية المعتدلة التي يمكن أن تغير من هذه الأفكار المتشددة والممارسات المتطرفة بالعمل العلني ومنحها الشرعية القانونية واقتصار التعامل مع هذا الملف على المنظور الأمني. . نجم عن

ذلك دخول البلاد في دوامات من العنف والعنف المضاد تمثلت في استمرار مسلسل القتل والاغتيالات التي شملت مختلف الرتب من رجال الشرطة المصرية، واغتيالات مضادة اتهمت فيها تلك الجماعات الدولة بالقيام بها وخاصة فيما يتعلق بالإفراط في استعمال الذخيرة الحية أثناء القبض عليهم، واستمر هذا المسلسل إلى أن توقف إثر مبادرة إيقاف العنف التي وقع عليها القادة التاريخيون لهذه الفصائل والتنظيمات داخل السجون المصرية عام 1998.

- ثانياً: في الجزائر

لعب الأفغان العرب في الجزائر دوراً مهماً في الأحداث التي شهدتها البلاد منذ تدخل الجيش لإلغاء نتائج الجولة الأولى من الانتخابات التي فازت فيها الجبهة الإسلامية للإنقاذ في كانون الثاني/يناير عام 1992، فقد ترافقت تلك الأحداث مع عودة الجزائريين من أفغانستان. وانضم العديد منهم إلى الجماعة الإسلامية المسلحة «جيا» التي تأسست في العام نفسه. وفي العام التالي 1993 تولى قيادتها جعفر الأفغاني الذي شارك في الحرب على الإتحاد السوفياتي في أفغانستان.

وانتهج الأفغان العرب في الجزائر نهجاً عنيفاً في التعامل مع الأحداث السياسية ونسبت إليهم العديد من العمليات العسكرية أهمها:

- خطف أعضاء في السفارة الفرنسية بالجزائر عام 1993.
- محاولة اغتيال وزير الدفاع السابق الجنرال خالد نزار.

- محاولة تفجير مطار هواري بومدين عام 1993.
- قتل 12 كرواتياً في الجزائر.
- تدمير العديد من المدارس وقتل أعداد كبيرة من المدنيين.

وبعد إعلان الجيش الإسلامي للإنقاذ عام 1997 عن هدنة بينه وبين قوات الأمن الجزائرية خفت بموجبها نوعاً ما أعمال العنف، حاولت الجماعة تفعيل عملياتها المسلحة مرة أخرى عبر قيادة قمر الدين خربان الحاصل على اللجوء السياسي من بريطانيا وذي العلاقة الوثيقة بأسامة بن لادن منذ أن كان مسؤولاً عن مراكز تدريب الأفغان العرب في أفغانستان.

ثالثاً: في السودان

بدأ تدفق الأفغان العرب إلى السودان عام 1990 حينما سمحت الحكومة السودانية بقيادة البشير والترابي للعرب والمسلمين بدخول السودان دون تأشيرة. ووصلها أسامة بن لادن عام 1992 بعد سقوط كابل، والتقى مع عدد كبير من الأفغان العرب المصريين من بينهم أيمن الظواهري وأبو حفص المصري ومصطفى حمزة.

وتميز نشاط الأفغان العرب في السودان بسمتين بارزتين:

1 ـ النشاط الاستثماري:

حيث حول أسامة بن لادن جزءاً من نشاطه التجاري إلى هناك واهتم بالمشاريع التنموية التي عمل فيها العديد من الأفغان العرب، وكان من أهم تلك المشاريع في السودان: إنشاء سد الروصيرص أحد أكبر السدود السودانية، وشق ترعتي كنانة والرهد، وبناء مطار

بورتسودان الجديد، وإنشاء طريق التحدي لربط الخرطوم/ شندي/ عطبرة.

2 ـ أعمال تنظيمية:

تمثلت في إنشاء معسكرات خاصة بالجماعة الإسلامية وتنظيم الجهاد للتدريب ـ حسب تأكيد الحكومة المصرية ونفي السودان ـ وقيام أفراد من الأفغان العرب بمحاولة اغتيال الرئيس المصري حسني مبارك في حزيران/ يونيو 1995 بأديس أبابا إنطلاقاً من الأراضي السودانية.

رابعاً: في القرن الأفريقي:

ظهر الأفغان في الصومال إلى جانب حركة الإتحاد الإسلامي وأفغان القرن الأفريقي. وقد لفت القائد العسكري لتنظيم القاعدة غرق أبو عبيدة البنجشيري في أيار/ مايو 1996 في بحيرة فكتوريا الأنظار إلى توغل الأفغان العرب في أفريقيا. وتشير بعض التقارير إلى إشتراك الأفغان العرب مع قوات التحالف الوطني الذي يرأسه محمد فارح عيديد في الحرب على القوات الأميركية التي نزلت على الأراضي الصومالية تحت مسمى عملية إعادة الأمل في العام 1994، وقد أدت هذه الحرب إلى مقتل حوالي 20 جندياً أميركياً من القوات الخاصة مما دفع الولايات المتحدة إلى الانسحاب من الصومال.

أما في كينيا وتنزانيا فيبدو أن الأفغان العرب كانوا هناك أيضاً، ومن أهم عملياتهم تفجير سفارتي الولايات المتحدة الأميركية في

تنزانيا ودار السلام في توقيت واحد في آب/أغسطس عام 1998.

خامساً: في بلاد الشام:

ظهر الأفغان العرب في بلاد الشام أوائل عام 1993، ويبدو أن هناك تداخلاً تنظيمياً بينهم وبين تنظيم ما يعرف بجيش محمد. وفي سوريا أعلنت السلطات هناك اعتقال مجموعة من الأفغان العرب الذين دخلوا البلاد بطريقة غير قانونية وحكمت عليهم بالسجن مدداً مختلفة.

سادساً: في اليمن

سافر عدد كبير من اليمنيين إلى أفغانستان للإشتراك في الحرب على الإحتلال السوفياتي، وكان لهم في أفغانستان وبيشاور معسكرات خاصة بهم، وبرز منهم في الجانب العسكري طارق الفضلي الذي استوعبته الحكومة اليمنية فيما بعد وأصبح عضواً في حزب المؤتمر الشعبي الحاكم، كما كان للشيخ عبد المجيد الزنداني دور ملحوظ في المجال الدعوي وقد كثر تردده على بيشاور.

وكان للأفغان العرب اليمنيين دور مهم بعد ذلك في الحرب الأهلية التي اندلعت بين اليمن الشمالي والجنوبي الذي كان يسيطر عليه الإشتراكيون عام 1994.

ومن التنظيمات اليمنية التي ضمت عدداً كبيراً من الأفغان العرب تنظيم جيش عدن أبيَن الذي أعلن تأييده لأسامة بن لادن وتنظيم القاعدة عقب الضربة العسكرية الأميركية التي تعرضت لها السودان وأفغانستان عام 1998. وكان من أهم أعمالهم تدمير

المدمرة الأميركية «كول» في عدن أواخر عام 2000 والتي أعلنت السلطات اليمنية أن بعض منفذيها هم من الأفغان العرب الذين تلقوا تدريبات متقدمة في أفغانستان.

سابعاً: في السعودية

رغم استيعاب السعودية لعدد كبير من الأفغان العرب السعوديين الذين اشتركوا في الحرب على الإتحاد السوفياتي فإنها عانت من بعض العناصر الأخرى المعارضة للنظام. واتهمت سلطات الأمن السعودية هذه العناصر بالضلوع في بعض حوادث العنف التي شهدتها المملكة والتي كان من بينها:

- انفجار مكاتب البعثة العسكرية الأميركية في الرياض في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1995 والذي أسفر عن مقتل خمسة أميركيين وهنديَين وجرح 60 آخرين.
- انفجار الخبر في الظهران يوم 25 تموز/يوليو عام 1996 والذي تسبب في مقتل 19 أميركياً وجرح 386 شخصاً من بينهم 17 سعودياً و118 بنغالياً و109 أميركيين وأربعة مصريين وأردنيَين، واعتبر ثاني أكبر عمل عسكري تتعرض له الولايات المتحدة في الشرق الأوسط بعد انفجار بيروت عام 1983 الذي قتل فيه 241 جندياً أميركياً.

ثامناً: في ليبيا

برزت الجماعة الإسلامية المقاتلة في ليبيا منذ سنة 1995 وقامت باغتيال العديد من رجال الأمن الليبيين، ودخلت في مواجهات

عديدة مع قوات الأمن والجيش الليبي خاصة في المنطقة الشرقية والوسطى مثل إجدابيا وبنغازي والبيضاء ودرنة، كما حاولت اغتيال العقيد القذافي قرب مدينة البيضاء.

تاسعاً: العلاقة مع أميركا

مرت العلاقة بين الأفغان العرب والولايات المتحدة الأميركية بمرحلتين:

ـ المرحلة الأولى:

استمرت طوال عقد الثمانينيات أثناء الحرب على القوات السوفياتية في أفغانستان وتميزت بتقديم الدعم للمجاهدين الأفغان عموماً ومن بينهم الأفغان العرب، وذلك كجزء من صراعها مع السوفيات إبان الحرب الباردة. وشجعت الولايات المتحدة بعض الأنظمة العربية على تقديم التسهيلات والدعم الرسمي والشعبي لهؤلاء المجاهدين.

ـ المرحلة الثانية:

بعد انسحاب الجيش السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة وانهيار الإتحاد السوفياتي غيرت أميركا من إستراتيجيتها في التعامل مع الأفغان العرب خاصة بعد أن ظهر ما أسمته بالإرهاب العابر للحدود ومعاناة العديد من الأنظمة العربية الحليفة لها في منطقة الشرق الأوسط منه.

وبعد حرب الخليج الثانية وبقاء القوات الأميركية في المنطقة تحولت العلاقة إلى عداء ظاهر خاصة بعد أن أعلن تنظيم القاعدة

عزمه على إخراج القوات الأميركية بالقوة من الجزيرة العربية وتكوينه للجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين وإصداره فتوى تهدر دم الأميركيين وتبيح ضرب مصالحهم. وكان من أشهر الأعمال التي اتهم بتنفيذها الأفغان العرب ضد الولايات المتحدة:

- الهجمات العسكرية التي اشترك في شنها على القوات الأميركية في الصومال عام 1993 مع الإتحاد الإسلامي الصومالي والتي أدت إلى مقتل 20 أميركياً وانتهت بانسحاب القوات الأميركية من هناك.
- التفجير الذي لحق بجزء من مركز التجارة العالمي في نيويورك وواشنطن في شباط/ فبراير عام 1995 وأدى إلى مقتل ستة أميركيين وجرح نحو ألف شخص وخسائر قدرت بأكثر من مليار دولار. وكان المنفذان الرئيسيان رمزي يوسف وأحمد عجاج قد تقابلا في أفغانستان أثناء الحرب مع السوفيات.
- انفجار مكاتب البعثة العسكرية الأميركية بالرياض والذي أدى إلى مقتل خمسة أميركيين وهنديّين وإصابة 60 آخرين في شباط/ فبراير عام 1995.
- انفجار الخبر في الظهران ومقتل 19 أميركياً وإصابة 386 شخصاً بينهم 17 سعودياً و118 بنغالياً و109 أميركيين و4 مصريين وأردنيّين.
- تفجير سفارتي الولايات المتحدة في كينيا وتنزانيا يوم 17 آب/ أغسطس 1998 وأسفر عن مقتل 263 شخصاً بينهم 12 أميركياً، والذي أعلن الجيش الإسلامي لتحرير المقدسات

الإسلامية مسؤوليته عنه ويعتقد أنه الجناح العسكري لتنظيم القاعدة.

- تفجير برجي مركز التجارة العالمي يوم 11 أيلول/ سبتمبر عام 2001 في نيويورك وجزء من مبنى وزارة الدفاع في واشنطن والذي أكدت الولايات المتحدة الأميركية أن تنظيم القاعدة الذي يرأسه بن لادن وتؤويه حركة طالبان هو المشتبه به الرئيسي فيه.

ومنذ تلك التفجيرات والولايات المتحدة تشحذ كل قواتها العسكرية والدبلوماسية والاستخباراتية للقضاء على هذا التنظيم وحلفائه من الأفغان العرب.

- المصادر:

1 - Arab Veterans of the Afghan War.

2 - الأفغان العرب.. محاولة للفهم. د. نشأت عبد الله أستاذ العلوم السياسية المشارك في جامعة لندن، دراسة منشورة في موقع إسلام أون لاين.

3 - The Striving Sheikh: ABDULLAH AZZAM.

4 - AL QAEDA FILES.

5 - ملحمة المجاهدين العرب في أفغانستان، عصام دراز، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة 1989.

إسحاق رابين

(1922 ـ 1995)

إسحق رابين، رجل سياسي وجنرال عسكري سابق في الجيش الإسرائيلي وخامس رئيس وزراء إسرائيلي في فترتين. الفترة الأولى من 1974 إلى 1977 والفترة الثانية من 1992 إلى 1995 حينما اغتاله متطرف يهودي، ليصبح أول رئيس وزراء إسرائيلي يموت اغتيالاً، ويعد من أشهر رجالات «البالماخ» المتفرعة من «الهاجاناه» العسكرية.

وُلد رابين في مدينة القدس 1 آذار/ مارس عام 1922 إبّان الإنتداب البريطاني لفلسطين، ودرس في المدارس العسكرية الإسرائيلية حتى وصل إلى رتبة رئيس أركان في الجيش الإسرائيلي. وبعد أن تقاعد رابين من الحياة العسكرية، انخرط في السلك الدبلوماسي كسفير لإسرائيل لدى الولايات المتحدة الأميركية ابتداءً من عام 1983. أمّا بالنسبة لحياته السياسية الداخلية، فقد حصل على مقعد في الكنيست الإسرائيلي عام 1973، مما أهّله لمنصب وزير العمل.

في العام 1974، تمّ انتخاب رابين كرئيس لـ «حزب العمل»

وخلف غولدا مائير في رئاسة الوزراء. واشتهر رابين في الفترة الأولى لرئاسة الوزراء بعملية «مطار عنتيبة»، فقد أعطى رابين أوامره للجيش الإسرائيلي بإنقاذ ركاب الطائرة الإسرائيلية المخطوفة بعد إقلاعها من إسرائيل. وخسر إسحاق رابين رئاسة الوزراء فيما بعد لمناحيم بيغن إلا أنه ظل رئيساً لـ «حزب العمل» المعارض.

في العام 1992، تمكّن رابين من الفوز بمنصب رئيس الوزراء للمرة الثانية ولعب دوراً أساسياً في «معاهدة أوسلو» للسلام التي «أنجبت» السلطة الفلسطينية وأعطتها السيطرة الجزئية على كل من قطاع غزة والضفّة الغربية. وفي الفترة الثانية لرئاسة رابين للوزراء، توصلت إسرائيل لإتفاقية سلام مع الأردن مع اتّساع كبير في بقعة المستوطنات الإسرائيلية في كل من الضفّة الغربية وقطاع غزّة.

ولدوره في «إتفاقية أوسلو» للسلام، فقد تمّ منح رابين جائزة نوبل للسلام عام 1994 مع كل من ياسر عرفات رئيس السلطة الفلسطينية، وشيمون بيريز وزير خارجيته.

وفي 4 تشرين الثاني/ نوڤمبر عام 1995، وخلال مهرجان خطابي مؤيّد للسلام في ميدان الملك في مدينة تل أبيب، أقدم اليميني المتطرّف إيجال أمير بإطلاق النار على إسحق رابين وكانت الإصابة مميتة، إذ توفي داخل غرفة العمليات في المستشفى، ولم يفلح الأطباء في إنقاذ حياته.

- ظروف اغتياله:

ترى شريحة من اليمين المتطرف الإسرائيلي كان لتصريحاتها

دور في التحريض على اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي اسحق رابين إن هذه العملية أعطت نتيجة مع جمود عملية السلام مع الفلسطينيين.

ومن سخريات القدر فإن رئيس الوزراء اليميني ارييل شارون الذي لطالما اتهم رابين في السابق بالتفريط بأرض إسرائيل كان أول من قام بإجلاء مستوطنات وهو ما لم يكن رابين ليتجرأ ربما على القيام به.

وكان شارون من اعتمد في نهاية المطاف المفهوم التقليدي لرابين وحزب العمل بضرورة الفصل مع الفلسطينيين. لكن الفصل جاء بدون إتفاق سلام ولا حتى إتفاق تمهيدي يلوح في الأفق. والفكرة كانت فك الارتباط من جانب واحد ما يعني رسم حدود إسرائيل عبر الإبقاء على مجمعات الاستيطان في الضفة الغربية.

ويرى إيتان هابر المدير السابق لمكتب رابين أن القاتل وهو أحد مناصري اليمين الديني المتشدد لم ينجح في ضربته سوى جزئياً. ويقول «من الصحيح أنه بعد الجريمة قام اليمين الذي كان من أشد المعارضين لإتفاقات أوسلو الموقعة مع الفلسطينيين عام 1993 بنسفها لدى عودته إلى السلطة في أيار/مايو 1996 وسط موجة من العمليات الفلسطينية». ويضيف أن «شارون يسير على خطى رابين مع دعم الغالبية الكبرى من الإسرائيليين. وإذا كان قطار السلام توقف فإنه ليس سوى توقف مؤقت».

لكن النائب من المعارضة اليسارية يوسي ساريد الوزير السابق في حكومة رابين لا يشاطره هذه الثقة.

ويقول ساريد: «هناك فارق أساسي بين رابين الذي عرفته جيداً وشارون، يمكننا الوثوق برابين في حين لا نعلم أبداً فعلياً ما يريده شارون وما إذا كانت خطته لفك الارتباط تهدف إلى التوصل إلى السلام أو ضم قسم كبير من الضفة الغربية».

وأضاف إن «الجنرال السابق رابين كان براغماتياً. لم يكن أبداً داعية سلام لكن بعد الكثير من الشكوك والتردد التزم بصدق في طريق السلام».

وتابع أن رابين الذي كان وزيراً للدفاع عند اندلاع الانتفاضة الأولى (1987 ـ 1993) «وصل متأخراً إلى الاستنتاج بأنه لا يمكننا كسر مقاومة الفلسطينيين بالسلاح وأنه لا يمكن لإسرائيل على المدى الطويل الاعتماد على القوة فقط».

وقال ساريد: «ذلك لم يمنعه من ارتكاب أخطاء» معتبراً أن «الخطأ الأفدح كان رفضه إخلاء مستوطنات خشية ردود فعل المستوطنين وحلفائهم السياسيين». من جهتها قالت النائب الفلسطينية حنان عشراوي «ليس هناك من شك بأن عملية القتل كان لها أثر سلبي، فعملية السلام لم تتعاف منها أبداً».

واغتيل إسحق رابين في 4 تشرين الثاني/نوفمبر 1995 بعد تجمع من أجل السلام نظم في ساحة كبرى في تل أبيب أصبحت تحمل اسمه اليوم.

وفي الأسابيع التي سبقت اغتياله كان رابين عرضة لحملة حادة من اليمين المتطرف ساهم فيها جزئياً اليمين التقليدي في ما أنزل عليه حاخامات المستوطنات اللعنة، وصلى البعض علناً داعين عليه

بالموت. وقاتله إيجال أمير الذي حكم عليه بالسجن المؤبد لا يزال يحظى حتى الآن بتعاطف شريحة لا يستهان بها في الرأي العام الإسرائيلي.

ولفت الخبير السياسي زئيف سترنهيل إلى أنه «في نهاية المطاف من الممكن أن يكون كل ما نتذكره من رابين هو اغتياله». وأضاف «رابين قام بخطوة مهمة لكن بدون أن يجرؤ على الذهاب أبعد من ذلك». والصحيح أن اغتياله لم يتح له الفرصة للقيام بذلك.

- تقرير رسمي يكشف مفاجآت مثيرة في عملية اغتيال رابين[1]:

أكد تقرير صادر عن مركز الإعلام والمعلومات الفلسطيني إن عملية اغتيال رابين تدل بكل وضوح عن الكراهية التي تعتمل في نفوس أبناء المشروع الصهيوني، هذه الكراهية التي فاضت وتجاوزت حدها حتى ارتدت على الذات، التي جعلت إسرائيلياً يتعامى عن حجم المكاسب التي حققها رابين ولم يشف ما في نفسه التي تضج بالحقد، موضحاً أن رابين نفسه هو الذي أمر بكسر عظام أطفال فلسطين!!

فأقدم في الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر عام 1995 على اغتيال اسحق رابين رئيس الوزراء آنذاك في حدث هو الأول في تاريخ إسرائيل في تل أبيب الأمر الذي أثار الأجهزة الإسرائيلية وأقلق المجتمع الإسرائيلي بكافة قطاعاته، وبدأ الجميع بطرح الأسئلة الفكرية والأمنية على حد سواء والتي تجاوز حجمها النظري حجم

(1) «حقيقة أهداف المشروع الصهيوني»، إعداد مركز الإعلام والمعلومات الفلسطيني.

القدرة العملية على تقديم الإجابات الملائمة لها. كما كشف اغتيال إسحاق رابين أمام الجمهور بعض المشاكل المعقّدة في قسم الحراسة في «الشاباك» ووحدة حراسة الشخصيات. وفي أعقاب ذلك أثيرت، بطبيعة الحال، أسئلة كثيرة وصعبة.. ما الذي أدى إلى هذا الاغتيال؟ من الذي يتحمل المسؤولية؟ ما هي دوافعه؟ وكيف يمكن منع تطور ظاهرة الاغتيال السياسي في إسرائيل؟ وقد حاول التقرير عرض أبعاد القضية في محاولة للوصول إلى إجابة على هذه الأسئلة.

ـ حياته:

رابين الذي انخرط في قوات «البالماخ الصهيونية» التي أُنشئت عام 1941 لتكون الذراع الضاربة لـ «الهاغاناه»، والتي لعبت دوراً رئيسياً في حرب العام 1948 وبالأخص في الجليل والنقب والقدس، وارتبط في تلك الفترة بحزب «المابام» وحركة مزارع الكيبوتس، وبعدما حل بن غوريون «البالماخ» عام 1948 شارك إسحق رابين في تكوين نواة الجيش الإسرائيلي.

أوفده الجيش الإسرائيلي إلى كلية الأركان في بريطانيا التي تخرج فيها عام 1954 ليتولى إدارة التدريب في الجيش الإسرائيلي، وفي الفترة بين عامي 1956 و1959 تولى قيادة المنطقة الشمالية ثم اختير رئيساً لأركان حرب جيش الإحتلال عام 1963، وفي عهده كانت حرب حزيران/ يونيو عام 1967 التي أسفرت عن ضم إسرائيل لأراضي الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية وهضبة الجولان السورية إضافة إلى شبه جزيرة سيناء المصرية.

ـ حياته السياسية:

بدأ حياته السياسية عام 1968 عندما اختير سفيراً لإسرائيل لدى الولايات المتحدة الأميركية، وشارك في أول حكومة في عهد رئيسة الوزراء السابقة غولدامائير التي اختارته وزيراً للعمل في الحكومة التي شكّلتها عقب حرب تشرين الأول/أكتوبر عام 1973، وفي العام 1974 أصبح رئيساً للوزراء وبدأ مفاوضات سلام مع مصر أسفرت عن انسحاب إسرائيلي جزئي من سيناء عام 1975.

وفي الفترة بين عامي 1977 و1984 اختير رئيساً للجنتي الشؤون الخارجية والأمن في الكنيست الإسرائيلي، ثم وزيراً للدفاع عام 1984 فأصدر أوامره للجيش الإسرائيلي الموجود في لبنان بالانسحاب مع الاحتفاظ بشريط حدودي لحماية أمن إسرائيل في المنطقة الشمالية.

وانتخب رئيساً للوزراء للمرة الثانية في تاريخه السياسي بعد فوز «حزب العمل» عام 1992، وأضيف إليه منصب وزير الدفاع.

توصل إسحق رابين مع الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات إلى إتفاق «أوسلو» في 13 أيلول/سبتمبر عام 1993 ووقّع الاثنان عليه في البيت الأبيض الأميركي بحضور الرئيس بيل كلينتون.

ثم وقّع إتفاقية سلام مع المملكة الأردنية الهاشمية فيما يعرف بإتفاقية «وادي عربة» في 26 تشرين الأول/أكتوبر عام 1994.

ـ اغتياله:

وبرغم ما قدمه إسحاق رابين على مدار سنوات عمره التي خدم

فيها اليهود إلا أنهم وكعادتهم لم ترض أحزاب اليمين الإسرائيلية المتشددة عن تحركات رابين السياسية فاغتاله أحد المتطرفين اليهود عام 1995.

وجاء لحضور جنازته أربعة من رؤساء أميركا ورؤساء أوروبيون وبدت المسألة على أنها جنازة لرجل عسكري اتخذ السلام خياراً له في المنعطف الأخير من حياته. لكن هذا الجمع من الناس كان يدرك حقيقة أهم من مقتل رابين وهي أنهم قادمون إلى حضور جنازة السلام نفسه كخيار إسرائيلي.

فقد جاء رؤساء أميركا الأربعة وجاء رئيس روسيا وجاء رئيس فرنسا، لأنهم أدركوا أن ييغال عمير قد أطلق الرصاصة على الحل في الشرق الأوسط وأن لا سلام مقابل الأرض بعد اليوم. بل فكر إسرائيلي - أميركي جديد، يرفض السلام، ويستعد للقتل والموت، ويقرر أن إسرائيل محاطة ومحاصرة بأعداء لا يريدون السلام، ولذا يجب عليها أن ترفضه اليوم وغداً، وأن تقطع - وليس فقط أن تسحب - اليد التي مُدّت إلى سوريا وإلى الفلسطينيين. واكتملت هذه المسرحية في العام 1996، بعد عام على اغتيال رابين حيث تم سياسياً اغتيال شمعون بيريز في قانا وجاء بنيامين نتنياهو بنفسه إلى الحكم ليبدأ بعدها مؤشر السلام والثقة بين الفلسطينيين والإسرائيليين في الانحدار إلى أن وصل إلى انعدامها في انتفاضة الأقصى التي أعادت المنطقة إلى النقطة الأولى وما حدث في ذلك اليوم لم يكن إلا الخطوة الأولى فالسياسية لا تقبل نظرية الفراغ ولا الجمود إنها حركة دائمة وأن هناك صلة بين الماضي والمستقبل تستخدم الحاضر

كمجرد جسر متنقل للعبور من مرحلة إلى مرحلة وليس في السياسة شيء أو عمل معزول ولا هناك أعمال عفوية.

- مفاجآت في محاكمة القاتل:

كشف عمير، قاتل رابين مفاجأة أمام الحاضرين في المحكمة حين أدلى بإفادة تبرئ أحد رجال المخابرات من تهمة معرفة نواياه قبل أن ينفذ عملية الاغتيال. وفي الوقت نفسه قال إن عضو الكنيست، بيني أيلون، كان على علم بمخططه.

وكانت المحكمة قد وجهت التهمة إلى أبيشاي رفيف، وهو رجل «الشاباك» (المخابرات العامة) في إسرائيل، الذي كان قد زرع في تنظيمات اليمين اليهودية المتطرفة منذ نهاية الثمانينات، وتمكن من كسب ثقة قادة هذه التنظيمات وأصبح شريكاً في أسرارها ومخططاتها لتنفيذ عمليات إرهاب ضد الفلسطينيين، بل أصبح رئيساً لأحد التنظيمات المسلحة المعروفة باسم «أيلي».

وعند مقتل رابين في تشرين الثاني/نوفمبر 1995 برصاص عمير، خرج اليمين الإسرائيلي يدافع عن نفسه. فقال إن أحد رجال المخابرات وقصد أبيشاي رفيف هذا كان على علم بمخطط قتل رابين، إذ أنه عرف بصداقته مع عمير. وسمع منه مباشرة عن هذا المخطط. ولهذا، فقد ردوا التهمة عنهم ووجهوها إلى المخابرات الإسرائيلية. ولقي هذا الاتهام صدىً واسعاً في إسرائيل وفي الخارج، وتبنى الكثيرون الرواية القائلة بأن المخابرات الإسرائيلية شريكة في الجريمة، أو على الأقل عرفت بها ولم تمنعها.

وراح اليمين الإسرائيلي يضغط على النيابة والمؤسسات القضائية أن تقدم رفيف إلى المحاكمة. وظلت هذه المؤسسات تتهرب إلى حين انتخاب اريبل شارون، رئيساً للحكومة. وبدأ التحقيق الرسمي مع رفيف، ثم تقرر إجراء محاكمة له.

وقد انتظر الجميع جلسة المحكمة التي جلب إليها عمير من سجنه ليدلي بأقواله. وتوقعوا أن يدين رفيف. إذ أنه كان المصدر الأول لتوجيه الاتهام له، وهو الذي قال إن المخابرات عرفت بخطته عن طريق رجلها المزروع في تنظيمات اليمين.

لكن عمير فاجأهم بالقول أنه لم يبلغ رفيف بخطة اغتيال رابين، وأنه تحدث عن الموضوع فقط بشكل عام قائلاً: «هذا الرجل - أي رابين - يجب ألا يبقى حياً». وبذلك أعطاه عملياً صك البراءة.

- مطالبة بنبذ عمير:

وقَّع 54 حاخاماً إسرائيلياً على عريضة تطالب بتوقيع الحرم ونبذ إيغال عمير اليهودي المتطرف وقاتل رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين وهذه العريضة تدعو اليهود إلى تجنب أي اتصال بما فيه الاتصال الهاتفي مع القاتل وتمنع زيارته طالما لم يعلن ندمه عن فعلته.

وقالت العريضة إنه إذا ما قدر لعمير أن يستعيد حريته فإنه لن يكون بين اليهود العشرة الذين لا بد وأن تتشكل منهم أية جمعية لإقامة الصلاة.

وأضافت العريضة: «لم يكن ولا يمكن أن يكون هناك تبرير للاغتيال الرهيب لرابين يستند إلى الإرث الديني. إننا نشعر بصدمة عميقة وبالاشمئزاز للمحاولات المهينة الهادفة إلى تسويق فكرة أن هذه الجريمة البشعة تمت باسم التوراة وفي خدمة شعب وأرض إسرائيل».

وأخيراً.. الإرهاب الإسرائيلي انقلب على نفسه وقتل رابين أحد الإرهابيين الذين ذبحوا الشعب الفلسطيني وكسروا عظامه. عندما فكر في بناء سلام حقيقي مع الفلسطينيين وسنوات الإرهاب حينها لم تشفع له عند المتطرفين الصهاينة وهذا يؤكد النزعة العدوانية التي تعتمر صدورهم وتعشش في عقولهم لو أن شارون نفسه بعد كل ما فعل فكر في إقامة سلام حقيقي فلن يترددوا في قتله أو قتل مئات الإسرائيليين من أجل استمرارهم في مخططاتهم.

الشيخ نزار الحلبي
(1952 - 1995)

يوم الخميس 31 آب/أغسطس عام 1995 امتدت يد الغدر والإجرام والعمالة لتطال أحد رموز وعلماء الدين الإسلامي، ألا وهو سماحة الشيخ نزار الحلبي، فأفرغوا من أفواه بنادقهم المأجورة رصاصات حقدهم الأعمى للإسلام والمسلمين.

- الشيخ نزار الحلبي في سطور:

هو الشيخ نزار رشيد بن حسن الحلبي الأصل، البيروتي موطناً، الشافعي مذهباً، ولد في مدينة بيروت عام 1952، من عائلة بيروتية نشأت على حب العلم وأهله، تلقى علومه المدرسية في إبتدائية أبي بكر الصديق ﷺ، ثم في ثانوية عمر بن الخطاب ﷺ.

ثم دفعه شغفه بتعلم العلوم الدينية إلى الالتحاق بأزهر بيروت حيث نال الشهادة الأزهرية. ثم لم يكتف بذلك فرحل في طلب العلم الشرعي إلى الأزهر في مصر حيث انكب على التعلم إلى أن تخرج من كلية الشريعة والقانون وذلك سنة 1975.

تولى إمامة وخطابة جامع برج أبي حيدر وذلك بعد عودته من جامعة الأزهر، وأقام فيه الحلقات الدينية واستمر في التدريس فيه إلى أن توفي، كما أنه قام بالتدريس في عدد من مساجد بيروت وغيرها، وألقى العديد من المحاضرات.

استطاع بما يحمل من خصائص ومؤهلات وحسن التدبير والحكمة أن ينهض في مسيرة رائدة تقوم على بناء المؤسسات الدينية والتربوية، وإقامة المشاريع الخيرية والإجتماعية، وتثقيف وتوعية الشباب والطلاب.

ـ اغتياله:

سمع العالم لأول مرة باسم غريب عليهم هو (أبو محجن)، زعيم منظمة الأنصار الأصولية الإسلامية المتمركز في مخيم عين الحلوة الفلسطيني، جنوب لبنان. واسم أبو محجن الحقيقي هو أحمد عبد الكريم السعدي، وهو مطلوب للعدالة اللبنانية لإدانته في محكمة لبنانية باغتيال الشيخ نزار الحلبي، الرئيس السابق لجمعية المشاريع الإسلامية المعروفة باسم (الأحباش).

وحتى صيف العام 2004، كان أبو محجن يتحصن في مخيم عين الحلوة، ولكن أنباء تحدثت عن انتقاله سراً إلى العراق وانضمامه لأبي مصعب الزرقاوي.

بدأ أبو محجن حياته السياسية، عضواً في حركة فتح، ثم التحق بعصبة الأنصار التي أسسها منشق سابق عن فتح هو الشيخ هشام شريدي، الذي تحول إلى إمام مسجد في مخيم عين الحلوة،

واغتيل الشريدي في منتصف ثمانينات القرن العشرين، على أيدي مجهولين، ولكن رفاقه حمّلوا فتح المسؤولية عن ذلك. وفتح اغتيال الشريدي الطريق أمام أبي محجن ليصبح أميراً لمنظمة الأنصار، وحكم عليه لاحقاً بالإعدام لتورطه باغتيال الشيخ الحلبي، وصدرت ضده أحكام أخرى أيضاً.

اغتيل رئيس «جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية» الشيخ نزار الحلبي مع مرافقيه في محلة الطريق الجديدة صباح الخميس في الحادي والثلاثين من آب/ أغسطس عام 1995. وقضى المجلس العدلي في رئاسة القاضي فيليب خير الله بإنزال عقوبة الإعدام بالمتهم الفار أحمد عبد الكريم السعدي الملقب بـ «أبي محجن» المسؤول عن «عصبة الأنصار» وثلاثة آخرين وجاهياً لإقدامهم مع آخرين على اغتيال الحلبي. صدّقت لجنة العفو هذه الأحكام والرئيس الياس الهراوي والرئيس رفيق الحريري والوزير بهيج طبارة. وأعدم الثلاثة شنقاً في باحة سجن رومية فجر الرابع والعشرين من آذار/ مارس عام 1997، أما أبو محجن فلا يزال خارج قبضة العدالة.

يحيى عياش
(1966 - 1996)

لم يستطع شمعون رومح - أحد كبار العسكريين الإسرائيليين - أن يخفي إعجابه بيحيى عياش حين قال: «إنه لمن دواعي الأسف أن أجد نفسي مضطراً للاعتراف بإعجابي وتقديري لهذا الرجل الذي يبرهن على قدرات وخبرات فائقة في تنفيذ المهام الموكلة إليه، وعلى روح مبادرة عالية وقدرة على البقاء وتجديد النشاط دون انقطاع». ولم يكن شمعون وحده هو المعجب بالرجل، لكن وسائل الإعلام الإسرائيلية كلها شاركته الإعجاب حتى لقبته: بـ «الثعلب» و«الرجل ذو الألف وجه» و«العبقري».

ولهم الحق في احترامه والخوف منه، فحين نزف الدم الفلسطيني بغزارة على أرض الحرم الإبراهيمي، في الخامس عشر من رمضان المبارك عام 1414هـ، الموافق في 26/ 2/ 1994 غلت الدماء في قلوب المسلمين في كل مكان.

لكن قلباً واحداً قرَّر أن يغلي بطريقة أخرى ومميزة، تلقن الحقد اليهودي درساً لا يمكن نسيانه، كان ذلك قلب المهندس

يحيى عيَّاش الذي أسَّس مدرسة ما زال طلابها يتخرجون فيها بتفوق على الرغم من غياب ناظرها!

ـ البداية:

وُلِد يحيى عيَّاش في نهايات آذار/ مارس عام 1966، نشأ في قرية رافات بين نابلس وقلقيلية لعائلة متدينة تصفه بأنه حاد الذكاء، دقيق الحفظ، كثير الصمت، خجول هادئ.

بدأ يحفظ القرآن الكريم في السادسة من عمره، حصل في التوجيهي على معدل 92,8٪ ـ القسم العلمي، ليلتحق بجامعة بيرزيت ـ قسم الإلكترونيات، وظلَّ على حبه الأول للكيمياء التي أصبحت هوايته، أصبح أحد نشطاء الكتلة الإسلامية، وبعد تخرجه حاول الحصول على تصريح خروج للسفر إلى الأردن لإتمام دراسته العليا، ورفضت سلطات الإحتلال طلبه، وعلق على ذلك يعكوف بيرس رئيس المخابرات قائلاً: «لو كنا نعلم أن المهندس سيفعل ما فعل لأعطيناه تصريحاً بالإضافة إلى مليون دولار».

تزوَّج عيَّاش بعد تخرجه من ابنة عمته، ورزقه الله ولده البكر البراء، ثم يحيى قبل استشهاده بأسبوع تقريباً.

بدأت عبقريته العسكرية تتجلى مع إنطلاق شرارة الانتفاضة الأولى عام 1987م، كتب أبو البراء رسالة إلى كتائب الشهيد عزّ الدِّين القسَّام يوضح لهم فيها خطةً لمجاهدة اليهود عبر العمليات الاستشهادية، وأُعطي الضوء الأخضر، وأصبحت مهمة يحيى عيَّاش إعداد السيارات المفخخة والعبوات شديدة الانفجار.

ولكن الولادة الحقيقية للمهندس وعملياته العبقرية كانت إثر رصاصات باروخ غولدشتاين وهي تتفجر في رؤوس الساجدين في الحرم الإبراهيمي في رمضان عام 1994م.

ففي ذكرى الأربعين للمجزرة كان الرد الأول، حيث فجَّر الاستشهادي رائد زكارنة حقيبة المهندس في مدينة العفولة، ليمزق معه ثمانية من الإسرائيليين ويصيب العشرات.

وبعد أسبوع تقريباً فجَّر عمار العمارنة نفسه، لتسقط خمس جثث أخرى من الإسرائيليين.

وبعد أقل من شهر عجَّل جيش الإحتلال الانسحاب من غزة، ولكن في 19/10/1994 انطلق الشهيد صالح نزال إلى شارع ديزنغوف في وسط تل أبيب ليحمل حقيبة المهندس ويفجرها ويقتل معه اثنين وعشرين.

وتتوالى صفوف الاستشهاديين لتبلغ خسائر إسرائيل في عمليات المهندس عياش في تلك الفترة 76 إسرائيلياً، و400 جريح.

ـ عذابات من أجل اللقاء:

تعتبر فترات الملاحقة في حياة يحيى عياش من الفترات المجهولة، فمنذ 25 نيسان/ أبريل عام 1993م عرفت مخابرات العدو اسم عيَّاش كمهندس العبوات المتفجرة، والسيارات المفخخة التي أقضَّت مضاجع العدو، وتروي زوجته أسرار ملاحقة جيش الإحتلال لأسرة المهندس.

قالت زوجته: «مكثت في بيت عمي في بداية فترة مطاردة يحيى

متخفية عن أنظار الجيران حتى إذا ذهبت لزيارته لا يشك بذلك أحد، وقبل ذهابي إلى غزة أرسل إليَّ يحيى رسالة مكتوبة بخط يده الذي أميزه بين آلاف الخطوط يستشيرني في إمكانية مغادرتي الضفة الغربية، وتشاورت في الأمر مع والد زوجي، وقررت الذهاب إلى زوجي، ثم اصطحبني أحد الإخوة المجاهدين عن طريق كلمة سر قالها لي لا يعرفها أحد سواي أنا ويحيى، فاصطحبني الشاب ووالدة يحيي وابني البراء، وكان الشاب يحمل معه العديد من البطاقات الشخصية المزيفة ليسهّل علينا دخول الحواجز».

لقد كانوا يجتازون كل حاجز إسرائيلي باسم مستعار مختلف وبسيارة أخرى غير السيارة الأولى، حتى يتخفون على جنود الإحتلال، كما أن الشاب كان يمتلك قدرة فائقة على التنكر حسب شكل الصورة التي كانت تحملها البطاقة الشخصية المزيفة.

أما بالنسبة لأم البراء ووالدة المهندس فقد كان الأمر سهلاً، لأن قوات الإحتلال لم تكن آنذاك تدقق كثيراً في صور النساء.

وتذكر أم البراء: «لم يكن يمكث عندنا في الأسبوع سوى ساعات معدودة، ثم يخرج دون أن أعلم إلى أين مقصده، فحياة المطاردة وإن كانت مليئة بالأخطار فهي تمتاز بحلاوة الجهاد التي لا يمكن لأحد أن يتذوقها غير المجاهد».

ـ رسائل عيَّاش... وثائق تنشر لأول مرة:

وحول أهم المغامرات التي عاشتها في تلك الأيام قالت: «قضيت معظم أيام مكثي في غزة مطاردة أتنقل من بيت لآخر،

ولا أمكث في أحدها أكثر من أسبوع لا أشاهد أحداً حتى لا يشك في وجودي، وأنام والقنابل اليدوية فوق رأسي، وسلاحي بجواري، وخاصة أنني كنت أتقن استخدامه وأتقن كيفية تحديد الهدف، فحياتنا معرضة للخطر في كل لحظة، والمنزل معرّض للمداهمات من قبل جيش الإحتلال حتى يستخدمني الصهاينة وسيلة للضغط على زوجي».

وضماناً للسرية كان الاعتماد الأساسي على الرسائل الخطية بينها وبين زوجها، لقدرة كل منهما على تمييز خط الآخر، وما زالت تحتفظ برسائله حتى يومنا هذا، ومنها رسالة خطية نضعها في هذه الموسوعة وجاء فيها:

«**بسم الله الرحمن الرحيم**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وقائد المجاهدين وعلى آله وصحبه أجمعين..

أهلي الأعزاء، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أبعث لكم رسالتي سائلاً المولى ـ عز وجل ـ أن تصلكم وأنتم في خير حال. وقد كتبت لكم هذه الرسالة كي أطمئنكم، و(ما دام) لم تسمعوا في الإذاعة (شيء) عني فإني بخير.

كم سررت عندما عرفت أن معنوياتكم كانت عالية بعد استشهاد الأخوين بشار وعلي، لأن ما (أصابهم) لا بد (منه) أن يصيبنا. والله (كتب) لهم الشهادة كي يستريحوا من عناء الدنيا، وأسأل الله ألا يحرمنا أجرهم، وألا يفتننا بعدهم، وأن يغفر لنا ولهم.

أبي العزيز أمي الحنونة كيف حالكم؟ لا تنسونا من دعائكم، وأن ترضوا عني وعن (أخوتي) مرعي ويونس و(أبلغوهم) سلامي الحار لهم. وأسأل الله أن يفرج عنهم وأن يفك أسرهم.

وأنتما يا أم البراء ويا أم راشد أيتها الصابرات المحتسبات، اصبرن واحتسبن أجركن عند الله تعالى، وأحسنّ تربية الأولاد: براء وراشد وآلاء، وأحسنّ معاملة أبي وأمي، ولا تتشاجرن، وكن مثالاً للأخوات.

أهلي الأعزاء جميعاً قد تطول الفُرقة فعليكم بالصبر والاحتساب، وأسأل الله أن أراكم قريباً، وأنتم تعلمون صعوبة الظروف، ولن أدخر جهداً كي أراكم. اعذروني فأنا لم أتعود كتابة الرسائل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وتتذكر أم البراء بصوت متألم: «ذات مرة لاحظ أهل البيت الذي كنا نختبئ فيه وجود مراقبة حول البيت، فاضطررت أن أختفي أنا وولدي براء، وأحكم إغلاق الغرفة علينا لمدة أسبوع تقريباً، لا أرى أحداً من البشر غير زوجة المجاهد التي كانت تحضر لي الطعام، كانت لا تمكث معي أكثر من ربع ساعة».

وتبتسم أم البراء حين تتذكر لحظات عصيبة أخرى: «ذات مرة دُوهم البيت.. كانت ساعة عسيرة.. فاضطررت أن أختبئ وولدي داخل الخزانة، وأن أحكم إغلاقها علينا، والغريب أن براء ـ الذي لم يتجاوز الأربع سنوات ـ كان واعياً لحجم الخطر الذي يهدد حياتنا وحياة والده، وبدلاً من أن أهدئ من روعه حتى لا يخرج صوتاً، وضع هو يده على فمي حتى لا أتفوه بكلمة واحدة.. وكم

شعرت بالفخر بوليدي، وأنه حقّاً يستحق أن يكون ابناً لمجاهد، وبطلاً مثل المهندس يحيى عيَّاش. . شعرت أني لم أشاركه وحدي الكفاح فقد كان صغيري البراء على مستوى المسؤولية في أكثر من موقف، فعندما كان يخرج ليلعب مع أولاد صاحب المنزل الذي يستضيفنا كان يُعرّف نفسه باسم «أحمد»، ولا يعلن عن هويته أبداً.

ـ نضال زوجة مناضل:

لا شك أن كل امرأة تتلقى خبر جهاد زوجها بشيء من الخوف والفزع في البداية، وتبدأ الهواجس تصوِّر لها زوجها وقد تحول إلى أشلاء متناثرة. . تتذكر أم البراء كيف عرفت بجهاد زوجها، قائلة: «منذ الأيام الأولى لحياتي الزوجية كان يأتي يحيى إلى المنزل وملابسه متسخة بالوحل والتراب، وعندما أسأله عن سبب ذلك كان لا يرد عليّ، بل كان يرجوني برفق ألا أسأله عن شيء. وفعلاً استجبت لرأيه لأني على ثقة بأخلاقه والتزامه بمبادئ دينه، حتى جاء اليوم الذي حاصر جيش الإحتلال المنزل ليعتقل يحيى، لكنه لم يكن في المنزل، وعندما شعر أني خائفة كثيراً صرَّح لي بطبيعة عمله وخيَّرني بين مواصلة طريق الجهاد معه أو الانفصال عنه».

ـ كابوس يهدد دولة:

تحوَّل المهندس بعملياته الاستشهادية إلى كابوس يهدد أمن الدولة العبرية وأفراد جيشها الذي يدّعي أنه لا يُقهر بل وقادته أيضاً، حيث بلغ الهوس الإسرائيلي ذروته حين قال رئيس وزراء الكيان الصهيوني آنذاك إسحق رابين: «أخشى أن يكون عياش

جالساً بيننا في الكنيست». وقوله أيضاً: «لا أشك أن المهندس يمتلك قدرات خارقة لا يملكها غيره، وإن استمرار وجوده طليقاً يمثل خطراً واضحاً على أمن إسرائيل واستقرارها».

ولا يعتبر كثير من الباحثين الإسرائيليين أن يحيى نبتٌ منفردٌ، لكنه وليد محضن تربوي ونسق فكري، وهو ما حدا بأحدهم أن يصرِّح: «إن المشكلة في البيئة العقائدية الأصولية التي يتنفس المهندس من رئتها فهي التي تفرز ظاهرة المهندس وظاهرة الرجال المستعدين للموت في سبيل عقيدتهم».

أما موشيه شاحاك وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي الأسبق فقد قال: «لا أستطيع أن أصف المهندس يحيى عيّاش إلا بالمعجزة، فدولة إسرائيل بكافة أجهزتها لا تستطيع أن تضع حدّاً لعملياته التخريبية».

كما كتبت الصحف العبرية عن مواصفاته، ونشرت عدة صور مختلفة له لتحذر الشعب الإسرائيلي منه تحت عنوان رئيسي: «اعرف عدوك رقم 1.. يحيى عيّاش».

ـ اغتياله:

بعد أربع سنوات مليئة بأشلاء الإسرائيليين تمكّن «جهاز الشاباك» من الوصول إلى معلومات عن موقع المهندس، وتسلله إلى قطاع غزة عبر دائرة الأشخاص الأقرب إلى أبي البراء.

وكما يروي أسامة حماد صديق المهندس والشاهد الوحيد على عملية الاغتيال فإن يحيى التجأ إليه قبل خمسة أشهر من استشهاده

حيث آواه في منزله دون أن يعلم أحد، وكان كمال حماد ـ وهو خال أسامة ويعمل مقاول بناء ـ على صلة وثيقة بالمخابرات الإسرائيلية يلمّح لأسامة بإمكانية إعطائه جهاز «بيلفون» لاستخدامه، وكان كمال يأخذ جهاز البيلفون ليوم أو يومين ثم يعيده، وقد اعتاد والد المهندس الاتصال بيحيى عبر البيلفون، وقد طلب منه يحيى مراراً الاتصال على الهاتف المنزلي، وقد اتفق يحيى مع والده على الاتصال به صباح الجمعة على الهاتف المنزلي.

وفي صباح يوم الجمعة الخامس من كانون الثاني/يناير عام 1996م اتصل كمال حماد بأسامة وطلب منه فتح الهاتف المتنقل، لأنه يريد الاتصال من إسرائيل، واتضح أن خط هاتف البيت مقطوع. وفي الساعة التاسعة صباحاً اتصل والد يحيى على الهاتف المتنقل وقد أبلغ أسامة أنه لم يستطع الاتصال على الهاتف المنزلي.

وما كاد المهندس يُمسك بالهاتف ويقول لوالده: «يا أبي لا تتصل على البيلفون»، عندها دوى انفجار وسقط المهندس لينفجر الرأس الذي طالما خطّط ودبّر في كيفية الانتقام من الصهاينة.. وتتناثر أجزاء من هذا الدماغ الطاهر لتعلن عن نهاية أسطورة خلّفت وراءها العشرات من المهندسين ممن أرقوا مضاجع الإحتلال، وما زالوا أبناء لمدرسة عياش.

وتبين فيما بعد أن عبوة ناسفة تزن 50 غراماً قد انفجرت في الهاتف النقّال ليهوي الجسد المتعب ويستريح من عناء السفر.. يستريح المقاتل الصلب بعد سنوات الجهاد.

محمد فرح عيديد

(.... - 1996)

أحداث عديدة تعاقبت على الصومال عقب سقوط نظام الرئيس محمد سياد بري عام 1990 انتهت بنشوب حرب أهلية مدمرة خلّفت ثلاثمائة ألف قتيل.

بدأت مؤشرات تلك الحرب في حزيران/ يونيو عام 1991، حينما انتخب حزب المؤتمر الصومالي الموحد محمد فرح عيديد أميناً عاماً، وقتها رفض الرئيس بالنيابة محمد علي مهدي حليف الحكومة الإيطالية التخلي عن الحكم لعيديد، وكان ذلك سبباً في إنطلاق شرارة الحرب الأهلية وسط وجنوب البلاد، ثم ما لبث الصراع أن دخل التدويل من بابه الواسع، تدخلت قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام في الصومال لإيصال المساعدات لملايين اللاجئين وضحايا المجاعة، ولحل أزمة الصومال المستعصية، إلا أنها أخفقت في وقف حمامات الدم وفي الخامس من حزيران/ يونيو 1993، لم تفلح قوات حفظ السلام في تهدئة الوضع، فاستنجدت بالقوات الأميركية التي واجهت مقاومة عنيفة بدورها أدت في آذار/ مارس 1995 إلى وقف البحث عن ثمانية عشر من

جنودها المفقودين في الصومال والانسحاب مع قوات غربية أخرى تاركة شعب الصومال يواجه قدره المحتوم.

أعوام عديدة مضت على انهيار الدولة، لم يعرف الصوماليون خلالها معنىً للاستقرار أو الطمأنينة، فهاجر أكثر من مليوني متعلم إلى أوطان أخرى تلقفتهم لاجئين، ثم سرعان ما انصهروا في مجتمعاتها، بينما كرس أمراء الحرب وزعماء القبائل مكانتهم وتنافسوا على قيادة الصومال إلى المجهول، كل شيء هنا يُذكِّر بالجحيم، أطلال شاهدة على المأساة، وذاكرة تعيش على النبش في الماضي البعيد.

ـ أوضاع الصوماليين:

تعقيدات الحياة في الصومال أبشع من أن توصف، لقد ازداد عدد الفقراء فهجر المزارعون أراضيهم وضياعهم إلى ضاحية مقديشو ووسطها بحثاً عن حماية العشيرة وعن ملاذ آمن يضمن لهم البقاء والبقاء وحده، هذه الظروف المعيشية القاسية لا تستثني سوى قلة قليلة من مجموع عشرة ملايين صومالي تعيش غالبيتهم تحت خط الفقر المدقع، إذ لا يزيد دخل الفرد عن دولار واحد في الشهر، علماً بأن سعر صرف الورقة الخضراء الواحدة يزيد بقليل عن سبعة عشرة ألف شلن، عملة الصومال التي لا تتداولها البنوك، ولا يقبلها التجار.

حتى العام 1990 كانت شبكة الطرق تمتد من ميناء بربرة شمالاً مروراً بالعاصمة مقديشو إلى ميناء كسميو على مسافة تقدر بواحد وعشرين ألف كيلومتر، ألفان وستمائة كيلو منها معبدة، أما اليوم

فلم تعد الطرق صالحة للاستخدام، بل إن استعمال تلك الطرقات يعتبر مجازفة، إذ تنتشر عصابات قطاع الطرق على طول امتدادها ناهيك عن الميليشيات المسلحة التي تنفرد بالسيطرة على عدة جهات ومحاور، وتفرض على سائقي الشاحنات ومستخدمي الطريق رسوماً بالقوة.

ولا تزال الميليشيات المسلحة تشكل عنصراً أساسياً في بسط أمراء الحرب نفوذهم، وتتشكل في الغالب من شبان القبيلة التي ينتمي إليها الزعيم الذي يتولى رعايتهم وتسليحهم، ويتقاضى أفراد هذه الميليشيات أبخس الأجور التي تصل في أفضل الأحوال إلى بضعة دولارات في الشهر، ومعظم هؤلاء يعملون من دون أجر مقابل إطعامهم وجبة أو وجبتين في اليوم، ومدهم بزادهم اليومي من عشب القات. وتعد غالبية هؤلاء المقاتلين من ذوي الخبرة القتالية خاضوا المعارك وتمرسوا على حمل السلاح والرماية.

ومعظم هؤلاء الشباب المسلحين تتراوح أعمارهم ما بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة لم يلجوا المدارس ولم يتعلموا حرفة منذ انهيار الدولة عام 1991.

وفي غياب الشرطة والجيش ومقومات الدولة عموماً أصبح الاعتماد على أفراد الميليشيات المسلحة مشروعاً تجارياً مربحاً، وبالإضافة إلى أمراء الحرب والزعماء السياسيين صار التجار وأصحاب المشاريع الاستثمارية بدورهم يوظفون هؤلاء المسلحين لتوفير حمايتهم الشخصية وحماية مشاريعهم.

ـ اغتيال الجنرال محمد فرح عيديد:

كان الجنرال محمد فرح عيديد من أهم الشخصيات العسكرية والسياسية في الصومال، رصاصتان فقط كانتا كافيتين لموته، الأولى استقرت في معدته، والثانية في كتفه، قاوم الموت ولكن لم تكتب له النجاة.

الحرب القبائلية في الصومال حصدت عشرات الألوف من الأبرياء، وحتى يومنا هذا لم تتوقف المذابح والخلافات بين أبناء الشعب الواحد. ولكن «من الذي يفجر الخلافات والانشقاقات، ويصنع الموت للأبرياء؟».

بدأت شهرة الجنرال محمد فرح عيديد السياسية عندما وقف في وجه القوات التي دخلت الصومال تحت قبعة الأمم المتحدة، حيث رفض الجنرال دخول هؤلاء إلى بلاده، فقام بقتل 24 عنصراً من تلك القوات، وبسبب فعلته تلك أصدرت الأمم المتحدة قراراً باعتقال الجنرال، وطلب تصفيته جسدياً.

عندما دخلت قوات «المارينز» الأميركية، إلى الصومال بحثاً عن الجنرال واعتقاله، قامت قوات التحالف الوطني الصومالي في آذار/ مارس 1995 بقتل 18 منهم وسحلهم في شوارع مقديشو مما زاد غضب الولايات المتحدة الأميركية عليه.

الجنرال محمد عيديد تخرج في أكاديمية «فرونزه» العسكرية الروسية عام 1966. قام الرئيس الصومالي محمد زياد بري باعتقاله عام 1969، بتهمة الإطاحة به.

لكن زياد بري الذي كان يعرف قيمة الرجل ودعم مؤيديه له من زعماء القبائل وضباط الجيش، ولإبعاد خطره عنه عينه سفيراً لبلاده في الهند، معتقداً أن بإبعاده يستطيع أن يحكم البلاد بهدوء وسلام.

بعد سنوات أمضاها في الهند عاد الجنرال إلى بلاده واستطاع أن يطيح بالرئيس سياد بري ونظامه عام 1991، وأصبح في العام 1995، رئيساً للصومال.

من صفات الجنرال أنه كان إنساناً وقوراً ونزيهاً وقادراً على المهمات المستحيلة، ويتحدث بصوت ناعم يكسوه شيء من الشعر، حيث يقول عن نفسه أنه يهوى الشعر كما يقول الصحفي ناظم شاهين:

«إنه رجل وطني يعمل بلا هوادة من أجل مبادئه، استراتيجي بارع. بعد الغارة الأميركية على مواقعه، خرج عيديد من مخبئه، متكئاً على عصاه، وقال: «هل يحق للقوات الدولية أن تستخدم طائراتها لقتل المدنيين الأبرياء».

لم يكن عيديد أدرك ـ بعد ـ أن رأسه مطلوب، وأن الدمار الذي أحاط به هو جزء من لعبة «القط والفأر». لقد أسهم في تأسيس المؤتمر الصومالي الموحد، وتبوأ رئاسته، كما تنبأ له العرافون في الهند، وكما قال عنه المقربون منه.

عندما مات الجنرال خلفه ابنه حسين محمد فرح عيديد الذي يملك قوات عسكرية يبلغ تعدادها أكثر من خمسين ألف مقاتل، وكان الابن قد صرَّح بعد وفاة والده بأنه لن يحيد عن طريق أبيه

وسياسته، بل سيسير على خطاه، وينفذ وصية والده الذي استشهد في سبيل مبادئه ومحاربة أعدائه، واستطاع أن ينقل القوات الأميركية من المقلاة إلى النار.

وقد رفع عيديد الابن، في الكلمة التي ألقاها غداة مبايعته رئيساً للصومال والمؤتمر الصومالي الموحد، الشعارات نفسها التي بقيت تتردد في أجواء النزاع الصومالي إبّان حياة الجنرال العنيد.

وقد ركّز الابن حسين على تعليق الشريعة، وهو مشروع قد نجح الأب في أن يكسب به تعاطف القطاعات التقليدية من المجتمع الصومالي، وعطف القوى المعنية بالمشروع الإسلامي في القرن الأفريقي.

عدي صدام حسين

(1964 ـ 2003)

(محاولة اغتيال في العام 1996)

عندما أصدر سلمان شريف الأمر بإطلاق النار، كان متأكداً من أنه سيموت. فمن ذا الذي يحاول اغتيال عدي الابن الأكبر للرئيس العراقي السابق صدام حسين والوريث المتوقع لوالده، من مسافة قصيرة ويتوقع النجاة؟ قال شريف «كنا نعلم أن فرصة عودتنا أحياء لا تزيد عن واحد في المائة». كان شريف يتحدث وهو يجلس على الأرض متربعاً في غرفة تغطيها السجاجيد، ويروي للمرة الأولى لصحيفة أجنبية تفاصيل الهجوم الجريء الذي قاده، قائلاً: «إن إجراءات الأمن المتشددة جعلت مثل هذه المهمة مستحيلة تقريباً».

ولكن بعد شهور من التخطيط الدقيق، صممت المجموعة، التي تم تجميعها من جماعة مقاومة سرية، على المضي قدماً في مهمتها. فخلال قيادة عدي لسيارته الذهبية من طراز «بورش» ببطء في شارع مزدحم في واحد من أحياء بغداد الراقية، بعد حلول الظلام في 12 كانون الأول/ديسمبر عام 1996 فتح مسلحان النار بناء على أوامر شريف من بندقيتيهما من طراز كلاشنيكوف. يقول

شريف «كنا على ثقة من أننا قتلناه. لقد أطلقنا 50 رصاصة على السيارة». وفي الواقع، اكتشف فيما بعد، إصابة عدي 17 مرة، وأصيب بالشلل وبـ «العجز الجنسي»، كما أشيع وهذا، كما يقول شريف «ضرب خاص من العدالة» نظراً لما عرف به النجل الأكبر لصدام من قسوة في معاملة النساء.

وشريف الذي كان في الـ 27 من عمره عندما قاد العملية التي اهتزت لها القيادة العراقية السابقة، لا يمكن لمن يراه الآن أن يتصور أنه كان عنصراً نشطاً في المقاومة لحكم صدام حسين. فهو يرتدي نظارات سميكة، ويبدو أقرب إلى أن يكون مدرّساً في مدرسة إبتدائية في الريف من كونه مقاتلاً. لكن الرواية التي سردها شريف تلقي نظرة نادرة على كيفية نشاط المقاومة العراقية خلال عهد صدام حسين.

كان شريف يكره النظام واستجاب بسهولة عندما جنده صديق دراسة في بلدة الشطرة في جنوب العراق، في جماعة مقاومة مسلحة. واستمر شريف في دراسته في معهد تقني لمدة عامين. وكان يقضي وقت فراغه في تنظيم خلايا سرية. وعندما تفجرت الانتفاضة الشيعية في أعقاب حرب الخليج عام 1991، انضم هو وزملاؤه إلى القتال، واستولوا على بلدتهم ومنعوا القوات الحكومية من دخولها لمدة ثلاثة أسابيع. وفي النهاية تغلبت عليهم قوات النظام وقبض على شريف في عملية اعتقالات واسعة النطاق. وأفرج عنه بعد 18 يوماً لعدم كفاية الأدلة فهرب إلى الأهوار بالقرب من البصرة، حيث شكل مجموعة من مقاتلي المقاومة حركة أطلقوا

عليها اسم «15 شعبان» وهو تاريخ إنطلاق الانتفاضة الشيعية. وقد تعرضوا باستمرار إلى مضايقات من جيش صدام، وكان يتحرك بالقوارب من كوخ إلى آخر. وعاش شريف، فيما وصفه هو بـ «ظروف لا إنسانية» لمدة خمس سنوات، حيث كان يتولى إدارة معسكر سري لحركته في عمق الأهوار.

في العام 1996 صعَّدت حركة «15 شعبان» خططها، فبدلاً من محاولة قتل القادة الإقليميين لحزب «البعث»، والمسؤولين المحليين في عمليات عشوائية، قررت المجموعة استهداف قلب النظام، وأكبر القيادات. ويشرح حسين حمزة قائد حركة المقاومة السابقة التي تحولت إلى حزب إسلامي سياسي أن الفكرة كانت «إضعاف النظام، وإضعاف قواعده وخلق حالة من الفوضى. وأردنا تشجيع الناس على التمرد على الحكومة». وقد تم اختيار شريف لدور هام فقد طلب حمزة منه أن يشرف على خلايا بغداد التابعة للحركة، وانتقل إلى العاصمة في منتصف العام 1996 لإدارة العمليات هناك.

ويقول شريف إنه لم يمض وقت طويل قبل أن يسمع عن جولات عدي المنتظمة مساء كل خميس في حي المنصور الراقي بحثاً عن الفتيات الجميلات، حيث كان يشتهر بإجبار الفتيات على اصطحابه إلى واحد من قصوره. وقد أثارته تلك المعلومات وقال «كان الأمر يبدو وكأنه فرصة ذهبية». ولذا ظل شريف، ولمدة شهرين، يتجول في الشارع الرئيسي في حي المنصور مساء كل خميس وتبين له أنه في حوالي الساعة السابعة من مساء الخميس، كان عدي يتجول في الشارع الرئيسي في حي المنصور، بعض

الأحيان مع حرس شخصي يركبون دراجات نارية وفي بعض الأحيان وحده. وتمكن شريف، بالتركيز على ما يدور حوله وعقد صداقات مع أصحاب المحلات التجارية، من اكتشاف من هم بائعو الرصيف الذين يعملون مرشدين للنظام، ومن هم ضباط المرور الذين هم في الواقع من ضباط الاستخبارات، والمباني التي تضم مكاتب حكومية، ومن هم المارة المنتظمون الذين يتجولون على الأرصفة من رجال الأمن. قال شريف أنه لم يُبلِّغ أحداً بخطته «إلا بعدما تأكدت مائة في المائة أنها ممكنة. كان عليّ أن أكون متأكداً تماماً من كل التفاصيل لكي أكون صادقاً في عيون قادتي». وفي النهاية كان متأكداً بدرجة سمحت له بالسفر إلى الجنوب، والتسلل في الأهوار، وقدم معلوماته إلى قيادة الحركة، التي اقتنعت ووافقته على خطته.

كانت الخطوة التالية لشريف هي اختيار ثلاثة شباب لفرقة الاغتيال تحت قيادته «كان يجب أن يتميزوا بالكفاءة بصفة خاصة». ثم استأجر منزلاً آمناً في بغداد واشترى سيارة وهرَّب أسلحة وقنابل من الأهوار إلى العاصمة لاستخدامها في محاولة الاغتيال. ويقول شريف إنه لم يكن من الصعب إقناع مجنديه بالإشتراك في العملية، بالرغم من حقيقة أنها كانت عملية انتحارية. وأضاف «كل شخص في العراق كان يكره عدي. وكان أعضاء الفريق في غاية السعادة وقالوا أنهم محظوظون لاختيارهم لهذه المهمة وتم اختيار واحد منهم يحمل الاسم الحركي أبو زهرة، لقيادة سيارة الهرب».

شريف، وكنيته «أبو أحمد»، كان من المفترض أن يوفر غطاء

للمسلحين، على أن يتولى «أبو صادق» و«أبو ساجد» إطلاق النار على عدي. استأجر عضو في خلية أخرى شقة في أحد أحياء بغداد الشيعية، واشترى آخر سيارة ووفر شخص آخر من الأهوار السلاح اللازم لتنفيذ العملية. قال حمزة إنهم كانوا يعرفون المنطقة جيداً ويعرفون أيضاً الطرق الترابية التي تقود إلى نقاط التفتيش على الطريق السريع. وفي اليوم المحدد لتنفيذ العملية حوالي الساعة السابعة مساءً كان المكلفون بتنفيذ عملية الاغتيال جالسين في واحد من أفضل محلات بيع «الآيس كريم» في حي المنصور وأنظارهم مركزة على الهدف. مرت نصف ساعة ثم نصف ساعة أخرى دون أن يظهر عدي وتوجه أفراد المجموعة إلى منازلهم.

تكرر ذات الشيء الخميس التالي والذي يليه إلى درجة أن شريف شك في أن مخططه قد كشف، إلا أنه لم يعتقل. لكنه توصل إلى احتمال أن يكون عدي منشغلاً بحكم موقعه كرئيس للجنة الأولمبية العراقية في منافسة عالمية لكرة القدم يشارك فيها المنتخب العراقي. وبعد خمسة أسابيع من الانتظار في مقره في الأهوار، أرسل حمزة مبعوثاً إلى بغداد حاملاً رسالة مشفرة أبلغ الخلية فيها بإرجاء العملية. لكن مثل هذا التأخير الطويل كان يحمل معه مخاطر كشف المخطط لذا طلب شريف فرصة أخيرة وتم قبول طلبه.

ويبدو أن ما كان يفكر فيه شريف قد حدث بالفعل، فقد لمح حوالي الساعة السابعة من مساء يوم الخميس «سيارة غير عادية» لا يمكن أن يملكها شخص سوى عدي وهي تشق طريقها باتجاهه

تحت أضواء أعمدة الشارع دون أن تكون هناك سيارة حراسة مرافقة لها فيما يبدو. ويعتقد شريف أن عدي كان يشعر بالأمان بسبب العدد الكبير من عناصر الأمن في الشوارع.

كان أبو صادق متكئاً على سيارة المجموعة قبل أن يُخرج الحقيبة الرياضية التي كان يخفي بداخلها بندقيتي كلاشينكوف وخزانتي رصاص وست قنابل يدوية. قفز أبو زهرة إلى داخل سيارة المجموعة وقادها إلى مسافة بضع ياردات إلى منطقة مظلمة. أما شريف، الذي كان مسلحاً بمسدس، فقد رافق اثنين من المسلحين إلى الموقع الذي اختاره. فوجئ أفراد المجموعة بأن عدي كان لوحده ويقود سيارته ببطء، إذ يبدو أن حرسه الشخصي قد ترجل من السيارة ليبحث عن النساء لعدي. في تلك اللحظة أخرج أبو صادق وأبو ساجد أسلحتهما من الحقيبة الرياضية وفتحا النار على عدي من مسافة تبعد بضع أمتار فقط. تحطم تماماً الزجاج الأمامي وزجاج الباب الأمامي، وفر أفراد المجموعة بعد أن أفرغوا خزائن الرصاص على سيارة عدي باتجاه السيارة التي كان من المفترض أن يهربوا بها، واختفوا بالفعل من المكان بعد العملية التي استغرقت أقل من دقيقة. لم تتعرض المجموعة إلى إطلاق نار من أية جهة ولم يتعرضوا إلى أي مطاردة.

وصل أفراد المجموعة إلى المنزل الذي كان مقرراً اختباؤهم داخله وتوجهوا صباح اليوم التالي إلى الناصرية على متن حافلة مواصلات ثم استقلوا حافلة أخرى إلى منطقة سوق الشيوخ على أطراف الأهوار. وفي منتصف ليل ذلك اليوم عاد أفراد المجموعة

إلى قاعدتهم ولم يبارح شريف الأهوار إلا بعد الغزو الذي قادته الولايات المتحدة على العراق في آذار/ مارس عام 2003. يقول شريف إنه لم يكن يتوقع أن تكون العملية بهذه السهولة، إذ كان يعتقد أنهم أُرسلوا لموت محقق. استمع حمزة، قائد مجموعة «15 شعبان» إلى إذاعة صوت أميركا ومحطات بث إذاعي أخرى وضحك مع نفسه عندما سمع البعض يتحدثون عن وقوع محاولة انقلاب وأن عدداً من الجهات تبنت مسؤولية العملية، إلا أن المجموعة آثرت الصمت لأنها كانت تريد أن يشك النظام في أنها حدثت من داخله.

توصل صدام في نهاية الأمر إلى الحقيقة، فقد قال حمزة إن واحداً من أفراد المجموعة قد أُلقي القبض عليه في الأردن في قضية مختلفة تماماً، وسُلم فيما بعد إلى أجهزة الأمن العراقية واعترف ببعض التفاصيل تحت التعذيب. وفي نهاية آب/ أغسطس عام 1998، أي بعد مرور حوالي 18 شهراً على محاولة الاغتيال، اعتقلت عناصر أمن النظام العراقي السابق أبو ساجد ونشرت تفاصيل بقية أعضاء المجموعة. كان انتقام النظام العراقي قاسياً، فقد اعتقل أشقاء شريف السبعة ووالدهم وقتلوا وأُبلغت والدتهم بأن تتسلم جثثهم من مشرحة في بغداد، كما أُعدم والد أبو صادق وثلاثة من أشقائه وواجه أبو ساجد ووالده نفس المصير وهدمت قوات الأمن منازل هذه الأسر وصادرت ممتلكاتها. وفي كانون الأول/ ديسمبر 2002 اغتالت مجموعة من المخابرات أبو صادق بعد تعقبه بمنفاه في إيران.

واعتُقلت أيضاً زوجة حمزة ووضعت مولوداً وهي في السجن.

ويقول شريف بمرارة أن السلطات الجديدة في العراق لم توفر منازل جديدة للأسر التي طردت من منازلها كما لم يتلقوا أي تعويض من هذه السلطات. وأضاف أيضاً أن العملية تستحق الثمن الذي قدمه ورفاقه وأسرهم. وقال أنه ليس من السهل على أي شخص أن يضحي بأسرته وأن لا أحد يمكن أن يقدم على عملية مثل هذه إلا إذا كانت من أجل قضية عظيمة. وأوضح أن أسرته كانت على استعداد لهذه التضحية مؤكداً أنه ورث حس التضحية من أسرته من خلال تنشئته.

ويرى شريف أن التضحيات التي قدموها والدم الذي سال جعل الناس يطالبون بوضع نهاية لنظام الرئيس المخلوع صدام حسين، ويعتقد أن هذه التضحيات ستكون سبباً في مطالبة الشعب مجلس الحكم الانتقالي بالسير في الطريق الصحيح. وأضاف حمزة أن بوسعهم أن يطالبوا بإجراء انتخابات لأنهم قدموا هذه التضحيات، ولاحظ بمرارة أن المعارضين المنفيين سابقاً يشكلون غالبية في مجلس الحكم الآن. ولم يخف شريف فرحته عندما سمع بأنباء مقتل عدي وشقيقه قصي في الموصل في تموز/يوليو 2003، وقال إنه كان يتمنى أن يكون هو الذي قتل عدي، وأضاف معلقاً أنه بصرف النظر عن الشخص الذي قتل عدي، فإن عدي شخص شرير لم يكن يستحق الحياة.

ـ عدي صدام حسين في سطور:

ولد عدي صدام حسين التكريتي في 17 أيار/مايو عام 1964، وهو الإبن الأول للرئيس العراقي السابق صدام حسين. كان

صدام قد أعدّه ليخلفه في العام 2000، وكان عدي صدام حسين يُنظر إليه أنه سيكون خليفة صدام حتى أصابته محاولة اغتيال عام 1996.

قتل عدي صدام حسين يوم الثلاثاء في 22 تموز/يوليو عام 2003 في مدينة الموصل، كان يحتل المرتبة الثالثة في قائمة المطلوبين التي نشرتها الولايات المتحدة بعد أخيه قصي ووالده.

وكان عدي يرأس قوات فدائيي صدام التي أسسها والده لتصفية خصومه وفرض قبضته الحديدية على العراقيين. وقد ذاع صيت هذه القوات بسبب الأساليب الوحشية التي كانت تستخدمها «للاقتصاص» من شرائح مختلفة من الشعب العراقي.

كما رأس عدي اللجنة الأولمبية العراقية، حيث اشتهر بتعذيبه الرياضيين الذين يفشلون في تحقيق النتائج التي يريدها منهم. وكان لعدي سجن خاص في مقر اللجنة لاحتجاز وتعذيب الرياضيين.

ويقول منفيون ومعارضون عراقيون إن عدي كان يتلذذ بتعذيب وقتل خصومه، كما كان يأمر حرسه بخطف النساء وجلبهن إليه لاغتصابهن.

وتقول منظمة «INDICT» التي تتخذ من لندن مقراً لها والتي تطالب بمحاكمة أقطاب النظام العراقي المخلوع إن عدي كان يأمر بإلقاء السجناء في أحواض الحامض.

ويبدو أن عدياً كان يفخر بممارساته الوحشية، حيث لقب نفسه بأبي سرحان وهي كناية للذئب.

وقد أزعجت ممارسات عدي حتى والده، حيث أمر في العام 1988 بنفيه إلى سويسرا لقتله كامل حنا ججو أحد حرس صدام المقربين.

وكان عدي قد قتل ججو أثناء حفلة أقامتها والدته ساجدة خير الله في بغداد على شرف عقيلة الرئيس المصري حسني مبارك.

وكان عدي مرشحاً لخلافة والده، ولكنه أصيب إصابة بالغة في محاولة الاغتيال التي تعرض لها في العام 1996. وقد أصيب جراء هذه المحاولة بإعاقة مما حدا بصدام إلى التفكير بخليفة آخر هو ولده الثاني قصي.

وكان عدي يشغل أيضاً منصب نقيب الصحفيين العراقيين لسنوات طويلة، كما كان رئيساً لتحرير صحيفة «بابل» إضافة إلى امتلاكه لتلفزيون الشباب وصحيفة «زوراء» الأسبوعية.

ولم ينج أعمام وأقرباء عدي من بطشه. ففي العام 1995 طلبت ابنة عمه وزوجته الطلاق منه لقيامه بضربها والاعتداء عليها. كما قام لاحقاً بإطلاق النار على عمه وطبان وأصابه في ساقه.

عندما اقتحم الجنود الأميركيون منزله في بغداد اكتشفوا حديقة حيوانات خاصة تزخر بالحيوانات النادرة ومرآباً تحت الأرض للسيارات الفاخرة وكميات من السيغار الكوبي الفاخر الذي يحمل اسمه، إضافة إلى ما قيمته مليون دولار من النبيذ الفاخر.

جوهر دوداييف

(1944 ـ 1996)

ظهرت المسألة القومية بقوة بعد انهيار الإتحاد السوفياتي عام 1991 في المناطق التي كانت تحت حكم الإتحاد، وحاول الشيشان الحصول على إستقلالهم وخاضوا لأجل ذلك صراعاً عسكرياً مع روسيا الإتحادية وريثة الإتحاد السوفياتي. وقد سبق الثورة الشيشانية القائمة محاولات سابقة قبل وصول الشيوعية إلى الحكم انتهت بسيطرة الروس ثم الشيوعيين السوفيات على مناطق الشيشان ومناطق إسلامية أخرى كثيرة كان بعضها تابعاً للدولة العثمانية أو إمارات مستقلة.

تعددت تفسيرات الصراع الشيشاني ـ الروسي الأخير وتداخلت فيه عوامل شتى، مثل النفط الذي بدأ استخراجه من حوض بحر قزوين وتنامي الهوية الدينية القومية، وشهد أيضاً أطواراً وأشكالاً متنوعة من الأحداث والصراعات، مثل الحصار الإقتصادي الروسي على الشيشان وإعلان الدولة الشيشانية وقيام حربين مسلحتين.

ـ جمهورية الشيشان:

تقع جمهورية الشيشان على أرض مساحتها 11,300 كم مربع في

منطقة محصورة بين بحر قزوين والبحر الأسود، وتحدها من الشمال روسيا الإتحادية، ومن الشرق جمهورية داغستان ذات الحكم المحلي ضمن روسيا، ومن الغرب أنغوشيا (حكم ذاتي ضمن روسيا)، ومن الجنوب جمهورية جورجيا التي استقلت بعد انهيار الإتحاد السوفياتي.

والتسمية الأصلية للشيشان هي «نوختشي» ويتحدثون لغة «الناخ» من فروع المجموعة اللغوية المعروفة بـ «الأيبروقوقازية» وتضم هذه المجموعة اللغوية «الأنغوش» و«الباتسوي»، وكان الشيشان والأنغوش تضمهم جمهورية واحدة في عهد الإتحاد السوفياتي وقدر عدد سكان الشيشان عام 1989 بمليون نسمة، وهم مسلمون سنة، شافعيو المذهب.

وبدأ انتشار الإسلام بين الشيشان في القرن الثامن الميلادي في عهد الأمويين ولكنه كان انتشاراً بطيئاً حتى القرن السادس عشر الميلادي. وقد انتشر الإسلام بجهود الحركات الصوفية، وكانت في الشيشان ذات صيغة سياسية وعرفت بالمريدية وارتبطت بالمقاومة ضد الروس في القرن الثامن عشر الميلادي.

وانتشرت الحركة الإسلامية الحديثة بين الشيشان وبخاصة التيار السلفي الجهادي والإخوان المسلمين، ومن الأحزاب التي تعبر عن الحركة الإسلامية الحديثة: «حزب النهضة الإسلامي» و«حزب الطريق الإسلامي».

ـ السياق التاريخي للحركة الإسلامية:

بدأت روسيا بعد إستقلالها عن المغول في بداية القرن السادس

عشر الميلادي تتوسع باتجاه بحر البلطيق وآسيا الوسطى، وأدى ذلك إلى سلسلة حروب وصراعات مع المسلمين في الجنوب، واستطاعت روسيا أن تزيد مساحتها من 14 ألف ميل مربع عام 1480 إلى 1,8 مليون ميل مربع عام 1917 أي أن مساحتها تضاعفت ستين ضعفاً.

وكان أول صدام بين الروس والشيشان عام 1722. ووقعت سلسلة معارك بدءاً من العام 1785 بقيادة الإمام منصور مؤسس الحركة المريدية واستمرت هذه المقاومة والمعارك حتى منتصف القرن التاسع عشر، وقد أسر الإمام منصور عام 1791 واحتجز في قلعة روسية حتى وفاته فيها. ونشبت ثورة عام 1818 وقمعت بالعنف والمجازر والعقوبات الجماعية التي نفذها الروس بقيادة الجنرال يرملوف، وتبعتها ثورة أخرى بين عامي 1824 و1826 بقيادة مرشد الطريقة النقشبندية محمد اليرغلي، ثم استؤنفت مرة أخرى عام 1831 بقيادة الإمام شامل الذي استمر في مقاومته حتى العام 1865 وأسر عام 1859 ولكن المقاومة استمرت بعده ست سنوات.

ثم ظهرت الحركة القادرية بقوة وهي أكثر تطرفاً سياسياً من النقشبندية، ثم نشبت ثورة عام 1877 وصفيت بعد سنة من قيامها بإعدام قادتها، ثم أخذت المقاومة طابع الهجمات السريعة الخاطفة على الحاميات والمواقع الروسية حتى العام 1917.

ونشبت ثورة عام 1925 بقيادة سعيد بك حفيد الإمام شامل ولكنها صفيت عام 1927، ودمجت البلاد في الثقافة الروسية

الشيوعية وأوقفت الكتابة بالأحرف العربية مما قطع الأجيال الجديدة عن تراثها وأعدم ونفي عدد كبير من قادة الشيشان.

ثم استؤنفت الثورة عام 1928 بقيادة الشيخ شيتا استاميلوف حتى سنة 1935 وأعدم على أثرها عدد كبير من القادة الدينيين والشيوعيين أيضاً، وبدأت مقاومة مدنية سياسية عام 1940 بقيادة كاتب شيوعي هو حسن إسرائيلوف ومحامي شيوعي هو مايربيك شريبوف، ولكن الطرق الصوفية ظلت تؤدي دوراً مهماً في هذه الثورة التي استمرت حتى العام 1942 وانتهت بقصف جوي ومدفعي لمناطق الشيشان.

وفي الحرب العالمية الثانية جرت عمليات نفي وتهجير واسعة للشيشان عن أراضيهم وبلادهم، وقد توفي بسبب الظروف الصعبة والقاسية حوالي مائة ألف شيشاني في سنتين، وألغيت جمهورية الشيشان ـ أنغوش بعدما نفي معظم السكان منها. وفي العام 1957 بعد وفاة ستالين أعاد خروتشوف الاعتبار للشعوب المنفية والمضطهدة وعاد الشيشانيون إلى بلادهم.

وبعد انهيار الإتحاد السوفياتي عام 1991 أعلن الشيشان إستقلال بلادهم بقيادة جوهر دوداييف، ودارت رحى حرب ضروس عام 1994 وانتهت عام 1997 ثم تجدد القتال عام 1999 ومازال الوضع غير مستقر وإن كان ثمة سيطرة عسكرية للروس على مناطق الشيشان.

ـ السياق الإجتماعي:

يتميز المجتمع الشيشاني بالتماسك والجماعية بمعنى الانتماء

إلى الجماعة والمساواة، فلا يوجد بين الشيشان نخبة مسيطرة أو طبقة أرستقراطية وتقوم المجتمعات على تركيبة عشائرية قبلية. ويعتقد أن من أسباب انتشار الإسلام بين الشيشان هو انسجام قيمهم واتجاهاتهم الإجتماعية الأصيلة مع الإسلام.

وقد امتزج الإسلام بالقومية الشيشانية، وكان للتيار الصوفي دور كبير في الحفاظ على هوية الشيشان القومية الدينية، ويقدم الإسلام للناشئة باعتباره أخلاقاً قومية شيشانية.

ـ السياق السياسي:

اتصف تاريخ الشيشان بالعداء لروسيا، وقلة النفوذ الشيوعي، وتسييس التصوف وتحويله إلى مؤسسة سرية، واضطلعت الصوفية في الشيشان بالتنشئة السياسية والتعبئة ضد السلطة الروسية ثم الشيوعية السوفياتية.

وبانهيار الإتحاد السوفياتي حدث فراغ كبير على مستوى الدولة وتصاعد الإحياء القومي والديني وتداخل مع الإسلام، ودخل البعد الحركي الإسلامي في العمل السياسي بعدما كان سرياً، وظهر التيار السلفي الجهادي.

ـ العامل الدولي في نشوء الحركة:

شهد العالم الإسلامي في السبعينات مداً إسلامياً شاملاً وشعبياً أثر في الدول والحياة السياسية والعامة والإجتماعية، وكانت الثورة الإسلامية في إيران تحولاً كبيراً في الصحوة الإسلامية شملت العالم كله، وامتدت بطبيعة الحال إلى ما وراء الحاجز الحديدي الذي

فرضته الشيوعية على مناطق المسلمين في الإتحاد السوفياتي.

وساهم الشيشان المهاجرون إلى العالم الإسلامي وبخاصة إلى الأردن منذ نهاية القرن التاسع عشر في توطيد العلاقة بين الشيشان والعرب والمسلمين واتصالهم بالحركة الإسلامية العالمية، وانتشار مبادئ الحركة الإسلامية بمختلف تياراتها واتجاهاتها بينهم.

وأدى تطور الاتصال والإعلام والمعلوماتية وتزايد التعليم إلى تكوين حالة تداخل اتصالي بين جميع أطراف العالم وكانت الصحوة الإسلامية جزءًا من هذا الحراك والتحول الذي استخدم الأوعية الجديدة في الاتصال والتأثير.

ـ العامل الإقليمي في نشوء الحركة:

ويقصد به الدول والمناطق الإسلامية المحيطة بالشيشان في منطقة آسيا الوسطى وحوض بحر قزوين، وقد دخلت هذه المنطقة في تحولات سياسية وإقتصادية مهمة وكبيرة، وأدى اكتشاف النفط فيها والعمل على استخراجه إلى جعلها منطقة اهتمام وصراع عالمي.

وبدأت روسيا منذ العام 1993 تحاول إعادة ترتيب المنطقة معتبرة إياها منطقة جوار قريب تؤثر مباشرة على مصالح روسيا وأمنها، وبدأ يظهر في السياسية الروسية منذ عام 1997 اتجاه إمبراطوري توسعي يحاول استعادة أهمية روسيا القيصرية والإتحاد السوفياتي، وفي هذا السياق تحالفت مع إيران، ودخلت أيضاً في التنافس الإقليمي في المنطقة إسرائيل ومصر والسعودية.

جوهر دوداييف في سطور:

ولد جوهر دوداييف عام 1944 وبعد مولده مباشرة صدرت أوامر ستالين بتهجير شعب الشيشان جميعه من النساء والأطفال والرجال إلى كازاخستان، حيث مات 200 ألف منهم في المنفى في جنوب كازاخستان.

وفى العام 1957 عندما ألغى خروتشوف إجراءات ستالين القاسية الظالمة سمح للشيشانيين ومنهم عائلة دوداييف عام 1957 بالعودة إلى بلادهم، ودرس دوداييف حتى المرحلة الثانوية، ثم عمل كهربائياً وواصل دراسته ودخل جامعة «فيلادي قفقاس» ثم التحق بالكلية الحربية عام 1966م وتخرج في أكاديمية «تامبوف» كطيار حربي. وفي العام 1968م أصبح عضواً في «الحزب الشيوعي» كما كان يعمل في أكاديمية يوري جاجارين العسكرية للطيران في موسكو وترقى إلى رتبة لواء، وأصبح مسؤولاً عن قوات سلاح الطيران والدفاع الجوي السوفيتي في منطقة سيبيريا، وبعد مهمات عسكرية في أوكرانيا وسيبيريا أصبح قائد القوات الجوية السوفياتية في أستونيا ثم قائد فرقة إستراتيجية للطيران الاستراتيجي البعيد المدى، وبعدها قائداً لأسراب الطيران المسلح بالأسلحة النووية، ومدير الاستخبارات العسكرية في أستونيا. . وقد رفض الأوامر من الحكومة السوفياتية عام 1991م بمهاجمة برلمان ومحطة وتليفزيون أستونيا في أحداث كانون الثاني/ يناير عام 1991م وعاد إلى الشيشان وأصبحت له شعبية كبيرة، وحضر إجتماعات المؤتمر الوطني للشيشان كمراقب ثم كعضو في اللجنة التنفيذية للمؤتمر.

واستقال من الجيش السوفياتي للتفرغ للعمل السياسي في بلاده. وقد انتخب رئيساً للشيشان في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1991 وكان هدفه الحفاظ على الإستقلال وحمايته والحصول على الاعتراف به.

ـ تدينه وإسلامه:

يصف الدكتور محمد حرب المتخصص في تاريخ تركيا وجمهوريات آسيا الوسطى، يصف دوداييف فيقول: «جوهر دوداييف مسلم متحمس للإسلام وهو متصوف يتبع الطريقة النقشبندية ومذهبه شافعي، وهو من الداعين إلى وحدة شمال القوقاز (داغستان، الشيشان، الأنغوش، أوسيتيا، والكباردين، البلكار) وهو يبحث عن النموذج الإسلامي المعتدل.. وأمر بإعادة افتتاح 1550 مسجداً كان الشيوعيون قد أغلقوها، واتخذ قراراً بتبني الدولة النشاط الإسلامي والدراسات الإسلامية، فأنشأ في غروزني معهد الدولة للدراسات الإسلامية، كما دعم إقامة معهد الإمام الشافعي للدراسات الإسلامية وفيه معلمون مصريون، وأصدر قراراً بتحريم ممارسة الطب النسائي على الأطباء الرجال».

ـ دور دوداييف في إستقلال الشيشان:

أعلنت جمهورية الشيشان إستقلالها عام 1990م إثر عقد المؤتمر القومي الشعبي الأول للشيشان والأنغوش، وقام بمطالبة برلمان الجمهورية الشيشانية بتبني إعلان السيادة على الأرض الشيشانية للشيشان، وخلال الأشهر بين عام 1990 ـ 1991م تم تحريض

الروس لشعب الأنغوش بالانفصال عن الشيشان ووعدوهم باستعادة أراضيهم في جمهورية أوسيتيا وأعلن الأنغوش انفصالهم في جمهورية ذات حكم ذاتي تابع للفيدرالية الروسية. وفي شهر تموز/ يوليو عام 1991م عقد المؤتمر الشعبي الثاني للشيشان وكان الجنرال جوهر دوداييف قد تقاعد من الجيش وأصبح رئيساً للجنة المؤتمر الشعبي الشيشاني وتم في هذا المؤتمر تبني توصية بإستقلال جمهورية الشيشان التام وسيادتها على أرضها، وفي شهر آب/ أغسطس من نفس العام حدث الانقلاب الفاشل في موسكو، وعلى إثر ذلك أعلن المؤتمر الشعبي الشيشاني حل البرلمان وإعلان انتخابات برلمانية جديدة وانتخاب رئيس للجمهورية، وجرى ذلك بوجود مراقبين من جمهورية لتفيا وروسيا والدانمرك، وكان ذلك بتاريخ 29/ 10/ 1991م وشارك في الانتخابات 75٪ من السكان، وفاز بمنصب رئيس الجمهورية الجنرال جوهر دوداييف بنسبة 80٪من بين ثلاثة مرشحين، وفي 2/ 11/ 1991م أقسم الرئيس اليمين القانونية أمام البرلمان، وتم إصدار قرار إستقلال الجمهورية والسيادة على أرضها.

لم يعترف الروس بالإستقلال ولا بالانتخابات، وبتاريخ 8/ 11/ 1991م أعلن الرئيس يلتسين حالة الطوارئ، وقام بإنزال ألفين من قوات أمن وزارة الداخلية في أراضي الشيشان، إلا أن الشيشانيين تصدوا لهم ونجحوا في أسر الجنود، وطلبوا منهم تسليم أسلحتهم، وتم ترحيلهم بعد أيام إلى موسكو عائدين من حيث أتوا، وعلى إثر هذه العملية قام الروس بإلغاء حالة الطوارئ في جمهورية الشيشان.

وتطورت الأحداث في جمهورية الشيشان عندما أعلنت تشكيلات المعارضة المسلحة يوم السبت 26 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1994م عن عزمها على اقتحام العاصمة غروزني وسط مظاهرة إعلامية روسية عن قرب الخلاص من نظام الرئيس الشيشاني جوهر دوداييف خلال ساعات.

ثم أعلن بعد ذلك أن الاستيلاء على غروزني في الساعة التاسعة والنصف، وأنهم يعدون العدة للاحتفال بإنتصارهم، وفى صباح اليوم التالي تبين أن قوات المعارضة المدعومة بالدبابات وطائرات الهليكوبتر قد انسحبت مخلفة وراءها الحرائق والدمار والقتلى والأسرى والجرحى.

وإذا كانت المعارضة قد فقدت الكثير في عملية اقتحام العاصمة الشيشانية غروزني فقد كسب دوداييف الكثير وصار على الصعيدين الداخلي والخارجي أفضل وأقوى، لعدة أسباب:

أولاً: أظهرت عمليات الدمار وقصف العاصمة قوى المعارضة بمظهر سيئ أمام المواطن الشيشاني العادي، فانحاز إلى الرئيس دوداييف واستعدته على المعارضة.

ثانياً: أكد الرئيس دوداييف للرأي العام التدخل الروسي السافر لإقصائه عن السلطة وذلك من خلال اعتراف الأسرى الروس.

ثالثاً: أصبح فرض حالة الطوارئ عملية صعبة وسط جو العداء للروس من جانب المواطنين الشيشان، والذي خلفه الهجوم الجوي والبري على العاصمة الشيشانية.

رابعاً: اقتحام العاصمة الشيشانية وظهور التورط الروسي خلق حالة من الخوف لدى رؤساء جمهوريات القوقاز الآخرين من تكرار نفس الأمر معهم، فطالبوا الرئيس الروسي بوقف نزيف الدم.

بتاريخ 7/ 12/ 1994م التقى وزير الدفاع الروسي غراتشوف مع الجنرال دوداييف في جمهورية أنغوشيا واتفقا على أن القضية الشيشانية قضية سياسية وليست قضية عسكرية ويجب حلها بالمفاوضات السياسية وتم تسليم الأسرى الروس إثر ذلك.

وبالرغم من ذلك الإتفاق إلا أنه وبتاريخ 11/ 12/ 1994م بدأت العمليات العسكرية البرية تساندها الضربات الجوية المتتالية، وظن الروس أنهم سيقتحمون الجمهورية خلال يومين وستنتهي القضية بدون أي ردود فعل داخلية أو خارجية، ويدخل الرئيس يلتسين إلى المستشفى ريثما تنتهي العمليات العسكرية حسب اعتقاده.

وتطورت الأمور حتى أصبحت مواجهات عسكرية شاملة ما بين الجيش الروسي والمقاومة الشعبية الشيشانية ودخلت القوات الروسية التي قدرت بثمانين ألف جندي وألف دبابة منها 600 دبابة ثقيلة تقدمت على ثلاثة محاور وتتم المفاجأة من القوات الروسية بمقاومة من شعب الأنغوش والشيشان في الداغستان.

وفشلت القوات البرية الروسية في الهجوم، مما جعل القيادة الروسية تفقد أعصابها وتبدأ بقصف غروزني قصفاً عنيفاً فدمرت المساجد والمباني والمنشآت الإقتصادية.

ـ اغتيال جوهر دوداييف:

بعد نجاح المقاومة الشيشانية بقيادة دوداييف في صد الهجوم الروسي ودحره ترتب على ذلك عدة نتائج سياسية هامة، نستطيع أن نجعلها هي الأسباب التي دفعت روسيا لضرب دوداييف بالصواريخ في 22 نيسان/أبريل عام 1996 لإنهاء حياته والقضاء عليه، ومن هذه الأسباب:

أولاً: أصبح الرئيس الشيشاني دوداييف هو الجهة الوحيدة التي يمكن لروسيا التفاوض معها لأنه لديه الأسرى.

ثانياً: بلغ الموقف من التعقيد مبلغاً جعل الرئيس الشيشاني يرفض التفاوض مع يلتسين.

ثالثاً: أظهرت محاولة اقتحام العاصمة الشيشانية وما قبلها من أحداث عدم سيطرة الرئيس الروسي على مقاليد الأمور فيما يخص عملية الشيشان ككل.

رابعاً: ضعف شديد للروح المعنوية للضباط والجنود، فعلى سبيل المثال: صرح ضابط وقع في الأسر بأن قيادته أوهمته بأنه سيذهب إلى غروزني لنزع سلاح بعض المجرمين، ولكنه فوجئ بمقاومة رهيبة تدل على أن الذي يحمل السلاح شعب يدافع عن حقوقه وإستقلاله، وأضاف «أشعر لأول مرة أنني شخص معتدي».

خامساً: تم خلق رأي عام معاد لهذه الحملة العسكرية داخل روسيا جعل موقف القيادة السياسية والعسكرية غاية في الحرج، بل وجعلها تتصرف بتهور مما أوقعها في أخطاء قاتلة.

سادساً: أظهرت هذه الحرب أن الدستور الروسي ضعيف جداً في صياغته فهو ينص على حق الشعوب الفيدرالية في تقرير مصيرها وفي الوقت نفسه ترفع السلاح لمنع الشعب الشيشاني من تقرير مصيره.

ـ مسيرة دوداييف السياسية:

أعلن الشيشان عن تأسيس مؤتمر الشعب الشيشاني عام 1991 وشاركت في المؤتمر مجموعة قوى واتجاهات قومية وليبرالية، وتنازع المؤتمر اتجاهان، أولهما يدعو إلى الإستقلال والثاني إلى جمهورية إتحادية ضمن الإتحاد السوفياتي (لم يكن قد أعلن رسمياً عن انهيار الإتحاد السوفياتي)، وتغلب الاتجاه الإستقلالي، وانتخب جوهر دودابيف رئيساً للمؤتمر الذي خلص إلى إعلان الإستقلال وإجراء انتخابات ديمقراطية والمطالبة بتعويض الشيشان عن النفي والاضطهاد الذي مارسته بحقهم روسيا القيصرية والشيوعية السوفياتية.

وأعلن دودابيف الإستقلال، وأيدته الحركة الصوفية، وأخرجت القوات الروسية من الشيشان، ولكن هذه الدولة الناشئة دخلت في دوامة الفساد والتراجع الإقتصادي والبطالة ثم الانقسام الحاد بين الشيشانيين.

وشهدت السياسة الشيشانية تحولاً واضحاً منذ العام 1993 من الليبرالية إلى الإسلامية ومن السياسة الغربية إلى العالم الإسلامي، وكانت الحركة الإسلامية عاملاً مهماً في هذه التحولات، وتكونت مجموعات إسلامية أو تعتمد على الإسلاميين لمعارضة دودابيف ذي

التوجه الليبرالي والمتطرف قومياً وسياسياً والمدعوم أيضاً من اتجاهات إسلامية مثل الطريقة القادرية.

وكانت أهم المجموعات المعارضة لدوداييف «فريق السلام» بقيادة رسلان حسبولاتوف الرئيس الأسبق للبرلمان الروسي والذي سجن فترة من الزمن مع نائب الرئيس الروسي في خلاف بين الرئيس يلتسين والبرلمان الروسي اقتحم فيه الجيش مبنى البرلمان واعتقل النواب. ويقوم «فريق السلام» على مجموعة من الشخصيات الإسلامية المعتمدة على الطريقة النقشبندية مثل محمد بشير أرسو نكاييف المفتي الأول لجمهورية الشيشان، وإلياس دينييف رئيس الطريقة النقشبندية، وشهدي حجي مقامي أستاذ الشريعة الإسلامية والحائز على الدكتوراه من الأزهر، ومجموعة من الفقهاء وقادة الحركة النقشبندية، وتدعو هذه المجموعة إلى العمل من خلال روسيا الإتحادية برغم العداوة الشديدة بين حسبولاتوف والرئيس السابق يلتسين.

واعتمد دوداييف على الطريقة القادرية المتطرفة سياسياً والتي تمثل الأرياف والطبقات الشعبية لمواجهة النخبة السياسية والثقافية والمدنية المتمثلة بحسبولاتوف والطريقة النقشبندية.

وأدت الصراعات العسكرية مع الروس عندما سعى يلتسين إلى استعادة شعبيته بفرض هيبة الدولة الروسية وإعادة الهيمنة الإقليمية لروسيا إلى نشوء تيار سلفي راديكالي هو التيار السلفي الجهادي وترافق ذلك مع تدفق الأفكار الإسلامية الجديدة من العالم العربي ومشروعات الإغاثة والإعمار والتنمية التي قامت بها مؤسسات

إسلامية عربية. ويمكن تقسيم هذا التيار الإسلامي الوليد إلى ثلاثة أقسام: الجماعة الإسلامية، ومؤسسة الرسالة، والأفغان العرب.

وقد أسس الجماعة الإسلامية شيشاني أردني يدعى أبو سياف وكان يشارك المجاهدين الأفغان قبل انتقاله إلى الشيشان ثم وفاته هناك عام 1997 وخلفه عمر كمال أبو عبد الرحمن وهو أيضاً شيشاني أردني.

وأما مؤسس «مؤسسة الرسالة» فهو مولاي أدوغوف وزير الإعلام ثم وزير الخارجية في جمهورية الشيشان، ويعتمد أدوغوف على نخب مدنية، ويعتقد هذا التيار بضرورة إنشاء نظام إسلامي يشمل منطقة القوقاز وأذربيجان ويكون للشيشان فيه دور محوري.

والأفغان العرب مجموعة من العرب الذين كانوا يقاتلون في أفغانستان وعلى رأسهم خطاب الذي اغتيل قبل أسابيع قليلة بدس السم في طعامه، وهو شيشاني أردني ولد ونشأ في السعودية، وقد انتقل من أفغانستان إلى طاجيكستان عام 1992، ثم انتقل إلى الشيشان عام 1995 بالتنسيق مع شامل باسييف.

إن الأزمة الحقيقية للحركة الإسلامية مستمدة من أزمة الشيشان أنفسهم والروس غير القادرين على الوصول إلى حل توفيقي يرضي الطرفين، من حيث تطلعات الشيشان وإستقلاليتهم وخصوصيتهم ومن حيث مصالح روسيا الأمنية والإقليمية.

فالصراع المفروض هو بين إرادتين لا ثالث لهما، إما الإستقلال الذي ترفضه روسيا بقوة وتصر على استخدام قوتها العسكرية والسياسية الهائلة لمنع حدوثه، أو الاندماج الشيشاني في روسيا وهو

ما يصر الشيشان على رفضه والاستمرار في مقاومة شديدة لم تتوقف على مدى 200 عام في دورات عنف تذهب وتعود.

تكلل النضال الذي خاضه الشعب الشيشاني على مدى عامين متتاليين بزعامة دوداييف بالنصر المشرف لجمهورية الشيشان. وبإجلاء الروس عن الأراضي الشيشانية أضيفت صفحة ذهبية أخرى إلى تاريخ الشعب القفقاسي. قتل قائد الحرية الشيشاني جوهر دوداييف في 21 نيسان/ أبريل عام 1996 نتيجة عملية اغتيال مدبرة، حيث اغتيل بواسطة طائرة هليكوبتر قصفت مقر إقامته.

خالد مشعل

(1956 ـ ...)

(محاولة اغتيال في العام 1997)

تشكّل المحاولة الفاشلة لاغتيال رئيس المكتب السياسي لحركة حماس خالد مشعل في العاصمة الأردنية عمان، نموذجاً واضحاً للتدليل على فرضية، زكّتها الأحداث، بأن عمليات الاغتيال الإسرائيلي هي في النهاية قتل من أجل الانتقام ولا تحمل أي بعد سياسي، وهو الإرهاب بعينه.

فالعملية نفّذت في وسط عاصمة عربية ترتبط حكومتها بإتفاقية سلام مع إسرائيل وبعلاقات هامة جداً تمتد لعقود، وأي عمل، مثل حادث الاغتيال، هو في النهاية سيشكّل في أفضل الحسابات إحراجاً كبيراً لقيادة الأردن التي تروّج لسياسة الصلح والاعتراف بإسرائيل، ولو تم أخذ الأمور بأيّ مقياس سياسي فإن أي عمل أمنيّ مهما كانت أهميته لإسرائيل، لا يساوي أهمية العلاقات الرسمية مع الأردن، والتعاون الأمني الواسع إلى درجة أنه كانت للموساد محطة للعمل في العاصمة الأردنية عمان.

ولكن للأجهزة الأمنية الصهيونية موقف آخر، لذلك كان

يوم 25/ 9/ 1997م، يوماً غير عادي في العاصمة الأردنية عمان، من الصعب أن تنساه المدينة لسنوات متتالية كثيرة.

في الساعة العاشرة والربع من صباح ذلك اليوم، كان شخصان بديا كسائحين يتحركان جيئة وذهاباً أمام مكتب حركة حماس في شارع وصفي التل في عمان، في الوقت الذي وصلت فيه سيارة رئيس المكتب السياسي لحماس خالد مشعل يرافقه ثلاثة من أطفاله ومرافقه الشخصي محمد أبو سيف.

أحد الشخصين كان يحمل في يده حزمة صغيرة مغلفة بكيس نايلون، وعندما نزل مشعل من سيارته اقترب منه أحد السائحين وهو ذو شعر أشقر ولحية صغيرة، وبدا كأنه يريد أن يسأله عن أمرٍ ما، في الوقت الذي اقترب منه السائح الآخر بسرعة وضربه بجهاز كان يحمله على رأسه.

وحسب بيان أصدرته حماس فإن محمد أبو سيف مرافق مشعل حال دون أن يلامس هذا الجهاز رأس مشعل، ولكن الجهاز أصدر صوتاً مدوياً قرب الأذن اليسرى لمشعل الذي شعر بصعقة قوية أصابت جسده بهزة قوية.

وهرب (السائحان) إلى سيارة كانت متوقفة في انتظارهما من نوع «هيونداي» خضراء اللون، دون أن يخطر ببالهما أن حارس مشعل الشخصي محمد أبو سيف، وهو من الذين تدرّبوا في أفغانستان، واكتسب مهارات معينة، لحق بهما، وأوقف سيارة أجرة عمومية وجرت مطاردة للسيارة الهاربة مسافة 3 كيلومترات، من المركز التجاري المكتظ في شارع وصفي التل المشهور باسم شارع

الغاردنز حيث مكتب حماس، إلى شارع مكة، حيث نزل الرجلان من سيارتهما واجتازا الشارع بسرعة نحو سيارة أخرى كانت في انتظارهما، ولكن محمد أبو سيف الذي نزل من السيارة العمومي (التاكسي) التي ركبها ولاحق بها الرجلين سجّل رقم سيارة الهيونداي الخضراء، التي تبين فيما بعد أنها مستأجرة، ولحق بالرجلين وجرت مشاجرة عنيفة تجمّع على إثرها المواطنون ومن بين الذين تجمهروا سمير الخطيب ابن قائد جيش التحرير الفلسطيني في الأردن وساعد أبو سيف في القبض على الرجلين، وحضرت الشرطة وتم اعتقالهما بينما هرب ثلاثة آخرون كانوا في السيارة الثانية وسائق السيارة الأولى إلى السفارة الصهيونية في عمان.

وذكر بيان حماس نقلاً عن رواية محمد أبو سيف أن الإرهابيين مدرّبان تدريباً عالياً على فنون القتال، كما أنهما يتمتعان بلياقة بدنية عالية، غير أنه بتوفيق الله،ثم الإمكانات البدنية والفنية العالية للمرافق مكّنته من تعطيل حركتهما حتى تجمهر المارة ووصلت دورية للشرطة إلى موقع الاشتباك.

وبدأت تتضح الصورة أكثر فأكثر، فبعد ساعات بدأت تتدهور صحة خالد مشعل، من أثر السم الذي وضعه أحد عملاء الموساد في أذنه بواسطة الجهاز الذي ضربه به على رأسه، ونقل مشعل إلى المستشفى في حالة سيئة جداً بسبب ما تبين أنه محاولة للموساد لاستهدافه، وتدخّل الملك الأردني حسين وتم إبرام صفقة لإعطاء مشعل الترياق الشافي وإطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين زعيم حماس المعتقل لدى إسرائيل مقابل إعادة عميلي الموساد اللذين تم

القبض عليهما بسبب شجاعة محمد أبو سيف الذي نوّه لدوره كثيراً فيما بعد خالد مشعل بعد نجاته من محاولة الاغتيال.

هذه هي الخطوط العامة المثيرة لمحاولة اغتيال خالد مشعل، ولكن ربما الأكثر إثارة هي ما كشف عنه من تفاصيل. فقد تبين أن الرجلين اللذين اعتقلا بعد أن لحقهما محمد أبو سيف ـ الذي أصيب بجرحٍ قطعي في رأسه جراء ضربه من قبلهما بآلة حادة فتم علاجه وقطب رأسه بـ 18 قطبة ـ دخلا إلى الأردن بجوازي سفر كنديين يحملان الإسمين شون كندل 28 سنة وباري بيداس 36 سنة.

وبدأ التحقيق مع الرجلين في مركز شرطة وادي السير، بينما شريكهما الثالث الذي يحمل جواز سفر كندي باسم جاي هيرس 30 سنة تمكّن من الهروب خارج الأردن.

ـ موقف الحكومة الكندية:

رفض المجرمان مساعدة القنصلية الكندية لهما عندما تم الاتصال بها، وفيما بعد أثار انتحال رجال الموساد لجوازات سفر كندية زوبعة ولكنها سرعان ما انتهت لتكون زوبعة في فنجان، فالحكومة الكندية المجروحة بكبريائها، أو هكذا بدت، استدعت سفيرها دافيد برغر، في لحظات الغضب من تل أبيب، وسط تشجيع من العالم العربي وإشادة من منظمة التحرير الفلسطينية.

وأعلنت الحكومة الكندية التي استدعت سفيرها للتشاور بأنها تبحث اتخاذ خطوات أخرى لقيام الموساد باستخدام جوازات سفر كندية لعملائه في محاولة اغتيال مشعل.

واتخذت المعارضة الكندية موقفاً أكثر راديكالية، وطالب حزب الإصلاح المعارض من الحكومة فرض عقوبات تجارية على إسرائيل، واعتبر الحزب أن استدعاء السفير إجراء غير كافٍ لإبلاغ إسرائيل الرسالة بأن كندا لن تقبل بأن يقوم الموساد بما قام به بانتحال عملائه جوازات سفر كندية.

وتفاعلت قضية انتحال الجوازات عندما ظهر شون كندل الحقيقي، وهو مواطن كندي يعمل في مؤسسة خيرية يهودية في تل أبيب وقال للتلفزيون الكندي إنه أُقحم في هذا الأمر دون أن يدري.

وأعلن وزير خارجية كندا ليويد إكسويرثي أن سحب السفير خطوة جادة وأن شون كندل الحقيقي يتعاون مع السلطات الكندية، وأن الأدلة التي توصل إليها الكنديون تشير بما لا يدع مجالاً للشك إلى تورط إسرائيل بهذه القضية.

وخرج السفير الكندي السابق لدى إسرائيل نورمان سبيكتور للإدلاء بدلوه، وكان حينها ناشر صحيفة «جيروزاليم بوست» الصهيونية، في الموضوع وفجّرت تصريحاته الجدال المحتدم، حيث قال بدون مواربة إنه يشك إذا كانت حكومة إسرائيل تصرفت بمسألة جوازات السفر الكندية لعملائها بمفردها أم أن المخابرات الكندية تورّطت في هذه العملية مع الإسرائيليين؟؟. وردّ وزير الخارجية الكندية ليود إكسويرثي عليه بالقول: إنه مخطئ. !

وفتح ذلك ملفاً طويلاً من استخدام الموساد لجوازات السفر

الكندية ومثالها الأشهر، ما حدث في ليليهامر في النرويج، عندما قتل اثنان من عملاء الموساد يحملان جوازي سفر كنديين العامل المغربي بوشكي عام 1973 ظناً أنه علي حسن سلامة أبو حسن.

واضطر وزير خارجية كندا أن يعترف أن الملفات الحكومية الكندية تشير إلى أن آخر حادث علني تضمن استخدام إسرائيل جوازات سفر كندية وقع في قبرص عام 1981.

وتدخل في النقاش عميل شهير للموساد هو فيكتور إستروفسكي صاحب كتاب «طريق الخداع» وهو من مواليد كندا فقال لصحيفة «غلوب آند ميل» إن استخدام جوازات سفر كندية يعرّض مواطنين كنديين للانتقام في الخارج، ومشيراً إلى أن الموساد لا يستخدم جوازات سفر أميركية مزوّرة مثلاً، لأن ذلك سيفقده حرية الوصول إلى معلومات المخابرات المركزية الأميركية.

وهدأت الأمور بعد فترة وصدقت التوقعات التي شاعت لدى وقوع الحادث أن كندا لن تتخذ أي إجراء عملي ضد صديقتها العزيزة إسرائيل، وهو ما حدث بالفعل.

واعترف عميلا الموساد اللذان طلبا من القنصل الكندي الذي حضر لرؤيتهما عدم التدخل في الأمر، في حين أن قائد العملية الذي كان يتخذ من السفارة الصهيونية مقراً له، على ما يبدو هاتف مدير المخابرات الأردنية سميح البطيخي وقال له إن المحتجزين من رجالي فلا تمسوهما بأذى، وسنبقى على اتصال مع الملك.

والطريف في الأمر أنه بعد وقوع الحادث أصدر سمير مطاوع وزير الدولة الأردني لشؤون الإعلام بياناً نفى فيه تعرّض مشعل

لمحاولة اغتيال، وانتظر مطاوع وحكومته يومين ليصدرا بياناً آخر يؤكّد تعرّض خالد مشعل لاعتداء في الأردن.

ـ تدهور حالة مشعل الصحية:

في هذه الأثناء كان مشعل الذي غادر مكان الاعتداء برفقة أطفاله يشعر بطنين متواصل في أذنه تطوّر لاحقاً إلى إعياء شديد وألم في الرأس وحالة غثيان وصعوبة في التنفس، وأُدخل المستشفى الإسلامي، ونقل إلى مدينة الحسين الطبية، بعد قدوم أفراد من الأمن الأردني طلبوا نقله، في حالة حرجة للغاية ودخل في غيبوبة جرّاء السم الذي قيل إنه يتحرّك ببطء ويؤدّي للوفاة، وحضر بأمر من الملك حسين طبيب أخصائي من عيادة مايو كلينك الأميركية، التي كان يعالج فيها الملك الأردني دائماً وعولج فيها خلال مرضه الأخير المميت، وأخذ عينة من دم مشعل وغادر مباشرة إلى مركز عمله لتحليل الأعراض التي أصابت مشعل ولم يستطع الأطباء الأردنيين تشخيص حالته.

وكانت التقديرات لدى الأطباء الأردنيين في حينها أن الأشعة التي أرسلها الجهاز الذي ضُرب به أصابت منطقة المخيخ مما أثر على توازن الجسم، وأصابت الأعصاب المسؤولة عن التحكم بعمل الرئتين والجهاز التنفسي مما أحدث خللاً في الوظائف التنفسية ونقصاً متزايداً في نسبة الأوكسجين في الدم، وبأن الجهاز الذي استخدم ضد مشعل أرسل أمواجاً كهرومغناطيسية أصابت مركز التنفس في دماغه.

واتضح أن الموساد خطّط لاغتيال مشعل بشكلٍ بطيء دون

أن يحدث ربطاً بين موته وبين الموساد، خصوصاً وأن الهدف كان أن يموت مشعل أثناء نومه بسبب الاختناق، وبذلك يتجنّب الموساد إحراجاً مع الأردن، ولكن مرافق مشعل، أبو سيف أفشل ذلك.

وفعلاً شعر الملك الأردني بالإحراج الشديد مما حدث وبالمس بكرامته الشخصية، ووظّف جميع مهاراته الدبلوماسية للخروج من هذا المأزق الذي وضعه الموساد فيه.

وذكرت صحيفة «ديلي تلغراف» البريطانية أن الملك حسين اتصل بالرئيس الأميركي بيل كلينتون، وطلب منه المساعدة في توفير العلاج لمشعل، قائلاً له إذا توفي مشعل فستحلّ كارثة على الأردن، فتوجه كلينتون شخصياً بالطلب من إسرائيل بتقديم تفاصيل دقيقة عن السم أو الغاز الذي استخدم في محاولة قتل مشعل.

وقالت القناة الأولى للتلفزيون الصهيوني، إن إسرائيل أرسلت طبيبة خاصة إلى الأردن معها العلاج ضد السم، مما مكّن من علاج مشعل، الذي بدأ يتحسّن فعلاً بعد إعطائه العلاج اللازم حتى تعافى تماماً.

وتسرّب الكثير مما جرى في كواليس دهاليز الحدث، فمثلاً صحيفة «صانداي تايمز» قالت إن الذين شاركوا في العملية هم ثمانية أشخاص، ينتمون إلى وحدة التصفية في الموساد والمسماة «مسفروت» وكانوا وصلوا عمان جواً وأربعة منهم يحملون جوازات سفر كندية، وما تبقى يحملون جوازات سفر أوروبية مختلفة، وأن اثنين منهم نزلا في فندق «إنتركونتننتال» في عمان.

وذكرت صحيفة «الإندبندت» البريطانية أن الإسرائيليين بدأوا بالتحرك بعد فشل عملية الاغتيال التي وقعت يوم الخميس، وأنه في يوم الأحد التالي وصل إلى الأردن وفد إسرائيلي رفيع المستوى ضم بنيامين نتنياهو رئيس الوزراء وإسحاق موردخاي وزير الحرب وآرييل شارون وزير البنى التحتية وسكرتير الحكومة داني نفي، ودافيد عبري مدير عام وزارة الحرب السابق، وأفرايم هليفي السفير الإسرائيلي لدى الإتحاد الأوروبي، والذي شغل في السابق نائب رئيس الموساد وقام بدور هام في المفاوضات السلمية مع الأردن، واستدعي هليفي من قبل نتنياهو لأنه يعتبر من المقرّبين للملك حسين في محاولة لإيجاد مخرجٍ لفشل الموساد باغتيال مشعل.

وحسب رواية أخرى فإن هليفي كان توجّه مسبقاً وسراً إلى الأردن والتقى مع الملك حسين، وأنه خلال هذا اللقاء تبلور الإتفاق حول إطلاق سراح أحمد ياسين زعيم حماس من سجون الإحتلال ونقله إلى الأردن.

وبعد نحو أسبوعين من الحادث نشرت صحيفة «يديعوت أحرونوت» العبرية في 10/ 10/ 1997 تقريراً لمحرّرها شمعون شيفر كشفت فيه تفاصيل ما حدث فعلاً من محاولة اغتيال مشعل والتي انتهت بإنقاذ وإطلاق سراح ياسين وفضيحة مدوية للموساد.

وأشارت الصحيفة إلى أنه في الساعة الثانية عشرة ظهراً وبعد أقل من ساعتين من وقوع حادث الاغتيال الفاشل، كان رئيس الوزراء الصهيوني نتنياهو، يقوم بزيارة روتينية إلى مقر الموساد، لشرب نخب العام العبري الجديد، وليلقي خطاباً قصيراً في غرفة

الطعام، كما يحدث عادة في هذا النوع من الزيارات الروتينية التي يقوم بها رؤساء الوزارات الصهيونية كل عام لمقر الموساد.

ولكن عندما وصل موكب نتنياهو إلى مقر الموساد، وجد مفاجأة في انتظاره، فرئيس الموساد داني ياتوم، وهو إرهابي محترف ارتبط اسمه بقتل أسيرين فلسطينيين بعد إلقاء القبض عليهما، الذي كان يقف في انتظار نتنياهو، طلب منه بعد أن نزل من سيارته أن يتحدث معه على انفراد، وقال له إن اثنين من رجال الموساد اعتقلا في الأردن قبل نحو ساعة من الآن بعد أن نفّذا ما أوكل إليهما وأصابا خالد مشعل.

وبالطبع لم تكن مفاجأة سارة لنتنياهو، الذي دخل مع ياتوم إلى مكتب الأخير، وطلب إجراء مكالمة عاجلة مع الملك الأردني، الذي كان على الطرف الآخر من الخط بعد وقت قصير.

ولم يخبر نتنياهو الملك حسين عن ما حدث أو عن مطلبه ولكنه طلب منه أن يلتقي مع داني ياتوم في عمان، ووافق الملك على الالتقاء مع ياتوم، وربما كان الملك الذي عرفت أجهزته بالحدث بعد اعتقال رجلي الموساد، خمّن مهمة ياتوم المفاجأة إلى عمان.

وأثناء استعداد ياتوم للسفر بعد تلك المكالمة، لحقه العقيد شمعون شبيرا نائب السكرتير العسكري لنتنياهو، وأخبره أن نتنياهو يطلب منه أن يأخذ معه الدواء الذي ينقذ حياة مشعل الذي لم يتبقّ له سوى ثماني ساعات ليعيش، وبعدها سيصل إلى مرحلة لا شفاء منها أبداً.

وفيما بعد فسّر نتنياهو قراره بإرسال الدواء، بأنه أخذ هذا القرار على عاتقه، كي لا يعرّض العلاقة مع الأردن للخطر ولإنقاذ رجلي الموساد المحتجزين في الأردن.

وبعد أن تحدّث مع الملك حسين وأمر ياتوم بالسفر إلى عمان حضر الاحتفال الروتيني، كما هو مرتب مسبقاً، ولكنه، بالطبع كان تفكيره منحصراً بتلك الفضيحة المدوية التي بدأ صداها يتردد في عمان ومنها إلى العواصم المختلفة.

أما داني ياتوم، فغادر مع أحد مساعديه على متن طائرة خاصة ووصل إلى عمان، وكان في استقباله في مطارها المستشار العسكري للملك حسين علي شكري، والذي صحبه فوراً للقاء الملك وهناك وبدون مقدمات يخبر ياتوم الملك بما حدث من محاولة اغتيال مشعل، ويكتفي الملك حسين الذي صمد وسط عواصف الشرق الأوسط العاتية لسنوات بحيث أصبح أقدم حاكم عربي حينها، يكتفي بالصمت، ويقدّم ياتوم للملك المصل الشافي، وفي تلك الأثناء كانت ثلة من الجيش الأردني تأخذ مشعل من المستشفى الإسلامي حيث نقل إلى مدينة الحسين الطبية، لتوفير علاج أفضل والحفاظ على حياته وأمنه كما قيل، وفي ذلك المستشفى حُقن مشعل بمصل الموساد الشافي هذه المرة.

وهنا يبدو أن رواية «معاريف» تستبعد، من دون الإشارة إلى ذلك ما نشرته بعض الصحف الأجنبية عن الاتصالات التي أجراها الملك مع الرئيس كلينتون، ويبدو الملك حسين في هذه الرواية وكأنه آخر من يعلم بما جرى في مملكته، مع أنه

مما لا شك فيه أن المخابرات الأردنية ومديرها سميح البطيخي كانوا على علم بما حدث، وربما قبل علم نتنياهو بذلك أثناء زيارته لمقر الموساد.

واستمر نتنياهو في برامجه المخصصة للاحتفال برأس السنة العبرية بينما كان يتلقّى التقارير أولاً بأول من الأردن، وهو يتنقل من احتفال إلى آخر، ويطلع وزير حربه إسحاق موردخاي وآرييل شارون وزير البنى التحتية وسكرتير الحكومة داني نفيه على حقيقة ما حدث، ويصدر أمراً لرئيس بعثة الموساد في العاصمة الأميركية واشنطن بالذهاب إلى نيويورك للقاء وزير الخارجية دافيد ليفي الذي كان يرأس وفد بلاده إلى إجتماعات الهيئة العامة للأمم المتحدة وإطلاعه على ما حدث.

وبعد ساعات طلب نتنياهو من العقيد شمعون شبيرا نائب سكرتيره العسكري، الاتصال مع أفرايم هليفي سفير إسرائيل لدى الإتحاد الأوروبي، والمعروف بعلاقاته الحسنة مع الملك حسين على مدى سنوات، والطلب منه العودة على وجه السرعة إلى القدس، التي يصلها في اليوم التالي، ويتباحث مع نتنياهو في كيفية إرضاء الملك وتطمينه، وفي هذا الإجتماع يطرح هليفي فكرة الإفراج عن الشيخ أحمد ياسين، وهو ما طرحه على الملك حسين بعد ساعات عندما التقاه في القصر الملكي.

وفي هذه المرة كان الملك حسين الذي حافظ على صمته في لقائه مع ياتوم، يتحدّث بأريحية مع صديقه هليفي ويعبّر له عن مخاوفه وشكّه فيما إذا كان المصل المضاد سينقذ حياة مشعل.

واشترط الملك حسين، لاستمرار الحوار مع الإسرائيليين أن يزوّدوه بتركيبة المادة السامة التي حقن فيها مشعل.

وفي التاسعة من مساء اليوم نفسه الجمعة 26/ 9 كان هليفي يقدّم طلب الملك حول الحصول على التركيبة الكيماوية لقادة إسرائيل في غرفة المجلس الوزاري، في جلسة وصفت بأنها إحدى الجلسات العاصفة جداً في تاريخ إسرائيل.

وكما هو متوقع فإن الطلب الأردني جوبه بنقاش حاد، ولكن في نهاية الإجتماع اتخذ قرار بإرسال هليفي مرة أخرى إلى الأردن ومعه خبير، مهمته تقديم شرح للملك حسين عن تركيبة السم القاتل.

وهو ما حدث، ويبدو أن ذلك كان له ثمن، وجزءاً من الصفقة التي أريد لها أن ترضي الجميع وتقلّل صدى الفضيحة، ففي صباح الأحد 28/ 9 توجه موكب من السيارات المحصنة من عمان واجتازت الحدود دون أن يعترضها أحد، وفي إحدى السيارات كان يجلس هليفي ومعه ثلاثة رجال وامرأة، هم عملاء الموساد الذين هربوا إلى داخل السفارة الصهيونية في عمان بعد الحادث، وها هم وبعد موافقة الملك حسين في طريقهم إلى بيوتهم، خائبين.

وبالطبع الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد، فمشعل ما زال في المستشفى رغم التحسن الذي طرأ على صحته وما زال أيضاً رجلا الموساد محتجزين لدى الأردن.

وهذا الجزء من القصة لا بد له من مفاوضات من نوع خاص، لذلك في الساعة الحادية عشرة من مساء الأحد 28/ 9 غادرت طائرة

من مهبط الكنيست بالقدس إلى عمان وتقلّ على متنها: نتنياهو وإسحاق موردخاي وزير الحرب، وآرييل شارون وزير البنى التحتية، والسفير أفرايم هليفي، ومستشار وزير الحرب العميد يعقوب عميدور ونائب سكرتير نتنياهو العسكري العقيد شمعون شبيرا.

وفي عمان يلتقيهم ولي العهد الأمير الحسن، الذي يتهم القادمين بأن ما فعلوه وخططوا له باستهداف خالد مشعل هو في الواقع محاولة لإسقاط النظام الهاشمي، وقال لهم الحسن بمرارة المصاب بخيبة من أصدقاء مقربين له «ماذا فعلتم؟ قبل يومين فقط استضاف أخي الملك في قصره مجموعة من ضباطكم، وجلس معهم ساعات طويلة وأكل معهم، وأنتم تردّون بإرسال القتلة إلى أراضينا».

واتهم الحسن بلسانه ولسان شقيقه الملك بأن إسرائيل بعملها كانت تستهدف إحراجهما قائلاً: «نحن لا نفهمكم، أي غباء هذا حين يقوم أربعة من عملاء الموساد بالهرب في وضح النهار إلى السفارة الإسرائيلية في عمان».

وفي حديثه الطويل مع وفد صهيوني رفيع المستوى ربط الأمير الحسن بين محاولة الاغتيال بما نشرته وسائل إعلام صهيونية بمحاولة إسرائيل اقتحام مناطق السلطة الفلسطينية وهذا يعني تهجير مئات الألوف من الفلسطينيين إلى الأردن، وإغراق الأردن بهم وإسقاط النظام الملكي.

وبذل نتنياهو وصحبه توضيح الأمور لولي العهد الأردني، وتم الإتفاق بشكلٍ نهائي على إطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين، على أمل

أن يؤدي ذلك للإفراج عن رجلي الموساد المحتجزين في الأردن.

- إسرائيل تكشف أسرار محاولة اغتيال مشعل:

للمرة الأولى كشفت إسرائيل، بعض تفاصيل محاولة اغتيال رئيس المكتب السياسي لحركة «حماس» خالد مشعل، في الأردن العام 1997، وذلك في رواية قدمها المسؤول السابق في جهاز الموساد الإسرائيلي مشكا بن دافيد، الذي ترأس أيضاً فرع الموساد في الأردن.

وكان بن دافيد، على وشك إنهاء مهام منصبه حينما أعدت خطة اغتيال مشعل، وقال في لقاء مع صحيفة «يديعوت أحرونوت»: «كنت عضواً في الفريق الطبي الذي كان عليه معالجة أعضاء المجموعة في حال تسمم أحدهم بالخطأ».

«كان علي الانتظار حتى أتلقى: إما رسالة بأن العملية قد نفذت أو أن يأتي إلي أحد رجالنا من أجل الحصول على المصل المضاد للسم. مرت عدة أيام دون حصول فرصة جيدة للنيل من مشعل، وفي النهاية حينما تمكنوا منه، تم اعتقال اثنين من رجالنا».

وأضاف: «في الصباح نفسه كنت في مسبح الفندق حينما ظهر فجأة شخص لم يكن ليظهر لو أن الأمور تمت طبقاً لما هو مخطط، وكان بإمكاني أن أعرف من تعابيره بأن خطأ كبيراً قد حدث. ثم أجريت اتصالاً مع المسؤولين عني في إسرائيل الذين طلبوا مني أن أطلب من الرجال الآخرين ترك مواقعهم حول عمان وجلبهم على جناح السرعة إلى السفارة الإسرائيلية».

وتابع بن دافيد، الذي كان آنذاك قد عاد إلى الفندق: «كان المصل المضاد للسم معي ولكنني كنت أعلن بأن لا حاجة لي به بعد الآن. فلم يصب أحد إلا الهدف (مشعل) وكان في حالة صعبة جداً، ولذا فقد قررت أن أتلفه كي لا يقبض علي والمصل بحوزتي، ولكن فجأة تلقيت اتصالاً هاتفياً من الضابط المسؤول عني والذي طلب مني أن أنزل إلى بهو الفندق وأن أسلم المصل المضاد إلى ضابط أمن أردني كان ينتظر من أجل نقل المصل المضاد إلى المستشفى».

«أدركت فوراً أن رئيس الوزراء آنذاك نتنياهو وداني ياتوم رئيس الموساد أبرما إتفاقاً مع الملك حسين يتم بموجبه إنقاذ حياة مشعل، الذي كان فاقداً للوعي وقريباً من الموت، وبالمقابل يفرج الأردن عن عميلينا المعتقلَين».

ووصف بن دافيد، المجريات آنذاك بفيلم الرعب، حيث طلب منه أن يسلم نفسه إلى الأردنيين باسم مزيف بعد عملية فاشلة، دون أن يعرف كيف سيتصرف الأردنيون معه، وقال: «في ذلك الوقت لم أنظر إلى الأمور بشكل دراماتيكي كبير رغم أنها في حقيقة الأمر قد تكون كذلك. فهمت بأنه تم إبرام إتفاق وأنهم إذا طلبوا مني ذلك فإنهم بالتأكيد كانوا يعرفون ماذا كانوا يفعلون».

نزل بن دافيد، إلى بهو الفندق حيث سلم المصل المضاد للسم، إلى ضابط الأمن الأردني، ويقول: «ما زلت أذكر تصرفاته العدوانية ولكن أيضاً هو كان ينفذ الأوامر، وقد نقل المصل المضاد إلى المستشفى».

- **مسيرة خالد مشعل:**

ولد خالد مشعل في 28 أيار/مايو عام 1956 في قرية سلواد قضاء رام الله. عائلته متدينة، هاجرت إلى الكويت في العام 1967. درس الثانوية العامة في مدرسة عبد الله السالم. ثم انضم إلى جامعة الكويت عام 1974 حيث درس الفيزياء في كلية العلوم بمنطقة الخالدية. وتخرج عام 1978. عمل مدرساً للفيزياء في الكويت. وفي العام 1991 غادر الكويت إلى الأردن على إثر اجتياح الكويت.

- **حياته العائلية:**

بعد سنتين من تخرجه تزوج في الكويت عام 1980 وأنجب 7 أطفال، ثلاث فتيات وأربعة صبيان.

- **بداياته مع حماس:**

انضم مشعل إلى المكتب السياسي لحركة حماس منذ تأسيسها نهاية العام 1987. ولدى عودته إلى الأردن أصبح عضواً نشطاً وانتخب عام 1996 رئيساً للمكتب السياسي.

كان خالد مشعل يعمل مدرساً للفيزياء في الكويت قبل غزوها عام 1990، وبعدها اضطر مع كثير من الفلسطينيين الذين اتهموا بمساندة صدام حسين وقتها من مغادرة الكويت إلى الأردن.. هناك تولى مشعل مسؤولية مكتب حماس في العاصمة الأردنية عمان، حيث كان مسؤولاً عن جمع التبرعات الخارجية لحماس ونقلها إلى مشروعات خيرية تديرها حماس في غزة، كما عمل الرجل الفيزيائي

مشعل بنشاط كبير على توسيع دائرة علاقات حماس لتشمل سوريا وإيران.

كان مشعل قد شارك في شباط/ فبراير 2003 في القاهرة ممثلاً عن حركة حماس في محادثات الفصائل الفلسطينية بهدف التوصل إلى وقف لإطلاق النار.

وعقب اغتيال الشيخ الشهيد ياسين في العام 2004 تم اختيار مشعل قائداً عاماً لحركة حماس، وهي أول مرة يتم فيها هذا المسمى حيث ظلت الحركة تدار من قبل مسؤولين خارجيين وداخليين تحت قيادة الشيخ ياسين الذي كان يعيش في غزة.

إن حماس بهذا الاختيار ربما أرادت إعطاء نفسها قدراً أكبر من المناورة عن طريق اختيار قائد يعيش خارج الأراضي المحتلة، الأمر الذي يعطيه حرية أكبر في الاتصال بالأحزاب والحكومات، ويكون من الصعب على العدو الإسرائيلي استهدافه حيث يعيش منذ إخراجه من عمان في العاصمة السورية دمشق.

ـ محطات هامة:

في آب/ أغسطس من العام 1999، ونتيجة ضغط من الإدارة الأميركية، قامت السلطات الأردنية بإصدار مذكرة إلقاء قبض على خالد مشعل، وتزامن موعد إصدار المذكّرة بوصول وزيرة الخارجية الأميركية حينها، مادلين أولبرايت.

في تشرين الأول/ أكتوبر عام 2002، التقى خالد مشعل مع ولي العهد السعودي الأمير عبد الله في الرياض على هامش المؤتمر

العالمي للشباب المسلم، ولم تصدر أي تصريحات من جانب حماس ولا العربية السعودية بنتائج اللقاء، إلا أن الوثائق الفلسطينية التي قامت القوات الإسرائيلية بمصادرتها وزعمت أنها وثائق تعود إلى حماس، وصفت تلك الوثائق أن اللقاء بين الأمير عبد الله وخالد مشعل كان ممتازاً.

قام خالد مشعل بتوجيه الانتقاد للسلطة الفلسطينية ورئيسها السابق ياسر عرفات وعدم الالتفات إلى وقف إطلاق النار بين القوات الإسرائيلية ومقاتلي حماس لعدم التزام إسرائيل بإتفاقات وقف إطلاق النار.

في 23 آذار/ مارس عام 2004 أعلنت حماس خالد مشعل رئيساً للحركة خلفاً لعبد العزيز الرنتيسي التي اغتالته إسرائيل.

في 29 كانون الثاني/ يناير عام 2006، قام خالد مشعل بإلقاء خطاب من العاصمة السورية دمشق إثر إنتصار حماس بأغلبية مقاعد البرلمان الفلسطيني الأمر الذي يؤهل حماس تشكيل الحكومة الفلسطينية، وفي خطابه هذا، أعرب مشعل عن نيته مواصلة الكفاح المسلح وعدم التخلي عن السلاح الذي بحوزة حماس وتوحيد سلاح الفصائل الفلسطينية وتشكيل جيش وطني يعمل على الذود عن فلسطين والفلسطينيين كما هو حال باقي الجيوش. وفي آذار/ مارس من العام نفسه، قامت موسكو بدعوة مشعل إلى العاصمة الروسية بهدف إقناعه بالتخلي عن سلاح المقاومة وتحويل حماس إلى حزب سياسي والاعتراف بإسرائيل، إلا أن المحاولات الروسية باءت بالفشل.

الأميرة ديانا سبنسر

(1961 - 1997)

فاجعة مصرع أميرة ويلز في 31 آب/أغسطس عام 1997م هي واحدة من تلك العلامات التاريخية مثل اغتيال كنيدي، لقد كان مصرعها حدثاً لا ينسى، ومثله لا يزال الملايين يتذكرون وقائع تلك الصدمة والأنباء السيئة التي جاءت إليهم من باريس. . فيما ما زالت تداعب خيالاتهم وقائع زواجها الأسطوري من الأمير تشارلز قبل ستة عشر عاماً من زواجها وهي فترة زمنية كانت كافية لتتحول ديانا من «دي» الخجولة إلى أكثر امرأة التقط لها صور على وجه الأرض. . بعضها يبتعد كثيراً عن «دي» الخجولة، وأكثر امرأة كتب عنها وتحدث الناس عنها حية وميتة لتصبح أميرة ويلز واحدة من أشهر نساء العالم!!

قصة أميرة ويلز بل حياتها كانت مزيجاً من الألم والسعادة، وخليطا مّن النصر والخسارة ومن الحب وعدم القبول. . وهكذا فإن يوم وفاة ديانا يقلب لنا صفحات التاريخ ليحكي لنا تفاصيل هذه الشخصية النسائية الأكثر إثارة ولفتاً للأنظار في العالم، وهنا نستعرض تفاصيل ما جرى لأميرة ويلز على النحو التالي:

عندما وقفت الممرضتان هومبرت وليكورشيه إلى جوار جسد ديانا المسجى قبل الساعة العاشرة صباحاً بقليل في يوم الأحد، لم تصدقا نفسيهما بأن ما تراه أعينهما حقيقة، ولم يكن هناك وقت للإمعان في مشاعرهما، فقد أخبر السفير البريطاني لدى فرنسا جاي أن الأمير تشارلز سوف يصل في الخامسة مساء ليرافق جثمان زوجته السابقة في رحلة العودة إلى لندن.

وعندها قامت الممرضتان إلى العمل، كان أول تفكير لهومبرت هو أنه يجب عليها أن تبرد الحجرة لتحفظ الجثة من أن تفسد، وقالت وهي تتذكر: «أنا كنت أعلم أن ذلك اليوم سوف يكون حاراً، لذا طالبت بتوفير جهاز تكييف داخل الحجرة، وكان هذا رد فعل طبيعي مهني مني، ففي الحال فكرت في الحفاظ على الجثة، وقد فكرت أنه مع مجيء كل ذلك العدد من الناس فيمكن أن يوجد ذلك مزيداً من الحركة وبالتالي مزيداً من الحرارة، فكان أول تفكير لي هو تبريد الغرفة».

وحتى فكرة تركيب جهاز تكييف مثلت لنا مشكلة خاصة، وذلك لمنع جحافل الصحفيين والمتطفلين من أن يعلموا أي الغرف كانت لديانا، لذا قمنا بتغطية كل نوافذ الطابق الثاني لمجمع المستشفى الضخم بالستائر، وكانت هناك أسباب كافية لنقوم بذلك، فقد قام العديد من صحفيي جرائد الفضائح المغامرين بتأجير غرف عبر الشارع المقابل للمستشفى.

وقد أخبرت هومبرت الفنيين أنه بدلاً من تركيب جهاز التكييف على النافذة والمخاطرة بفتح هوة ونكشف مكان جثة الأميرة، فنحن

لا نستطيع أن نترك فتحة في الحائط لأنه من الممكن أن يقوم شخص ما بلصق كاميرته من خلالها، لذا قمنا بتعليق التكييف بأحد أحواض الغرفة، واستخدمت المياه الجارية كعنصر التبريد، وقد نجحت تلك الفكرة، ففي الوقت الذي كانت دهاليز المستشفى مرتفعة حرارتها، كانت الغرفة القابع فيها جسد ديانا باردة على درجة حرارة 60 فهرنهيت، وأضافت الممرضة بجدية: «كانت أفضل غرف المبنى على الإطلاق».

وقد وصلت باقة ورد واحدة فقط إلى حجرتها طوال فترة الصباح، وكانت عبارة عن باقتي زهور حمراء من الرئيس الفرنسي السابق فاليري جيسكارد ديستان وزوجته آن أيمون والتي كانت صديقة أخرى لديانا، وفي ذلك المساء كان من المقرر أن يأتي مزيد من الزهور، في ذلك الوقت كانت هناك ترتيبات وجهت لإدارة المستشفى من الأمير تشارلز بأن تتزين بزهور الزنابق لأنها كانت المفضلة لديها، وفي مفارقة صارخة لذلك الفيض من الأزهار التي غطت وسط لندن خارج المستشفى، كانت تلك الزهور هي الوحيدة في غرفة ديانا المتواضعة في هذا اليوم.

وكان من المفترض أن يتم إجراء تشريح للجثة، ولكن ذلك كان مقرراً له في إنكلترا وليس في فرنسا، وحتى ذلك الوقت لم يتم تحنيط الجثة، وفي ذلك الوقت تم عمل كل الجهود لجعل جثة الأميرة ديانا قابلة للعرض على الأعداد الغفيرة من الشخصيات المهمة الذين بلا شك أتوا ليعبّروا عن تعازيهم خلال اليوم، وقالت هومبرت: «الجثة مهمة للغاية، سواء كانت للأميرة ديانا أو لأي

شخص آخر، فيجب عليك أن تفكر في العائلة وآلامها، فلم يكن أحد ليتوقع أن يأتي ليلقي النظرة الأخيرة على الجثمان بدون أن يكون قد تم تسريح شعرها وأن تكون في حالة جيدة».

وقد أتى كل أعضاء طاقم المستشفى من الممرضين والخدم من الذين يعدون الجثث للتشريح ودارت المناقشات من أجل غسيل جثمان ديانا بدقة ووضعوا الشامبو على شعرها، كما كان وجه ديانا وخصلات شعرها الأشقر مصدر اهتمام خاص بالطبع، فقد جاءت خبيرة تجميل ومصفف شعر من دار جنازات فرنسية متخصصة، وأتوا حاملين صورة كبيرة ملونة لديانا والتي كانت قد صدرت مؤخراً في عدد مجلة «ماتش» الفرنسية.

وتتذكر هومبرت وتقول: «لقد حاولوا أن يصلحوا شكلها على نفس هيئة صورة المجلة، بتجعيدة شعرها في مقدمة رأسها وأن يزينوا وجهها لتظهر بالضبط بنفس المظهر الذي كانت تظهر به في الصورة، ولم يتوقفوا عن الإرسال في طلبي طوال اليوم ليسألوني إذا ما كانت تلك الصورة هي التي يجب أن تظهر بها، أو تلك الطريقة، وكان الوضع مؤثراً جداً وصعباً على التحمل، كان الأمر قاسياً، قاسياً جداً».

ـ حقيقة مروعة:

تم تكليف رجل وامرأة من بيت الجنازات تزيين وجه الأميرة بمساحيق التجميل وإعادة تصفيف شعرها لكي تطابق الصورة في مجلة «ماتش» الباريسية، وواجهت هومبرت بحقيقة مروعة: لم يكن لديهم فستان مناسب لها!! فقد تمزق البنطال الأبيض والبلوزة ذات

الأكمام القصيرة السوداء التي كانت ترتديها في تلك الليلة بواسطة رجال الطوارئ الطبية في مسرح حادث التصادم، وكانت كل تلك الأشياء من ضمن متعلقاتها الشخصية: الجاكيت الأسود، حذاء كعب عالي من طراز «فيرساك» مقاس9، حافظة نقودها، ساعتها الذهبية من طراز «جايجر لي كولتريه» المطعمة بأحجار كريمة بيضاء، سوار معصم بستة فصوص من اللآلئ بمشبك على هيئة تنين، حزام حريمي أسود من ماركة «رالف لوران» مقاس 30، فردة حلق ذهبي، كل تلك المتعلقات تم حفظها في حقيبة بلاستيكية.

وكانت تتذكر هومبرت قائلة: «لقد طلبت من القنصل البريطاني كيث موس أن تتصل بمحلات «ريتز» لتجهيز فستان لها، وأصيبوا بالصدمة بعدما اكتشفوا أن جميع ممتلكات الأميرة في باريس تم حزمها، طبقاً لأوامر محمد الفايد، وشحنها إلى لندن، وتتذكر هومبرت: «كل شيء تم تحديداً في ذلك الصباح».

وفي الوقت الذي فتش فيه مسؤولو السفارة البريطانية كل أنحاء باريس من أجل العثور على فستان مناسب، واجهت الممرضات مشكلة عاجلة أخرى، إن معظم العائلة الملكية، وبخاصة الملكة، والأمير فيليب، والأمير تشارلز وابني ديانا، كانوا يقضون عطلتهم الصيفية في قلعة بالمورال في اسكتلندا في وقت الحادث، وقد ظلت الملكة هناك مع الأمير وليام والأمير هاري، في حين طار الأمير تشارلز إلى باريس، واتصل بالسفارة البريطانية في باريس.

ـ قلق من نوع آخر:

صاح القنصل البريطاني العام في فرنسا موس في كلمات

للممرضة هومبرت: «الملكة! الملكة!» في الوقت الذي هرع فيه مسرعاً إلى الغرفة التي يسجى فيها جثمان ديانا تحت الملاءة، وقال إن الملكة تقول إذا كان هناك أي مجوهرات ملكية في متعلقات ديانا، فإن جلالتها تريد إرجاعها إلى العائلة المالكة فوراً، وقال موس «مدام، إن الملكة تشعر بالقلق إزاء المجوهرات، يجب أن نعثر على المجوهرات بسرعة، فالملكة تريد أن تعرف أين المجوهرات».

وأجابت هومبرت: «ولكنه لم توجد أي مجوهرات، لا يوجد تاج شعر بالطبع، لا خواتم، لا عقود».

وقبل أن يستقل الطائرة إلى باريس وجه أيضاً الأمير تشارلز سؤالاً حول مجوهرات ديانا، ولعلمه أنها كانت ترغب في أن تظهر في أبهى حلة لها أمام هؤلاء الذين أتوا ليعبروا عن تعازيهم في المستشفى، فقد قام تشارلز بالاتصال بالمستشفى وطلب شخصياً أن يتم إلباسها قرطي أذنيها الذهبيين وقال تشارلز: «إن ديانا ترغب دائماً في ارتداء قرطيها على الملأ» فلا يزال يتكلم عن زوجته السابقة بصيغة المضارع، وقال: «سوف يكون هناك الكثير من الناس الذين سينظرون إليها، أنا متأكد أنها تريد الأقراط»، ولكن بعد تفتيش حجرة المتعلقات بالمستشفى لم يجدوا أقراطها المفقودة.

وقد مرت سبعة أسابيع قبل أن يعثر البوليس على الأقراط المفقودة، والتي طارت من أذني ديانا بسبب قوة الاصطدام وذهبت بعيداً في أسفل مقدمة السيارة، وعثر عليها في مقدمة المرسيدس

بواسطة محققي الاصطدام، وتقول هومبرت أنها كانت مبهورة باهتمام الأمير بالحفاظ على كرامة ديانا حتى بعد موتها، وأضافت: «لقد أدهشني للغاية ذلك الاهتمام بالتفكير في أدق التفاصيل.

وفي ذلك الوقت ظلت محاولة العثور على ثوب مناسب لديانا مستمرة لحوالي ساعتين، وفي النهاية وجدت سيلفيا زوجة السفير البريطاني الحل، فقد كانت تقريباً في نفس مقاس ديانا، فعرضت فستاناً من فساتينها. وبعد ذلك في المساء، وصل رجلان إلى المستشفى بحقيبة ملابس، أحدهما كان الحارس الشخصي السابق لديانا، وكان الآخر أحد الأشخاص الذين أثيرت حوله الأقاويل بأنه كان أكثر الناس قرباً من ديانا، وهو سائقها الأمين وكاتم أسرارها وحاميها بول بوريل الذي كان يتوقع أن يكون في باريس بصحبة الأميرة ولكن ليس في مثل هذه الظروف على الإطلاق. وفي الليلة السابقة قامت ديانا بالاتصال ببوريل وكانت روحها عالية جداً، وقالت أنها كانت تتشوق للغاية لرؤية ابنيها لأول مرة منذ خمسة أسابيع، كما سألت إذا ما كان يمكن أن يأتي بعض المقربين لها ليصحبوها في رحلة العودة.

وقد أوقفت هومبرت البريطانيين، وكلاهما لا يتكلم الفرنسية، أوقفتهما على الباب، وقالت وهي تتذكر «كانا يريدان التحدث إلي، وقالا إن الفستان معهما داخل الحقيبة»، وقبل أن يسمح لهما بدخول الغرفة، أصرت هومبرت على أن يقوما بفتح الحقيبة، وقالت «كان فيها الثوب الأسود التي تزينه ياقة على شكل رقم 7 من الأمام، وكان من الصوف الرقيق الذي كان أسمك قليلاً من قماش

الكريب الرقيق، والفستان الذي كان أسفل الركبة بقليل بأكمام طويلة وبحزام في الوسط، كما كانت تحتوي الحقيبة على حذاء أسود خفيف من نوع سيلفيا جاي».

وبينما كان بوريل ينتظر في الردهة، قامت هومبرت وليكورشيه بأخذ الحقيبة إلى داخل الغرفة، ووضعتاها على كرسي وفتحتاها ثم أخرجتا الفستان منها، وقد تعجبت هومبرت هي والآخرون من أن وجه ديانا كان بنضارته ولم يعكر صفوه شيء، واستجمعت هومبرت شجاعتها في الوقت الذي قامت فيه ليكورشيه بسحب الملاءة من فوقها، وفي الحال، بدت جراحها البارزة واضحة للغاية، فقد كانت جروحها عبارة عن خيوط متقاطعة ومتشابكة وكانت هناك غرز بداية من عظمة الرقبة، وكانت تلك الصورة الفظيعة لجروحها ناتجة عن المحاولات اليائسة من جراحيها لإنعاش قلبها بكافة السبل، وكانت هناك كدمات في يديها ورجليها، كما كان جانبها الأيمن كذلك مليئاً بالكدمات، وكانت تلك دلالة على أن ضلوعها قد تكسرت، وبالمثل كانت مقدمة ذراعها اليمنى، والتي كانت مهشمة تماماً بصورة سيئة وكان لون ذراعها بين الأسود والأزرق، وعندما قاموا بتحريك جسدها لكي يلبسوها الفستان، وجدت الممرضتان العديد من الجراح في الظهر بما في ذلك قطع بطول بوصتين وجرح غائر بطول ثلاث بوصات في الفخذ الأيمن. وقد كتبت هومبرت كافة تفاصيل جراح ديانا في تقريرها، ولكن لم يكن أحد يعلم أن هذا التقرير خاص بالأميرة ديانا، فلم تكتب اسم ديانا على التقرير بل اسم «القديسة باتريشيا»، والتي كانت قديسة في نابلس، وكانت سليلة عائلة من كونستانت نوبل،

ثم سافرت بعد ذلك إلى إيطاليا لتهرب من زواج ملكي، وقامت بتوزيع ثروتها على الفقراء والمحتاجين وماتت وهي في سن صغيرة. وكانت ديانا قد أخبرت بوريل في أحد الأيام أنها تريد أن تدفن في تابوت فيه نافذة زجاجية لكي يبدو وجهها واضحاً من خلاله. وقد جاء ذلك التابوت المصنوع من المعدن الرمادي، وكان أغرب تابوت شاهدته الممرضات، وتم إدخاله الغرفة وجاء حانوتي وساعدته الممرضتان هومبرت وليكورشيه مع اثنين من أعضاء السفارة البريطانية، ثم قاموا برفع جسد ديانا، فقام أحدهم بحملها من يديها والآخر من رجليها، ووضعوها داخل التابوت، ثم قاموا بعد ذلك بصف قدميها ووضع ذراعيها على صدرها داخل التابوت.

ـ بكاء وتمزق:

تُرك غطاء التابوت مفتوحاً لكي يشاهده كبار المعزين الذين كان من المقرر أن يأتوا في المساء، وكانت دار كريستي للمزادات في نيويورك قد قامت بعرض 97 فستاناً لديانا ليتم بيعها وصرف ثمنها على أبحاث الإيدز وبلغت قيمتها أكثر من 3 ملايين دولار، وكانت تلك الفكرة أساساً من اقتراح ابنها الأمير وليام الذي كان يحظى بقبول جماهيري.

وعادة ما كانت ديانا تصف بوريل ذا الجسد الضخم والكلام الناعم بأنه «صخرتي»، الرجل الوحيد الذي أستطيع أن أثق به، وعندما رآها بوريل ذابت تلك الصخرة وأصبح مثل الشمع المذاب. وتتذكر هومبرت: «لقد انهار، لقد فقد القدرة على التماسك تماماً»، وهذا الكلام يناقض بعض التقارير التي صدرت عن جريدة

«الصانداي تايمز» البريطانية من أن سائق ديانا الوفي لم يفقد تماسكه على الإطلاق، فقد بكى بوريل وكان لبكائه نحيب.

ومد بوريل بعد ذلك يده إلى حقيبة الملابس التي كانت تحتوي على الفستان، وأخرج منها مسبحة وقال: «كانت هذه هدية للأميرة من الأم تيريزا»، وسلم المسبحة إلى ليكورشيه، ثم سأل بعد ذلك بوريل إذا كان يمكن أن توضع المسبحة في يد الأميرة، فقامت ليكورشيه برفق بفتح أصابع الأميرة ووضعت المسبحة بداخلها، ثم أخرج بعد ذلك صورة داخل إطار للأميرين وليام وهاري التي كانت ديانا عادة ما تسافر معهما، مع صورة أخرى لأبيها إيرل سبنسر التي كانت تحبه حباً جماً، وتم وضع هاتين الصورتين أيضاً في يد ديانا.

وقالت هومبرت: «وبدأ بوريل يترنح في مشيته، كما لو كان على وشك أن يغمى عليه، فقد كنا نخشى أن يفقد وعيه، فأجلسناه وحاولنا تثبيته، ولكن كانت حالته أكثر من مجرد عزاء، وكان يجب علينا إخباره في النهاية «بول، لقد حان الوقت لذهابنا الآن».

لم يكن بوريل هو المعزي الوحيد الذي كان يشعر بالتمزق، وحاولت هومبرت أن تعزيه في ذلك اليوم، فقد تم تكليفها بإخراج كافة المعزين من حجرة ديانا، وقد كان رد فعل وزير الصحة الفرنسي برنارد كوشنر مثل بوريل تماماً، فقد انهار السيد كوشنر وقتما رأى جسد الأميرة المسجى، وقد تأثرت هومبرت عندما كانت تتذكر تلك الكلمات، وقالت: «لقد كان مشهداً محزناً للغاية، في كل مرة أتذكر هؤلاء الناس يكون ذلك صعباً جداً علي».

وفي حوالي الثانية بعد الظهر اجتمع حوالي 30 شخصاً، بما في ذلك د. برونو ريو الذي كان يرأس فريق الطوارئ الطبي الذي حاول إنقاذ ديانا، ورئيس الشرطة فيليب ماسوني، ورؤساء البروتوكول والمراسم من قصر الاليزيه ومن السفارة البريطانية، مع العديد من المديرين الأمنيين والملحقين الصحفيين، واجتمعوا ليقرروا كيف سيكون شكل تلك الأمسية، وكان السؤال الملح هو: كيف سيتم إخراج التابوت الذي يحمل جسد أميرة ويلز من المستشفى؟ ففي البداية كان من المفترض أن يخرج التابوت عبر سطح المستشفى عن طريق مهبط الطائرة الهيلكوبتر على السطح، ثم يتم نقلها إلى قاعدة فيلاكوبالي الجوية العسكرية في جنوب غرب باريس، ثم توضع بعد ذلك على متن طائرة عسكرية بريطانية لرحلة العودة إلى الوطن الأم.

ولكن الأمير تشارلز بنفسه أصر في اتصالاته الهاتفية المتكررة من اسكتلندا على أن تخرج ديانا من البهو الرئيسي للمستشفى، وكانت هناك حشود تقدر بالآلاف في باحة المستشفى، وقال الأمير تشارلز: «الناس يريدون رؤيتها، وحري بهم أن يحرصوا على ذلك»، وكان ذلك بمثابة طمأنة أفراد الشرطة الذين كانوا يخشون من أية محاولات لتهريب جسدها في السر أن يؤدي ذلك إلى حدوث هرج وشغب، وقال تشارلز: «لا يوجد سبب يجعلنا نتسلل بعيداً، يجب علينا أن نخرج بصورة طبيعية».

«أميرة القلوب» هكذا لُقبّت، دخلت حياة الأمير تشارلز ودخلت معها قلوب الملايين بسبب تواضعها، ولأنها تمثل مسابقة بورجوازية

وسط مجتمع طبقي تقبع على رأسه الأسرة المالكة، لكن النهاية مأساوية لبداية رومانسية، ففي آب/أغسطس عام 1997 ماتت هي وصديقها الحميم عماد الدين الفايد المعروف بدودي الفايد نجل رجل الأعمال البريطاني، المصري الأصل محمد الفايد في قلب العاصمة الفرنسية باريس، وقع الحادث المروع فماتت هي وصديقها وسط صدمة الكثيرين، ماتت لكن الجدل حول موتها لم يمت. ففي كانون الثاني/يناير عام 2006 وبعد نحو 9 سنوات أثارت تصريحات اللورد ستيفن الرئيس السابق لسكوتلنديار الذي يقود تحقيقاً بريطانياً في ملابسات وفاتها، أثارت جدلاً كبيراً خاصة بين أصحاب نظرية المؤامرة، يقول ستيفن: «إن التحقيق أثبت أنه أكثر تعقيداً مما اعتقده الكثيرون منا، وأنه استغرق وقتاً أكثر مما خططوا له، كما أن هناك شهوداً جدد وقد يكون من الصواب طرح بعض المسائل التي طرحها محمد الفايد».

ـ التحقيق في الحادث:

نحو تسع سنوات مضت على مقتل الأميرة ديانا ودودي الفايد في حادث سيارة في العاصمة الفرنسية باريس والتحقيق لا يزال مستمراً في ملابسات وفاتهما. هذه المرة التحقيق بريطانياً وليس فرنسياً، اللورد ستيفن الرئيس السابق للشرطة البريطانية أثار في تصريحات جديدة جدلاً ساخناً وموجة كبيرة من التكهنات خاصة بين أصحاب نظرية المؤامرة، وبينما ينتظر الكل نتائج التحقيق أكد الملياردير محمد الفايد في مقابلة حديثة على أنه يتوقع أن تنكشف فصول المؤامرة.

يقول رجل الأعمال محمد الفايد والد دودي: «الاستخبارات البريطانية تقول أن لا علاقة لها بهذا الأمر، هم يعتقدون أنهم أذكياء ولا يعتقدون أن كل ما فعلوه سوف ينفضح، والمسألة بدأت بالفعل تنكشف وهذا شيء واضح جداً».

ـ محاولة كشف ملابسات موت الأميرة ديانا:

تصريحات جاءت على طبق من ذهب للرجل الذي لم يُخْفِ عداءه للأسرة المالكة، والذي اتهم مراراً وتكراراً بعض أعضائها بجريمة قتل الأميرة ديانا، والسبب كما يقول أنها كانت على علاقة بابنه المصري المسلم محمد الفايد صاحب محلات «هارودز» الشهيرة في لندن الذي رغم شرائه درة التاج اللندنية هارودز دخل مع الحكومة البريطانية في جدل طويل ومعقد حول أحقيته في الجنسية البريطانية وما تلاها من مشاكل. البعض رأى في اتهاماته سخفاً، ورأى آخرون في كلامه دمعة حزن طغت على المنطق والقدر، لكنه مصمم على أن المسألة لعبة استخباراتية كبيرة تواطأت فيها أجهزة الاستخبارات الفرنسية والبريطانية. إصرار يجد له صدىً عند الكثيرين ممن يعشقون الأميرة الراحلة.

وأكد الفايد في مقابلة أجرتها معه صحافية أميركية أن تقرير جون ستيفن سيكشف كل الحقائق.

ويتابع محمد الفايد: «سيؤكد التقرير المقبل تماماً ما قلته من قبل، وهو أن السيارة البيضاء من نوع فيات أونو التي كان يقودها المصور المتخصص في ملاحقة كبار الشخصيات جيمس أندرسن والذي كان يعمل لحساب الاستخبارات الفرنسية هي السيارة التي

دفعت بالمرسيدس جانباً وأن الرجل الذي كان على الدراجة البخارية هو أيضاً عميل استخبارات استخدم ضوء الليزر الوهاج ليؤثر على رؤية السائق هوني بول، كما أن المصور جيمس أندرسن وجد فيما بعد مقتولاً وحُرق حياً في سيارته جنوبي فرنسا، لأنهم كانوا قلقين من إمكانية شرائه أو أن يروي قصته فقتلوه، وهذا جزء من سياستهم في التخلص من آثار الجريمة».

«أنا متفائل وأدعو الله أن يكون لدى اللورد ستيفن الشجاعة، أنا متأكد من ذلك ومن أنه سيفي بوعده بأن يكون منصفاً وأن لا يترك دليلاً إلا وينقّب عنه في بحثه عن الحقيقة، نحن نلتقي كل ما كان ذلك ضرورياً لأنه شخص مهني جداً، إذا أراد أن يتحقق من صحة المعلومات يتحقق منها مع رجال الأمن التابعين لي، وأعتقد وآمل أن يجد الحقيقة لأنه يعرف أن العامة من الناس ورائي، وقد أظهر آخر استطلاع رأي أن 94٪ من الناس العاديين في بريطانيا يعتقدون أنني أقول الحقيقة».

«سيصدر التقرير الفرنسي وبالتأكيد سيكون واضحاً لا لبس فيه، دم هنري بول ليس دمه بالتأكيد، إنها عينات حصل عليها عملاء إم آي سيكس الذين زاروا المشرحة ليلة الحادثة ليدعموا نظرية أنه كان ثملاً جداً وقت وقوع الحادثة، لقد أخذوا عينة دم لشخص آخر من شخص انتحر في دمه نسبة من أول أكسيد الكربون، كان ثملاً جداً لكي يقولوا أن هنري بول كان ثملاً، ولو كان الأمر كذلك فالأمن المرافق للأميرة ودودي ما كانوا ليسمحوا له أبداً بقيادة السيارة لو عرفوا أنه كان حقاً ثملاً، كل هذه العناصر جُمعت من أماكن عدة».

ويقول الخبير في شؤون الاستخبارات بول بيفر: «يمكنك أن تطرح فكرة أن سائق الدراجة النارية صوّب أشعة الليزر نحو أعين سائق السيارة، يمكنك أن تجادل بأن شخصاً ما في سيارة فيات أونو كان متورطاً في الحادث بسبب وجود آثار في حطام السيارة، كان يمكنه إبعاد السيارة عن الطريق، لكنك تتكلم عن سيارة مرسيدس من طراز إس فهي سيارة قوية بالمقارنة بالفيات أونو ذات الوزن الخفيف، لا يمكنني أن أصدق ذلك لكنه ممكن، لأنه لم يكن هناك أحد في موقع الحادث ليعرف باستثناء البابارازي والمصور، والمتبقي الوحيد على قيد الحياة هو الحارس، بالنسبة لي من الممكن تخطيط الحادث لكنني لا أصدق هذا، أنا لا أصدق نظرية المؤامرة، لكنني أصدق نظرية أخرى وهي لو شاء أن يقع شيء خطأ فسيقع، لقد كان السائق ثملاً وفقد السيطرة على سيارته».

في العام 1999 أصدر القضاء الفرنسي حكمه بأن موت الأميرة ديانا وصديقها دودي كان حادثاً عرضياً، وأن السائق هنري بول كان يتناول المشروبات الكحولية في فندق «الريتز» في باريس وكان ثملاً عندما قاد السيارة بسرعة فائقة، الخبراء الفرنسيون أيضاً أكدوا على أن السبب المباشر للحادثة هو السرعة الفائقة التي جعلت من الصعب السيطرة على السيارة، خاصة مع وجود سيارة الفيات أونو البيضاء على مدخل النفق، ومن ثم فهناك فرضية اصطدام سيارة الأميرة بالفيات أونو بعدما عُثر على آثار اللون الأبيض عليها، لكن الرواية الفرنسية لم تحسم المسألة بشكل نهائي، وهكذا بدت تصريحات اللورد ستيفنس الأخيرة كما لو أنها تحمل مفاجئة.

ويقول الصحفي عادل درويش: «لا شك أن هناك انتقادات وجهت لطريقة الفرنسيين في جمع الأدلة والاحتفاظ بها، لكن هذا لا يعني أن هناك مؤامرة وقعت، عموماً هناك أسئلة مفتوحة تركها تقرير اللورد ستيفنس لكنه في النهاية استبعد نظرية المؤامرة اللورد ستيفن من رجال سكوتلنديار التقليديين الذين ربما تشاهدهم في أفلام أغاثا كريستي، وهو من النوع الذي دائماً يستخدم عبارة يعني نترك كل المسألة مفتوحة لكل الأدلة، لأن أصعب شيء أن يُجرى تحقيق في مثل هذه الأمور وأن يُنهي القاضي التحقيق بنتائج قاطعة خاصة إذا كانت الأدلة كلها غير كاملة 100٪ فدائماً هذا النوع من التقارير يترك النهايات مفتوحة، بمعنى أنه إذا حدث اكتشاف أدلة جديدة، إذا جاء شهود جدد، إذا عُثر على السيارة التي كانت مختفية لا يمكن أن يلومه أحد، فهذا تقليد متبع في سكوتلنديار قديماً والمدرسة التي ينتمي إليها اللورد ستيفنس.

وتقول الصحفية في التلفزيون الفرنسي ميري بيير كورتيلونت: «أنا أعتقد أن ما قاله محمد الفايد بشأن عدم صحة التحقيق الرسمي الفرنسي غير حقيقي، إن مارتين قاضية معروفة جداً وهي مسؤولة عن البوليس القضائي، لقد تولى التحقيق كبار المحققين والضباط الذين هم محل ثقة ولهم سمعتهم، قد تعتقد أنني أدافع عنها لأنني على اتصال بها وهذا غير حقيقي، فرنسا هي بلد ديمقراطي، بلد مؤسسات، أنا لا أستطيع أن أصدق كل هذه الإدعاءات التي يصدرها محمد الفايد وهي غير مستندة على أدلة، هو مصاب بجنون الاضطهاد أو العظمة ويشعر بأن هناك نوعاً ما من مؤامرة عالمية، أنا لا أستطيع أن أصدق أن تكون مارتين مونتي جزءاً من

المؤامرة تهدف إلى إخفاء الأسباب الحقيقية التي أدت إلى موت ديانا».

الصحافي في «الديلي اكسبرس» هيو وتو يقول: «إن اللورد ستفين كان مفوض الشرطة البريطانية وكان قائد الشرطة في بريطانيا، أعتقد أنه محبط لأنه لم يجد إجابات على تلك الأسئلة. لقد أُخبرت بأن الفرنسيين لم يتعاونوا معه رغم أن بعض المصادر الأخرى تقول نعم هناك بعض الأشخاص يتعاونون معه الآن، لكنه محبط لأنه يريد إجابات بخصوص مسائل تتعلق بعينات الدم ونسب الكحول والمخدرات، وبخصوص الحمل وبخصوص طريقة الحفاظ على الجثث. الفرنسيون لم يساعدوا في تقديم المعلومات، لقد أعطت محكمة حقوق الإنسان الأوروبية في لاهاي مهلة محددة لهم حتى بداية شهر شباط/ فبراير كي يقدموا الإجابات، لكن الفرنسيين لم يمتثلوا للمهلة التي تأجلت حتى نيسان/ أبريل، إنهم يحاولون بصعوبة الحصول على الإجابات التي تطلبها المحكمة، هذا ما قيل لي».

ويتابع هيو وتو: «أعرف ما يعنيه محمد الفايد، إنه يعني أن الفرنسيين يريدون أن ينهوا الموضوع، فهو فقط سائق ثمل تورط في حادث سيارة. لكن هناك أشياء كثيرة حدثت، فالمدعو السائق الثمل لديه أموال كثيرة في حساباته المصرفية والتي لم يفسر وجودها أحد، إنه معروف أيضاً باتصالاته مع أجهزة الأمن. لقد تم ترويج فكرة أنه كان ثملاً وتعاطى مخدرات لدرجة أنه لا يمكن أن يمشي فكيف له أن يقود سيارة، ومع هذا فإن الحرس الخاص بالأميرة

ودودي سمحوا له بقيادة المرسيدس، وعندما حللوا عينات دمه قالوا إن أي رجل في حالته لا يمكن أن يمشي في خط مستقيم فكيف له أن يقود سيارة، محمد الفايد يقصد أن دم هنري بول تم استبداله في المشرحة. مرة أخرى هذه مسائل يتم التحقيق فيها الآن، للأسف، الفرنسيون لم يتمكنوا من توفير الإجابات».

ـ نظرية المؤامرة هل هي واردة؟

هنري بول نائب مدير أمن فندق الريتز في باريس سائق سيارة الأميرة مات ومعه مفتاح اللغز، فماذا فعل في الدقائق الأخيرة قبل وقوع الحادثة؟ سؤال محوري في كل تحقيق، الاختبارات والفحوصات طبقاً للرواية الفرنسية تؤكد على أن نسبة الكحول في الدم كانت أكثر من المعدل الطبيعي بثلاث مرات، كما أنه تناول أدوية تتعارض مع الكحول، لكن أصحاب نظرية المؤامرة يقولون إن تلك الفحوصات زُورت، ويتساءلون كيف لسائق ثمل إلى هذه الدرجة أن يعرف حتى مكان مقعده، وحتى لو عرف ألم يلحظ آخرون من حوله إن كان ثملاً أم لا؟

ثملاً كان أو مخدراً أم الاثنين معاً كان هنري وراء عجلة القيادة، اختارت ديانا ودودي الباب الخلفي لفندق «الريتز»، ليس هذا وحسب بل لم يركبا سيارتهما المعتادة مرسيدس 600 وبدلاً منها ركبا سيارة مرسيدس عادية من طراز 280 حتى لا يلفتا الانتباه. 19 دقيقة بعد منتصف الليل بدأت رحلة الموت.

وهنا يبرز السؤال الذي حيّر المحققين، لماذا سلكا الطريق الذي لم يكن طريقاً مباشراً نحو وجهتهما؟

- أولى نتائج التحقيق الأخير:

اللورد ستيفن: ظروف وفاة الأميرة ديانا أكثر تعقيداً مما تصورت، ومصادر لجنة التحقيق تصر على أن استنتاجات القاضي الفرنسي صحيحة.

قال اللورد ستيفن، مفوض جهاز شرطة لندن سابقاً والمحقق المسؤول عن ملف ظروف وفاة الأميرة ديانا في جهاز الشرطة البريطاني، إن التحقيقات أثبتت أن القضية أكثر تعقيداً مما تصور في بداية الأمر، مضيفاً أنه تعرف إلى شاهد جديد في القضية، وأن ما أثاره محمد الفايد من تساؤلات هي «في محلها». ويعتقد الكثير من المؤمنين بنظرية المؤامرة، كما ذكرت العديد من وسائل الإعلام البريطاني، أن ما ذكره اللورد ستيفن سيقوي وجهة النظر هذه، ويزيد من التأويلات، خاصة أن اللورد ستيفن لم يحدد بعد هذه القضايا التي يريد أن يتابعها في التحقيق.

وكان الفايد قد ادعى أن ابنه دودي وصديقته الأميرة الراحلة مطلّقة ولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز، هما ضحية مخطط اغتيال من قبل قصر باكنغهام والمخابرات البريطانية. ومما أشعل نار نظرية المؤامرة ما قيل من أن الأميرة كانت حاملاً وقت وقوع الحادث والوفاة.

وقال اللورد ستيفن في مقابلة من محطة تلفزيون «GMTV»، إن تحقيقاته كانت مفيدة، مضيفاً «إنه من الحق أن نقول إن ما أثاره الفايد كان في محله، وسنتقصى نحن كل ذلك. إن التحقيقات أثبتت أن القضية أعقد مما كنا نتصور». وكشفت صحيفة «ذي ديلي

تلغراف» أن اللورد ستيفنسنز كان قد التقى مع ولي العهد البريطاني الأمير تشارلز، كجزء من عمل لجنة التحقيق. وقالت الصحيفة إن بعض مصادر لجنة التحقيق التابعة للشرطة اسكوتلانديارد تصر على أن ما خلصت إليه تحقيقات القاضي الفرنسي في الحادث كانت مصيبة، وأن حادث السيارة في النفق الباريسي، كان وراء وفاة الأميرة ودودي الفايد بسبب فقدان سيطرة السائق هنري بول على السيارة تحت تأثير الكحول.

ـ رحلة الموت مع سائق ثمل:

بول بيفر: «السائق كان ثملاً. لقد أراد أن يأخذ طريقاً بديلاً، فسائقو الشخصيات المدربون على العمل مع الشخصيات المهمة لا يتبعون الطرق الرئيسية أبداً، وهم مدربون أيضاً على القيادة بطرق دفاعية فنية، لو أراد دودي وديانا الذهاب إلى مكان سري فلن يأخذا طريقاً مباشراً، لقد أخبراه بالتأكيد أن يتبع طريقاً دائرياً. ليست هناك مؤامرة».

ويتابع بول بيفر: «هناك اتهامات بأن الحادثة محاولة اغتيال عادية من قبل جهاز الاستخبارات البريطانية إم أي سيكس، بصراحة أنا لا أعتقد أن إم أي سيكس تعمل في مجال الاغتيالات، ولا أصدق فكرة يطرحها شخص عميل في إم أي سيكس يحاول أن يبيع كتاباً، لقد كتب كتاباً عن حياته وقدم اتهامات يقول فيها إن أسلوب الاغتيالات هذا أسلوب معروف، وأنهم كانوا سيستخدمونها مع ميلوسوفيتش. أنا لا أصدق هذا، هناك أوقات تتورط فيها أجهزة الاستخبارات في قتل الناس لكن يجب أن تعرف أن هذا شيء كبير

ورئيسي أن نقول أن جهاز الاستخبارات البريطانية والفرنسية تعاونا معاً لفعل هذا. إنه شيء غير قانوني وغير دستوري أيضاً ولم يُسمع عنه باستثناء أوقات الحروب وضد أعداء الدولة، ولم تكن ديانا عدوة الدولة».

هيو وتو: «حصلنا على تلك التقارير الخاصة بالليزر وكل هذه الاقتراحات جاءت من اتصالات بعملاء استخبارات بريطانيين إم أي سيكس كريتشارد تومسون الذي ادعى أن طريقة مماثلة كانت جزءاً من خطة اغتيال ميلوسوفيتش، لقد أخبرنا مصدر لنا في وكالة الاستخبارات بأن أجهزة الاستخبارات لديها مثل هذه الخطط».

ميري بيير كورتيلونت: «محمد الفايد فقد ابنه وهذا أصعب شيء على أي إنسان، نحن نتفهم حزنه ونتفهم أنه سيواصل معركته ليبرهن أن ابنه قتل كجزء من مؤامرة، لقد وضع الفايد كل آماله في ابنه، لم يكن دودي رجل أعمال بحق، وفجأة رأى الفايد ابنه دودي والأميرة ديانا معاً، واحتمال أن يكون والد طفلها، هذا شيء عظيم بالنسبة له، فعندما بدأ دودي وديانا مواعدة بعضهما البعض كان هذا بالنسبة له شيء هام من الناحية النفسية والمعنوية، ولهذا السبب سيحاول دائماً أن يثبت أن موت ابنه كان نتيجة مؤامرة».

إن الشاهد الوحيد الذي بقي على قيد الحياة الحارس الخاص فيفر ريس جويس. كان هو أمل محمد الفايد في معرفة الحقيقة، فبعد أن فقد ذاكرته عالجه الفايد على نفقاته الخاصة، لكنه غيّر من أقواله تحت ضغوط أجهزة الأمن كما يقول الفايد: «لم يكن جزءاً من المؤامرة لكنه انقلب عليّ. لقد كان في السيارة ويعلم كيف سُدّ

الطريق أمام المرسيدس، ولماذا لم تذهب إلى الشانزليزيه، يعلم أيضاً عن الدراجة البخارية التي كانت خلفهما، وعن الضوء الوهاج الذي أصاب السائق وهو نفسه بالعمى. لقد اعتنيت به نهاراً وليلاً عندما كان في المستشفى، أحضرت له فريقاً خاصاً من جراحي التجميل للعناية بوجهه، ستة شهور نهاراً وليلاً، أصلاً هم يريدون قتله لأنه الوحيد الذي يمكن أن يقول الحقيقة، هناك حراسة أمنية متواصلة عليه، 24 ساعة مع أطباء نفسيين يعالجونه لمدة شهرين أو 3 ويعيدونه إلى حالته الطبيعية. لقد أخبرني تماماً بما حدث، ثم بدأ يتحدث إلى صحيفة «الديلي ميرور» المعروفة، في اللحظة التي رأت فيها أجهزة الأمن أن الرجل بدأ يتكلم ذهبوا إليه دون علمي من خلال آخرين وجعلوه ينقلب ضدي، ثم عينوه نائب مدير أمن تابع للأمم المتحدة في جزيرة تيمور ودفعوا له أموالاً طائلة».

التحقيق البريطاني الجديد الذي بدأ عام 2004 ألهب حماس أصحاب نظرية المؤامرة، ذهب المحققون إلى موقع الحادث بحثاً عن أدلة جديدة خاصة بعدما نُشر خطاب للأميرة الراحلة كتبته قبل عشرة أشهر من وفاتها، تحكي فيه كيف تتوقع هي أن يتم التخلص منها، بول بوريل كبير خدم الأميرة ديانا فجّر قنبلة جديدة عندما نشر خطابها هذا الذي تقول الأميرة الراحلة فيه «إن زوجي يخطط لقتلي عن طريق حادث سيارة، فشل في المكابح وإصابة خطيرة»، وبينما ذكرت صحيفة «الديلي ميرور» أن الرجل المقصود هو الأمير تشارلز اعتبر كبار المحققين هذا الكلام سخيفاً، لكن بين هذا وذاك يصّر رجل الأعمال المصري الأصل على أن العقل المدبر هو زوج الملكة.

ويتابع محمد الفايد: «لقد حصلت الأميرة ديانا على خطاب تهديد من الأمير، وهذه الخطابات في حيازة سكوتلنديار وأنا متأكد 100٪ أن سكوتلنديار واللورد ستيفن سيعرفون جيداً من هو المسؤول لو وضعت كل هذه الخيوط أمامهم. أيضاً ما قالته ديانا في خطاباتها أنها مهددة وتعرف بأنها ستموت يوماً ما في حادثة سيارة، الأمر واضح لا لبس فيه. لا أعتقد أن الأمير تشارلز لديه السلطة لكن والده هو الذي نفذ هذه الجريمة الشنعاء، هل تعتقد أنه سيقبل بأن يكون ابني الذي هو من جنسية مختلفة وبشرة مختلفة جدّ الملك المقبل؟ لا يعقل هذا».

ـ فرضية حمل الأميرة ديانا من دودي الفايد:

فرضية الحمل أثارت جدلاً لكنها لم تثبت حتى الآن، رغم أن الفايد يؤكد على ذلك ويُصّر عليه.

محمد الفايد: «لقد كانت الأميرة ديانا حاملاً بالتأكيد لأني أعرف ذلك، فقد أخبراني قبل وفاتها أنها حامل، كانا سيعلنان خطوبتهما، اشترى دودي لها خاتم الخطوبة، لقد كانت الأمور تسير على ما يرام، فبعد كل معاناتها وجدت السعادة».

ويقول الصحافي عادل درويش: «أولاً، لم يثبت حتى الآن إن كانت الأميرة ديانا حاملاً أم لا، ثانياً، لا نعرف ما إذا كانت ستعتنق الإسلام أم لا، ثالثاً، حسب معرفتي بالمرحوم دودي عماد الدين فايد أنه لم يكن متديناً بهذا الشكل الكبير الذي يشترط على زوجته أن تكون مسلمة، رابعاً، يجب أن نضع المسألة في أن نظرية المؤامرة عادة تبيع الصحف، وفي الوقت نفسه بسبب الاهتزاز

العاطفي الذي تعرض له محمد الفايد ونرجو أن لا يتعرض أحد لمثل هذا الاهتزاز العاطفي، أعتقد أن هذا لون حكمه على المسألة».

ميري بيير كورتيلونت: «يقول محمد الفايد إن ديانا اغتيلت لأنها كانت تحمل طفلاً من رجل مسلم وهذا يزعج الأسرة الإنجليزية الحاكمة، إنه بذلك يضع الكثير من التكهنات معاً ولكن أين الدليل؟ لو نظرنا إلى موتها ونظرنا إلى الناس الذي يهمهم موتها لا يعني أنه يمكن الربط بين الاثنين، لا يمكننا أن نكون مغالين، هناك أجزاء من اللغز، من الممكن أن توجد أدلة جديدة طيلة الوقت، لكن لا يمكن أن تعيش في وهم الشعور بالاضطهاد، لا يمكن أبداً أن تتورط فرنسا في مثل هذه الفضيحة، مستحيل».

لكن المستحيل بعينه هو أن يصدق محمد الفايد هذا الكلام، خاصة بعدما اكتشف أن جسد الأميرة الراحلة تم حفظه في باريس قبل أن يتم الفحص الدقيق والمفترض في بريطانيا، بينما نفى أصدقاء الأميرة والطبيب الشرعي الذي كان يعمل للأسرة المالكة والذي كان موجوداً أثناء فحص الجثة بعد الوفاة نفوا جميعاً رواية حمل الأميرة، يعتقد البعض أن الأمر ليس بهذه البساطة، وأن أسئلة كثيرة أثيرت حول طريقة حفظ الجثة في باريس.

هيو وتو: «كان هناك حديث عن طريقة تحنيط الجثة بشكل مؤقت للتغطية على أي حمل، مرة أخرى لا أعرف إن كان هذا صحيحاً، لكن هذه الأشياء يتم التحقيق فيها. وتقول مصادر موثوقة إن هناك الكثير من الصدق في هذه الرواية، ولكن إذا كان اللورد

ستيفن الذي يحقق منذ عدة سنوات في هذا الموضوع لم يستطع تقديم إجابات فلا بد أن تكون هناك مشكلة في مكان ما، ويبدو أن التحقيق سيستغرق وقتاً أطول وليس أقصر، ولكن من التقارير التي تصلنا والتحريات التي نجريها نعرف بأنه كانت هناك أوامر لحفظ الجثة خلال ساعات من موتها، وهذا مخالف للقانون الفرنسي وتم الحصول على الموافقة، علينا أن ننتظر ونرى لو تم حفظ الجثة بهذه الطريقة فهذا ضد القانون، وهذا يعني أسئلة كثيرة في حاجة إلى إجابات».

محمد الفايد: «كيف يحفظون أو يحنطون جثتها؟ كيف يأخذون دمها كله قبل أن تأتي إلى لندن من أجل فحص الجثة؟ هذه جريمة في فرنسا، لأنه لو قتل أحد في حادثة فهم يحتاجون إلى فحص جثته، وهذا الفحص سيتم هنا في لندن، إن رحلة الطيران هي فقط 45 دقيقة أو ساعة، ما سبب ذلك؟ من الذي أصدر الأوامر؟ القصر الملكي».

رغم نفوذ وقوة الإعلام البريطاني وخبرته في تقصّي مثل تلك القضايا، فإن قضية ديانا ودودي الفايد لا تزال صعبة الغور، ولا يزال كثيرون من الخبراء والمختصين والساسة يخشون حتى الحديث عن الموضوع.

هيو وتو: «لا شك أن ديانا هي أشهر شخص في العالم وأكثرهم تصويراً، ويجب عليك أن تكون في لندن لترى الناس وهم يضعون أكاليل الزهور والشموع في قصر باكنغهام، لقد تورطت الصحافة في هذا الموضوع لأنها كانت دائماً على

الصفحات الأولى على كل الصحف المحلية ليس فقط في بريطانيا بل أيضاً في العالم كله، وكل تلفزيونات العالم في تلك الليلة كانت تريد أن تعرف ما الذي حدث، ليس هناك من شخص واحد ممن يتصلون بنا يعتقد أنها كانت مجرد حادثة مروعة، بل يعتقدون أنه كان هناك شيء ما يدبر وراء الكواليس، وأفترض لأنها كانت مشهورة جداً علينا أن نبذل كل جهودنا من أجل الجميع، بسبب ديانا يجب أن نكشف الحقيقة، اكتشاف الحقيقة ليس عمل الصحف لكنها عمل اللورد ستيفن، لكننا سنبرزها لأن الناس يتوقعون هذا منا».

المسألة تتعلق بثلاث قضايا، القضية الأولى أن ديانا وقصتها دائماً سواء حية أو ميتة ترفع من نسبة مبيع الصحف أكثر من أي قضية أخرى. القضية الثانية هو التنافس بين الصحف وبعضها البعض، وفي هذا الإطار أيضاً علاقة هذه الصحف سواء بمحمد الفايد أو كراهيتها لمحمد الفايد، علاقاتها بتوني بلير أو كراهيتها لتوني بلير. تبقى القضية الثالثة، وهي العداء التقليدي في الصحافة الشعبية البريطانية بين إنجلترا وفرنسا، وبالتالي، ما من شيء يشوه صورة الفرنسيين إلا ويروق لمجموعة الأكسبرس، سواء كان الفرنسيون عاجزين عن حماية الأميرة، أو ضالعين في المؤامرة، أو مهملين في إبلاغ الحقائق إلى الشرطة البريطانية.

ماذا لو جاء تقرير اللورد ستيفن مماثلاً للتقرير الفرنسي واعتبر ما حدث للأميرة وصديقها حادث سير؟ هل سيغلق الملف إلى الأبد؟ ولماذا فعلاً لا تكون هذه هي الحقيقة؟

محمد الفايد: «لا يمكن أن يقول اللورد ستيفن إنها مجرد حادثة، أنا متأكد أنه لن يقول ذلك أبداً، إنه مهتم ويتابع كل شيء بنفسه، إنه يعود إلى أجهزة الاستخبارات إم أي سيكس لأن 3 من عملاء الاستخبارات تورطوا في جريمة القتل، وخططوا لها، لقد اعتقلوا في أثينا وهم يخططون لعملية الخطف. هم من التابعية الباكستانية ويقولون إنهم من الاستخبارات الأميركية «سي أي إيه»، ثلاثة منهم اعتقلتهم الحكومة اليونانية وذكرت أسماءهم، الثلاثة عملاء للاستخبارات البريطانية، هؤلاء هم الأشخاص أنفسهم الذين كانوا في باريس والذين نفذوا وخططوا للجريمة ولدى اللورد ستيفن هذه المعلومة.

هيو وتو: «كل ما نعرفه أن المؤامرات تسحر الناس، عليك فقط أن تفكر في كيندي والمؤامرة التي دارت حول البابا من قبل إطلاق النار عليه في الثمانينات، مهما كانت الإجابات، فالناس قد لا يصدقونها بالضرورة، بصرف النظر عن القرار نفسه، يمكنني أن أخبرك من خلال الخطابات والمكالمات التي تصلنا هنا في الصحيفة أن الناس دائماً تحب المؤامرة الجيدة، وهذه أكبر مؤامرة في التاريخ الحديث».

ميري بيير كورتيلونت: «فقط مثل قضية جون كيندي ستكون هناك دائماً علامات استفهام وأشياء غير واضحة، وسيكون هناك دائماً غموض يحيط بموت ديانا، فقد كانت أسطورة ولهذا السبب أنت تطرح عليّ هذه الأسئلة الآن، إن هذا لغز ولن يفك أحد كل طلاسمه لأن بصراحة كان القدر هو الذي أدى إلى موتها، ولا يمكننا

أن نقول إنه فقط وبسبب مشاكل الأميرة ديانا مع العائلة الملكية قامت الأخيرة بقتل ديانا أو دبرت عملية قتلها».

في النهاية لقد ذهب الذي ذهب لكن الأمل لا يزال يحدو محمد الفايد في أن يؤكد تقرير صحة كلامه، ويكشف مؤامرة راحت ضحيتها أميرة القلوب معشوقة الملايين وابن غاب عن والده وهو في ريعان الشباب، حتى يكتشف الحقيقة سيحمل آلامه ودموعه ويواصل البحث عنها.

وكما يقول محمد الفايد: «أن تأخذوا دودي مني هذا أمر غير ممكن، لا يمكن أن أشفى حتى أكشف للعالم كله وللناس أنهم عصابات، أتمنى أن ينال الأمير فيليب عقوبته وسيكون الله قاسياً في عقابه».

القضاة الأربعة
حسن عثمان، عماد شهاب، وليد هرموش، عصام أبو ضاهر
(1999)

في الثامن من حزيران/ يونيو عام 1999 وقع هجوم مسلح على مقر قصر العدل في مدينة صيدا أدى إلى اغتيال القضاة الأربعة حسن عثمان وعماد شهاب ووليد هرموش وعصام أبو ضاهر.

كان المسلحون من الجنسية الفلسطينية، وقد فروا في اتجاه مخيم عين الحلوة. ولم تتمكن الأجهزة الأمنية من القبض عليهم، مع أن أصابع الاتهام وُجهت آنذاك إلى أبو محجن وتنظيمه الأصولي «عصبة الأنصار».

عُيّن القاضي منيف عويدات محققاً عدلياً في الجريمة وادعى النائب العام العدلي عدنان عضوم بموجب ورقة طلب على كل من يظهرهم التحقيق. وأعلن الوزير سمير الجسر أن التحقيق توصل إلى كشف الجهة التي تقف وراء عملية الاغتيال إلاّ أنه لم يتوصل إلى كشف المنفذين. وقالت الحكومة في ردها على استجواب النواب

حول «الفلتان الأمني» إن النيابة العامة التمييزية أفادت أن التحقيقات القضائية أظهرت أن عناصر «عصبة الأنصار» التابعة لـ «أبو محجن» تقف وراء عملية الاغتيال، إلاّ أنه لا يمكن الجزم في الموضوع وتحديد هوية الفاعلين الذين نفذوا العملية.

وصرح الرئيس سليم الحص، رئيس الوزراء اللبناني وقتئذٍ، أن هناك ثمة خيوطاً تجمعت ستساعد على كشف الجناة، وأضاف جملة صاعقة: «بأي حال لا يمكن تبرئة العدو الإسرائيلي!». وقد سقطت العبارة على أسماع الكثيرين في تلك الفترة كمؤشر على انتهاء الأمر عند هذا الحد. إذ أنه حالما يتم تعليق المشكلة في رقبة العدو الإسرائيلي فإن ذلك يعني أن الجناة لن يتم كشفهم أبداً.

وبعد مرور أكثر من خمس سنوات، فشلت الدولة اللبنانية في ملاحقة الخيوط وفي القبض على القتلة، لكنها شيدت في نهاية العام 2004 مبنىً جديداً لقصر العدل في صيدا أطلقت على 4 قاعات فيه أسماء القضاة المقتولين.

ولنا أن نتخيل المفارقة القاسية: أن الدولة بدلاً من أن تقتص من قتلة القضاة الذين ماتوا وهم يؤدون عملهم، والذين كانوا يقومون بالاقتصاص للمواطنين ممن يتعدى عليهم، اكتفت بتعليق لوحات بأسمائهم على مجموعة من الغرف.

عبد القادر حشّاني

(1955 - 1999)

كشف مسؤولون في جبهة الإنقاذ الإسلامية الجزائرية عن أن اغتيال الرجل الثالث في الجبهة عبد القادر حشّاني جاء بسبب مواقفه المعارضة لمشروع الوئام الوطني الحكومي، وأن بعض عناصر الجبهة الذين رفضوا هذا المشروع الذي طرقه الرئيس بوتفليقة قد لقوا نفس المصير خلال الأيام القليلة الماضية، بيد أنهم لم يذكروا أسماء محددة وقالوا: إن هذا الاغتيال يأتي في ظرف تشهد فيه الجزائر عودة قوية لأعمال العنف والتقتيل، راح ضحيتها خلال الأسبوع الأخير فقط خمسون شخصاً.

وأشاروا إلى أن حشّاني كان قد طالب الرئيس بوتفليقة بحلّ سياسي عادل وشامل لا يستثني أحداً من حقّ العمل السياسي، كما دعاه إلى الإفراج عن المعتقلين السياسيين. وقد عبّر خلال الأسابيع القليلة قبل اغتياله عن قلقه من النهج الذي تسلكه سلطات بلاده، من خلال حرصها على فرض سلم بطريقتها الخاصة. وقال «إنهم يريدون منا أن نصمت ونخضع، هذه هي البضاعة التي تقدمها لنا السلطات». كما عبّر مراراً عن رفضه الشديد لمحاولة الرئيس

بوتفليقة إبعاد الجبهة الإسلامية للإنقاذ عن العمل السياسي. وأشاروا إلى أن حشّاني استُدعي قبل ثلاثة أسابيع من قبل أجهزة الأمن، وقيل: إنهم حاولوا تغيير موقفه من «قانون الوئام المدني». كما عبّر لأصدقائه عن قلقه من المتابعة الأمنية التي يتعرض لها.

وقد اتهم أحمد الزاوي ـ الناطق باسم لجنة التنسيق لجبهة الإنقاذ ـ الحكومة الجزائرية بالمسؤولية عن الاغتيال، وقال: «لا يعقل أن يغتال الشهيد في وضح النهار تحت أعين حراسه من أجهزة المخابرات. وحمّل الزاوي السلطات الجزائرية جنرالات ورئيساً مسؤولية الجريمة النكراء التي لا يسقطها الاستنكار الصوري لبوتفليقة».

ويجمع المراقبون في الجزائر على أن المستهدف الأول من عملية الاغتيال هي المصالحة الوطنية التي أظهرت أن جبهة الإنقاذ ما زالت تحتفظ بحضور واسع وكبير في أوساط الشعب الجزائري. كما أنها استهدفت رجلاً تجتمع فيه عناصر القيادة الناجحة، ومحاوراً كفؤاً رفض العنف بشدة، لكنه لا يساوم في مبادئه. ويصعب أن تمرّ عملية الاغتيال بسهولة، دون أن تؤثر على مسار الحوار السياسي الذي تشهده البلاد. وسيحتاج الحفاظ على درجة من الثقة بين السلطات وجبهة الإنقاذ إلى إجراءات عملية تبعد بعض المخاوف القائمة، وهو ما يصعب على الرئيس بوتفليقة تقديمه حالياً. لكن عدة أصوات من داخل الجبهة وخارجها تلحّ على ضرورة تفويت الفرصة على أعداء المصالحة الوطنية سواء داخل النظام أو خارجه.

وكان حشّاني يلحّ منذ مدة على ضرورة الحوار السياسي لحل أزمة الجزائر، ويؤكد في تصريحاته ولمن يلتقيهم ويتصل بهم على أن الحوار السياسي يكون بين السياسيين وليس مع العسكر.

ويعتبر عبد القادر حشّاني مهندس الهدنة التي تمّت بين الجيش الإسلامي للإنقاذ وسلطات البلاد قبل عام واحد. وقد بذل جهوداً كبيرة من أجل توسيع دائرتها لتشمل أكبر عدد من المسلحين الإسلاميين الذين يقاتلون القوات النظامية. لكن جهوده اصطدمت بمتشددي الجماعات المسلحة، وجنرالات الجيش الذين يوصفون بالاستئصاليين. ويقول قريبون منه: إنه كان يعدّ خلال الأسابيع الماضية لمبادرة سياسية هامة يمكن أن تساعد في تحريك مسلسل المصالحة الوطنية الذي بدأ يفقد بريقه، وقام باتصالات شملت عدداً هاماً من السياسيين وقيادات الجبهة في العاصمة وعدة مدن جزائرية.

ـ من هو حشّاني؟:

عبد القادر حشّاني يبلغ من العمر 44 عاماً، عمل مهندس بتروكيماويات في الشركة الوطنية للمحروقات «سوناتراك» مدة عشر سنوات. كان من مؤسسي الجبهة الإسلامية للإنقاذ عام 1989. وتولّى قيادة الجبهة برئاسة مكتبها التنفيذي المؤقّت، إثر اعتقال عباسي مدني وعلي بلحاج في حزيران/ يونيو 1991، وقادها في الانتخابات التشريعية التي جرت في كانون الأول/ ديسمبر من نفس السنة، وفازت فيها بأكبر حصة من النواب. وحوكم في كانون الثاني/ يناير 1992 بتهمة دعوة الجيش إلى العصيان، عندما أصدر

باسم الجبهة بياناً دعا فيه القوات المسلحة إلى عدم تنفيذ ما يأتيها من قرارات تناقض خيارات الشعب الجزائري. وظل في معتقل سركاجي بالعاصمة خمس سنوات إلى أن حوكم عام 1997، وصدر ضده حكم بالمدة التي قضاها. وقد تعرّض معتقل سركاجي عام 1995 لمذبحة راح ضحيتها نحو مائة شخص من نزلائه، على إثر تمرد قاموا به، وأشيع أن عبد القادر حشّاني كان من بين الضحايا. وخرج الرجل من المعتقل عام 1997 ليواصل جهوده السلمية في حقن دماء الجزائريين. وقاد حشّاني مع من أفرج عنهم من قادة جبهة الإنقاذ حواراً داخلياً ومفاوضات مع سلطات البلاد توّجت بالهدنة التي تمّت مع الجيش الإسلامي للإنقاذ عام 1998.

- ردود الفعل على جريمة الاغتيال:

استنكرت مختلف الأحزاب والفعاليات السياسية الجزائرية جريمة الاغتيال، وأجمعت على إعتبارها موجّهة لجهود المصالحة الوطنية.

وقد أدانت مختلف الفعاليات السياسية الجزائرية والإقليمية والدولية، عملية الاغتيال، واعتبرتها موجهة إلى جهود المصالحة الوطنية التي بدأها الرئيس بوتفليقة قبل سبعة أشهر.

وقال عبد العزيز بلخادم - الرئيس السابق للبرلمان الجزائري - ورئيس لجنة السلام والمصالحة الوطنية، بأنّ الاغتيال كارثة لن تزيد الأزمة إلا تعقيداً. قال عبد الله جاب الله رئيس حركة الإصلاح، إن ما حصل يعرقل الجهود المبذولة من أجل المصالحة. وحمّل رابح

كبير الناطق باسم الجبهة في الخارج، سلطات بلاده مسؤولية ما حصل، لعدم توفير الحماية الكافية للشيخ حشّاني.

ونددت جبهة القوى الإشتراكية التي يرأسها آيت حسين أحمد بشدة بهذا الاغتيال الذي استهدف رجل سياسة وحوار دعم بدون أي لبس جميع خطوات التسوية لإحلال السلام وتحقيق المصالحة الوطنية.

وأضافت أن هذه التصفية السياسية دمرت فعلياً جسور المصالحة موضحة أن هذا الأمر لا يصب إلا في مصلحة أصحاب إستراتيجية الأرض المحروقة ودفع البلاد إلى الجحيم.

أما حركة الوفاء التي يتزعمها وزير الخارجية السابق أحمد طالب الإبراهيمي فقد اعتبرت أن «هذا العمل الجبان يحاول إخراس الأصوات المعارضة لسياسة الاستئصال والتهميش» مشيرة مع ذلك إلى «مسؤولية السلطة في حماية الأشخاص والممتلكات».

واعتبرت الرابطة الجزائرية للدفاع عن حقوق الإنسان التي يرأسها المحامي عبد النور علي يحيى أن «هذه الجريمة أذهلت جميع الذين يناضلون من أجل سلام دائم ومصالحة وطنية حقيقية اللتين كرس لهما حشّاني تفكيره وقلبه حتى الرمق الأخير».

ونددت جبهة التحرير الوطني بـ «مرتكبي هذا الاغتيال الذين استهدفوا ضرب خطوة الرئيس وإرادة الشعب في تحقيق الوئام المدني».

أما حركة النهضة الإسلامية فاعتبرت أن «اللجوء إلى تصفية

الرموز السياسية التي تزامنت مع التطورات الأخيرة المتعلقة بالوضع الأمني يمكن أن تنبئ بعودة مرحلة إراقة الدماء وذرف الدموع».

وقال حزب «العمال»: «إن الاعتداء على حشّاني عمل تحريضي، لأنه استهدف مسؤولاً سياسياً له مواقف معروفة عن طبيعة الحل الذي يجب أن يطبق».

ومن جهتها اعتبرت حركة مجتمع السلم الإسلامية أن هذا الاعتداء «يهدف إلى إثارة حالة أزمة وفوضى». في حين قالت حركة المواطنين اليسارية: إن «هذا العمل سيساعد الإرهابيين على إعادة الانتشار من خلال قتل إحدى الشخصيات الأفضل موقعاً للتفاوض باسمهم».

وأخيراً نددت أيضاً حركة الإصلاح الوطني الإسلامية بـ «العمل الجبان الذي لن يؤدي إلا إلى زيادة الأمور تعقيداً» وهو من صنع «أعداء المصالحة الوطنية والوئام المدني».

اتهم الدبلوماسي الجزائري السابق محمد العربي زيتوت جهات في المخابرات العسكرية الجزائرية بالوقوف وراء عملية الاغتيال التي تعرض لها الشيخ عبد القادر حشّاني - الرجل الثالث في الجبهة الإسلامية للإنقاذ - يوم الاثنين في الجزائر بتاريخ 22/ 10/ 1999م، وفارق الحياة على إثرها في مستشفى مايو في حي باب الوادي الشعبي.

وقال زيتوت في تصريح صحافي: إن الشيخ حشّاني تعرض لمساومات كثيرة في الفترة الأخيرة، وأنه استُدعي قبل أسبوعين من اغتياله إلى أحد مراكز الشرطة على أساس أنهم يحتاجونه

لمراجعتهم في أمر يخصه، إلا أنه فوجئ في مكتب قائد مركز الشرطة بوجود مبعوثين من الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، أبلغاه أن الرئيس ممتعض من مواقفه، وأنه لا يرى لها مبرراً، إذ كيف يقبل الجميع بخطط الرئيس في حين يعارضها حشّاني؟ كما قيل له من قبل الوسطاء. وأضاف زيتوت قائلاً: إن الشيخ حشّاني ذكر للمبعوثين أنه يرى أن ما يجري في الجزائر لا يمثل مصالحة، وإنما حلاً أمنياً لمشكلة سياسية، وإن هذا لا يخدم الجزائر، فقال له المبعوثان: إنهما سيبلغان الرئيس بمواقفه، وبعد يومين أو ثلاثة استُدعي حشّاني - يضيف زيتوت - إلى نفس مركز الشرطة حيث أبلغه المبعوثان أن الرئيس بوتفليقة يطلب منه تغيير أفكاره، باعتبار أن الزمن تجاوزها.

وقال زيتوت: إنه بعد ذلك صارت أربع سيارات تابعة للشرطة تلاحق الشيخ حشّاني حيثما ذهب بعد أن كانت تتبعه سيارة واحدة فيها ثلاثة أشخاص من المخابرات، إلى درجة لم يعد بإمكانه أن يكلم أي أحد أو يقترب من أي شخص وخاصة في الأسبوعين الأخيرين.

وقال زيتوت: إن الشيخ حشّاني أبلغه قبل أسبوعين في حديث هاتفي أنه عرضت عليه مغريات كثيرة لإسكاته، إذ عرض عليه إعطاؤه مسكناً فخماً في حي حيدرة الراقي في الجزائر وسيارة فاخرة. وقال زيتوت: إن الذي قدم العرض للشيخ حشّاني بالنيابة عن المخابرات الجزائرية برلماني جزائري يدّعي أنه إسلامي، ولكنه - يضيف زيتوت - إسلامي تديره المخابرات. ورفض الدبلوماسي

الجزائري السابق الكشف الآن عن اسم النائب، وقال: إنه مستعد لكشفه في إطار تحقيق شامل لكشف ملابسات عملية الاغتيال.

وقال زيتوت: إن النائب المذكور قال للشيخ حشّاني: إن رئيس المخابرات يقول لك: أنت شخصية وطنية تحظى بالاحترام، وإن الدولة لا تريد التصادم معك، وإننا نريد منك أن تتفهمنا كما نتفهمك. ثم عرض عليه مفاتيح المسكن والسيارة، فلما رفض الشيخ حشّاني المساومة ـ يضيف زيتوت ـ لجأت المخابرات العسكرية إلى الحل الأخير، وهو التصفية الجسدية.

وقال زيتوت: إن قتل الشيخ حشّاني يعتبر أمراً محل إجماع داخل الأجنحة المتصارعة في أجهزة السلطة، لأنه يعتبر محل شرعية شعبية وتاريخية قل نظيرها، فهو الذي قاد الجبهة الإسلامية للإنقاذ للفوز في انتخابات كانون الأول/ ديسمبر 1991، ولو كانت الانتخابات تُحترم لتم تعيينه رئيساً للحكومة في الجزائر ـ حسب قوله ـ.

وكانت آخر رسالة بعث بها حشّاني إلى الرئيس عبد العزيز بوتفليقة في شهر آب/ أغسطس 1999 قد أظهرت موقفه الواضح من قانون الوئام المدني، وجاء في الرسالة: «أظن أنكم قصدتم في بعض تصريحاتكم الإعلامية ـ كما ألمحتم في بعض مجالسكم ـ إلى أنكم تنتظرون منا الإفصاح عن رأينا بشأن مسعاكم في الوئام المدني. وكنت أود أن يكون ذلك محل حوار صريح مباشر، أعتقد أنه لا غنى عنه مع كل الأطراف لمن أراد الإصلاح بالعدل، ولذلك لم أتردد ـ بمشورة أهل الرأي من إخواني ـ في قبول مبادرة من

سعى من أصدقائكم لعقد لقاء لنا معكم قبل الانتخابات الرئاسية وبعدها».

وأضافت الرسالة: «لا يفوتنا مع ذلك في هذه المراسلة بيان رأينا في هذا الأمر الجليل ـ أمر المصالحة الوطنية ـ الذي أحيا ذكره الآمال العريضة، وأثار اهتمام دعاة الصلح والسلم، وحرّك أهل العلم والنصح، فإذا كان شعار الحوار الوطني والوفاق الوطني قد هوى عندما تبناه من أفرغه من محتواه، وجعله «كلمة حق أريد بها باطل»، فإن السلم والمصالحة الوطنية لم يتهيأ لها من أسباب النجاح مثلما تهيأ لها في هذه السنة الثامنة من عمر الأزمة، متى ما سمت الهمم، وصحت العزائم، واستبقت الإجراءات، ذلك أن العجز السياسي هو الذي فتح على الأمة باب القمع والاقتتال، وهو الذي سد عليها سبل الخروج من الأزمة.

إن حقن دماء الجزائريين والإصلاح بينهم هو أول واجبات الأمة، ولا يحق لأحد أن يتخلف عن هذا الواجب، أو يقدم عليه نيل المطالب والمكاسب. إن طي صفحة العنف الأليمة من تاريخها يجب أن يسمو فوق مآرب الهيمنة والاستئثار، وأن يفتح فيه المجال لكل قوى الإصلاح في المجتمع دون إقصاء. إن العنف ـ مهما كانت أشكاله وأطرافه ـ يجب أن يولي عن ديارنا، حاملاً معه ما جره من المعاناة على ضحاياه، وما ترتب عنه من القيود على الحريات الفردية والجماعية. إن الآمال تعلقت بزوال محنة الدماء والآلام والأغلال بصفة شاملة ودائمة، فلا يحق لأحد أن يحييها».

وتابع الشيخ حشّاني يقول في رسالته إلى الرئيس الجزائري

عبد العزيز بوتفليقة: «أيها الرئيس: إن الخطاب لبعيد عن الواقع، فما أقل عدد المساجين وذويهم الذين سُروا بالعفو، وما أكثر عدد المساجين وذويهم الذين خاب أملهم فيه. وما أكثر من استبشروا بإشادتكم ببيانات من كفوا أيديهم عن القتال، وما أقل من استطاعوا أن يصدقوا أن جزاءهم هو قانون الوئام المدني الذي لا يعفي من العقاب إلا من لا شوكة له، وهو مع ذلك لا يطبق عليهم إلا عند الاقتضاء!. وما أكثر من ظنوا أن رسالة الشيخ عباسي (مدني) هي فاتحة انفراج الأزمة، وما أقل من استطاعوا أن يتقبلوا واقع أنه لم يفرج حتى عن صاحبها، بل إنه مطالب بالتخلي عن أرفع حق له في المواطنة. إذا كان هذا جزاء من كانت نداءاتهم فاتحة حملة الوئام فأنى لنداءاتهم ـ فضلاً عن نداءات غيرهم ـ أن تستجاب»؟.

أيها الرئيس: إن رجالاً من أهل المكانة والحجة كالشيخ علي بلحاج وأمثاله هم على أتم الاستعداد للعمل على حقن دماء الجزائريين وإزالة مآسيهم. ولا ينكر أحد أنهم على ذلك أقدر وأقوم. فبأي حق تحرم الأمة من جهد هذه القلة من أبنائها ما دامت مقبلة على جمع الشمل، ورأب الصدع، وإصلاح ذات البين؟

أيها الرئيس: إن المصالحة الوطنية ثمرة أينعت وحان قطافها، والسعيد من يكون صاحبها، ولا أدل على ذلك من أن التنافس في الانتخابات الرئاسية الأخيرة لم يشتد إلا عليها. فبادروا بالعمل الموصل لها قبل أن يدب الوهن إلى العزائم، والخيبة إلى الآمال».

أبو علي مصطفى

(1938 ـ 2001)

في ختام الشهر الحادي عشر للانتفاضة الفلسطينية المتجددة، في السابع والعشرين من آب/أغسطس عام 2001، أطلقت طائرات إسرائيلية أميركية الصنع من طراز أباتشي صواريخها الفتاكة على مقر قيادة «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» في رام الله مستهدفة جسد الأمين العام للجبهة الجالس آنذاك إلى مكتبه، وأودت بحياته. فهل كان أبو علي مصطفى المنشغل بتصريف أعمال يومه المعتادة يتوقع أن يستهدفه هذا العدوان؟ وما هو السبب الذي حمل صانع القرار الإسرائيلي على استهداف هذا الرجل بالذات؟ في هذه الصفحات نتوخى تلمّس الإجابة على هذين السؤالين.

ـ دوره في الانتفاضة:

يقيناً، إن الرجل الذي انهمك في العمل العام سريّة وعلنية منذ كان فتى قد بقي في مركز الخطر منذ البداية. ويقيناً أيضاً أن الخطر على حياة الرجل قد اشتدّ منذ عودته الأخيرة إلى أرض الوطن في العام 1999، ثم اشتد أكثر مع اشتعال الانتفاضة وانهماكه في نشاطاتها، خصوصاً منذ باشرت إسرائيل

حملة اغتيال الناشطين الفلسطينيين في الأرض المحتلة.

كانت إسرائيل قد بدأت في عمليات الاغتيالات لكوادر المقاومة الفلسطينية في الأراضي المحتلة، وبدا أن الرجل المشهور بمثابرته على العمل منذ الصباح الباكر حتى آخر المساء لا يجهل الخطر الذي يكتنفه هو شخصياً كما يكتنف سواه. لكن هذا الإنسان المتمرس بمواجهة الخطر لم يبلغ وقتها حدّ الاعتقاد بأن أوان اغتياله قد حان.

فالاغتيالات مثلها مثل كل وسائل الحرب التي تشنها إسرائيل على الشعب الفلسطيني لها محددات هي هذه التي ألف الخطاب السياسي تسميتها الخطوط الحمر. ولئن صح أن حكومة أرييل شارون الإسرائيلية كانت قبل اغتيال الأمين العام للجبهة الشعبية قد تجاوزت عدداً من هذه الخطوط، فلم يكن في البال أنها بلغت حد اغتيال قائد من الصف السياسي الأول له قامة أبي علي مصطفى ومكانته الوطنية والعربية والدولية. وحتى لو خطر في البال أن شيئاً من هذا سوف يحدث، فإن وسائل الوقاية من الاغتيال ليست متيسرة بالدرجة التي قد يتصورها البعض ممن يجهلون واقع الحال في الأرض المحتلة. فالفلسطينيون في الأرض المحتلة كلهم، قادتهم وكوادرهم وناشطيهم والهادئين منهم، إن كان ثمة حقاً هادئون، واقعون كلهم في حقل رماية مكشوف لآلة العدوان الإسرائيلية، مكشوف دون حماية يعتدّ بها، ولا مجال أمام أيما أحد للنجاة إلا أن يغادر الأرض المحتلة. وغني عن البيان أن أبا علي مصطفى ليس من الناس الذين يفرّون من ميدان المواجهة.

وبالإمكان استحضار ما قاله أبو علي نفسه في أحد اللقاءات. فقد ذكر الرجل إنه يتجنب مغادرة المنطقة (أ) ما أمكنه ذلك حتى لا يقع فريسة سهلة في أيدي جنود الحواجز الإسرائيلية والمستوطنين اليهود. وهذا هو الاحتياط الوحيد الذي تيسر حين لم يكن الاغتيال المقصود وارداً في البال. وأياً ما كان عليه الأمر، فإن ما وقع قد وقع وانتهى الأمر، وكانت الخسارة فادحة.

ـ الذرائع الإسرائيلية:

أما لماذا تجاوز صانع القرار الإسرائيلي الكوابح المحلية والعربية والدولية التي تلجم يده وتحول بينه وبين اغتيال قائد فلسطيني من وزن هذا القائد؟ أو لماذا جازف بتحدي الأوساط الواسعة التي تستنكر مثل هذا الاغتيال وهي كوابح حقيقية وليست مفترضة افتراضاً؟ فهذا سؤال يستحق التوقف عنده لأن الإجابة الصحيحة عليه تساعد على التنبؤ السديد ومعرفة ما قد يصل إليه قادة العدوان الإسرائيلي في مسلسل الاغتيالات.

وفي الإجابة على هذا السؤال، قد ينبغي أن نبدأ باستعراض الحجج التي أوردها المسؤولون الإسرائيليون أنفسهم والمتحدثون بأسمائهم لتسويغ اغتيال أبي علي مصطفى. فهؤلاء ركزوا أكثر ما ركزوا على دور عسكري نسبوه للرجل واتهموه بأنه أشرف على تنظيم الهجمات المسلحة التي تشنها الجبهة الشعبية ضد عسكريين ومدنيين إسرائيليين. وقال هؤلاء إن أبا علي مصطفى هو الذي ينظّم عمليات السيارات المفخخة. وقد اشتط المتحدثون الإسرائيليون في الاتهام، فزعموا أن الرجل كان حين اغتياله منصرفاً لتنظيم عمليات

تستهدف حتى تلاميذ المدارس الإسرائيليين. وعندما بدا لهؤلاء أمام حملة الاستنكار الواسعة للاغتيال أن ذرائعهم هذه ليست مقنعة، استحضر رئيس الحكومة شارون نفسه ذريعة أخرى، فذكّر بموقف الجبهة الشعبية وأمينها العام المعارض لإتفاق أوسلو الداعي إلى إسقاطه، وعدّ هذا تهمة تسوغ الاغتيال.

ولئن كانت الذرائع المتصلة بنشاط عسكري مما يمكن احتسابه تهماً بالية لكثرة ما أفرطت إسرائيل في استخدامها بالباطل أكثر مما بالحق، ثم لئن كانت تهمة استهداف التلاميذ بعيدة عن الواقع حتى لقد اضطر مستخدموها أنفسهم إلى سحبها من التداول، فإن التذكير بموقف الجبهة وأمينها العام ضد إتفاق أوسلو بدا في هذا السياق، خصوصاً حين ورد على لسان شارون، بمثابة نكتة سمجة. فما من أحد في هذا الكون عارض إتفاق أوسلو بمقدار ما عارضه شارون وفريقه، وما من أحد فتك بالعملية السياسية كلّها بمقدار ما فتك بها شارون.

وإلى كل ما يظهر هشاشة الذرائع الإسرائيلية المدعاة علناً يمكن أن نضيف الحقائق المتصلة بقرار اغتيال أبي علي مصطفى. وقد يكفي أن نورد في هذا المجال الحقائق التي كشفها جدل المسؤولين الإسرائيليين أنفسهم حول القرار. فما تسرب من هذا الجدل عبر وسائل الإعلام الإسرائيلية وغيرها أظهر أن القرار اتخذ في المستوى السياسي الإسرائيلي وليس الأمني وقد انفرد باتخاذه رئيس الحكومة شارون ووزير الدفاع بنيامين بن أليعازر وحدهما. وهذا يعني أن قرار اغتيال أمين عام الجبهة الشعبية اتخذه الفريق في حكومة

إسرائيل الذي يعمل بمنهجية مثابرة على تدمير العملية السلمية برمتها وليس إتفاق أوسلو وحده، وهو الفريق ذاته الذي يعمل بالمنهجية ذاتها على تدمير الحركة الوطنية الفلسطينية وإخلاء الطريق من العائق الأساس الذي يحول دون تحقيق حلم إسرائيل الكبرى. وليس غريباً إذاً أن الفريق الذي انفرد باتخاذ قرار الاغتيال وتنفيذه قد اتخذه ونفذه من وراء ظهر الفرقاء الإسرائيليين الآخرين الذين يتجنبون الدعوة إلى تدمير العملية السلمية. وفي هذا وحده، حتى لو لم تتوفر دلائل أخرى هي في واقع الأمر كثيرة، ما يظهر أن قرار اغتيال أبي علي مصطفى بالذات اتخذ بدوافع سياسية لا لبس في انتسابها إلى السياسة وحدها.

فما الذي حمل فريق شارون العازم على تدمير العملية السياسية على اغتيال الأمين العام للجبهة التي يقول شارون ذاته إنها تقف ضد هذه العملية؟

ـ سيرة رجل، سيرة عامة:

هذا السؤال يغري باستعراض سيرة أبي علي مصطفى ودوره في مجرى العمل الوطني الفلسطيني. فهذه السيرة لا تستحق أن تدرس فقط لتخلد في ذاكرة الأجيال، بل تستحق أن تدرس أيضاً لأنها تنم عن السبب الذي حمل صانع القرار الإسرائيلي على تصفية صاحبها. وهي في أي حال سيرة رجل امتزجت حياته الشخصية امتزاجاً كاملاً بالحياة العامة فقدمت إيجازاً بليغاً لمسيرة العمل الوطني الفلسطيني منذ العام 1948.

في العام 1938، في إبان اشتعال الثورة الفلسطينية الوطنية

الكبرى، ثورة 1936 ـ 1939، ولد مصطفى الزبري في قرية عرّابة قرب جنين، في المنطقة التي شهدت سلسلة من أشدّ وقائع الثورة الفلسطينية سخونة. وكان والد مصطفى واحداً من المجاهدين الذين نظمهم في أوائل ثلاثينات القرن العشرين شيخ الجهاد الفلسطيني، الشيخ عزّ الدين القسام. وقد تشرب الوالد الأريج الثوري الذي عمّ البلاد وذاق مرارة سجون الإنتداب البريطاني دون أن تثنيه عن الاستمرار في نشاطه الثوري. وكما وقع لكثيرين من أبناء جيله، تشرب الطفل مصطفى هذه الأجواء وتمرس منذ نشأته الأولى بمكابدة الأهوال. وعندما حلت نكبة العام 1948 ووقعت عرّابة قرب خط الهدنة بما يقترن بهذا الوضع من منغصات لا حصر لها وانحدرت أحوال الفلسطينيين إلى ما دون الصفر، توجب على ابن العاشرة أن يعمل مع أبيه في الزراعة ليساهم في إعالة الأسرة. ثم عندما تعذر تدبير لقمة العيش دون تنغيص، انتقلت الأسرة إلى عمان وذلك في العام 1950، أي بعد أن صارت الضفة الفلسطينية جزءاً من المملكة الأردنية الهاشمية وصار اسمها الضفة الغربية. وفي عمان، اضطر ابن الاثنتي عشرة سنة إلى العمل في مهن شتى كانت كلها قاسية. وبهذا أيضاً، وقع لمصطفى الزبري ما وقع لكثيرين من أبناء جيله: مكابدة قسوة النكبة ومرارات اللجوء والاضطرار إلى التوقف عن متابعة التعليم المدرسي والالتحاق المبكر بسوق العمل القاسي حتى يتيح الفرصة لإخوانه الآخرين كي يواصلوا تعليمهم.

وقبل أن يبلغ الثامنة عشرة، التحق الفتى مصطفى بحركة القوميين العرب. كانت الحركة التي التحق هو بها في العام 1955

قد تجاوزت فترة نشأتها المضطربة واتخذت مكانها بين الحركات الداعية إلى الوحدة العربية. وقد تميزت هذه الحركة عن غيرها بتركيزها الشديد على الثأر لما وقع لفلسطين والفلسطينيين على أيدي الصهيونيين اليهود فيما تبنت ما تبناه العرب القوميون من الدعوة إلى الوحدة العربية واعتبار أن هذه الوحدة هي الطريق إلى تحرير فلسطين. وهكذا، انهمك الفتى في النضال على أشقّ الطرق، طريق الوحدة والتحرير. وكان مصطفى في العشرين من عمره حين اعتقل في الأردن على خلفية هذا النضال. جرى هذا في العام 1958، وهو العام الذي استكملت فيه الردة على منجزات العامين 1956 و1957 الوطنية ولوحق من بقي في البلاد من ناشطي أيام الإنجازات. ولقد كانت حصة مصطفى الزبري من عقاب تلك الردة كبيرة. فهو لم يغادر البلاد كما غادرها ملاحقون كثيرون، بل بقي ليتابع النضال سراً فتلقى حكماً بالسجن لمدة خمس سنوات، وكانت تلك على ما يشهد به عارفوه هي السنوات التي تصلب فيها عوده واتسعت معرفته وتبلورت شخصيته القيادية وتأسس استعداده الدائم للتضحية من أجل مبادئه.

ـ السياسي والمقاتل:

هنا، قد يجدر أن نستحضر الجدل الذي انشغلت به الساحة العربية القومية، ومنها الفلسطينية، منذ تلك الفترة إلى ما بعد عدوان حزيران/ يونيو عام 1967. فمنذ أواخر خمسينات القرن العشرين، برزت الدعوة إلى إستقلال العمل الوطني الفلسطيني عن العمل العربي الرسمي العام وممارسة الكفاح المسلح لتحرير فلسطين

بمنأى عن موقف الدول العربية منه. وقد تجسدت هذه الدعوة بنشوء «فتح» و«جبهة التحرير الفلسطينية» وفصائل أخرى عديدة أقل شأناً. وكان في هذه الدعوة التي أسست لبداية الوطنية الفلسطينية المتجددة بعد النكبة ما يتعارض مع دعوة حركة القوميين العرب المتماهية آنذاك مع الدعوة الناصرية إلى الوحدة العربية ووضع مطلب تحقيق الوحدة على رأس سلّم الأولويات القومية. كما كان في الدعوة إلى مباشرة الكفاح المسلح ضد إسرائيل ما يتعارض مع الموقف الناصري، إذ كان عبد الناصر ما يزال يناور بالدعوة إلى حل للقضية الفلسطينية في هدي قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة بها ويعارض مباشرة الكفاح المسلح الشعبي لأن فيه توريطاً للدول العربية قد يجرها إلى حرب مع إسرائيل لم تستعد هذه الدول لها.

وغني عن البيان أن حركة القوميين العرب وهي الممثل الأول والأكبر للناصريين الفلسطينيين قد انهمكت في هذا الجدل بكليتها، فدافعت عن أولوية الوحدة العربية ووجدت نفسها بحكم ولائها الناصري في موقع المعترض على التعجل في مباشرة الكفاح الشعبي المسلح.

لم يعن هذا أن الحركة كانت ضد الكفاح المسلح، بل عنى تحديداً أنها رأت إرجاء مباشرته إلى أن تتوفر الظروف التي تأذن بتحقيق الانسجام بين دعوة الكفاح المسلح الشعبي وبين استعدادات الدول العربية لتحمل أعبائه. وهكذا، حمل موقف الحركة نوعاً من التباين بينها وبين فصائل الكفاح المسلح الناشئة، وهو تباين كان آنذاك مركباً. فعواطف ناس الحركة، خصوصاً الفلسطينيين منهم،

كانت مع هذا الكفاح، وسياسة الحركة كانت تدعوهم إلى لجم هذه العواطف.

وعندما تأسست منظمة التحرير الفلسطينية في العام 1964، أيدت الحركة تأسيسها وشارك ممثلو الحركة في هيئات المنظمة القيادية والقاعدية. لكن الحركة لم تكفّ عن انتقاد وجوه بعينها في سياسة زعيم المنظمة أحمد الشقيري وسلوكه. وقد واظبت الحركة على الدعوة إلى تثوير المنظمة إزاء ما عدّته ولع الشقيري بالبيروقراطية. ومما لا شك فيه أن الدعوة إلى التثوير عنت حثّ المنظمة على الاستعداد للعمل المسلح كي تنهمك فيه حين يحين أوانه.

أما إطلاق «فتح» رصاصتها الأولى في العام 1965 فقد أجج التباين الذي جرت الإشارة إليه وأحدث داخل الحركة بلبالاً واضحاً. وقد كان من المتعذر ألا يتبلبل الداعون إلى الثأر الفلسطيني حين يتخذ غيرهم زمام المبادرة بينما يجدون هم أنفسهم محمولين على القعود.

الجدل احتدم فيما أبو علي مصطفى قابع في السجن. أما البلبال فقد واجهه الرجل فور خروجه من هذا السجن. ومما لا شك فيه أن الرجل كان قد تأثر وأثّر في الجدل حتى وهو مغيّب في سجنه. وما أن غادر أبو علي السجن حتى رجع إلى الوطن وتولى مسؤولية فرع حركة القوميين العرب في شمال الضفة. ومن موقعه هذا، وبتأثير ميله إلى الدافعين في الحركة باتجاه الإعداد للكفاح المسلح ضد إسرائيل، ساهم وقد صار شاباً تام النضج في تأسيس منظمة

شباب الثأر، فشكّل بذلك النوى التي ستتسع في ما بعد وتباشر الكفاح المسلح. وعلى خلفية نشاطه الذي فرضت طبيعته أن يكون جلّه سرياً، اعتقلت السلطات الأردنية أبا علي مرة أخرى، في العام 1966 واقتاده معتقِلوه إلى عمان، لكنه لم يقدّم هذه المرة إلى أي محاكمة ولم تمتد فترة اعتقاله لأكثر من ثلاثة أشهر، عاد الرجل بعدها إلى ما كان فيه.

وفي العام 1967، عندما وقعت الحرب في حزيران/ يونيو واحتلت إسرائيل الضفة وقطاع غزة وغيرهما، كان أبو علي موجوداً في الضفة، فأقام في رام الله تحت الأرض، وانصرف إلى تنظيم مقاومة حركة القوميين العرب للإحتلال الإسرائيلي فور وقوعه، وهو الذي أشرف على إعداد خلايا المقاومة المسلحة الأولى ودفعها إلى العمل.

لقد حسم وقوع عدوان حزيران/ يونيو عام 1967 بلبال حركة القوميين العرب بشأن مباشرة الكفاح المسلح مثلما أسقط العدوان تحفظات الزعامة الناصرية على أيّ من مباشريه، وتهيأت الفرصة لأبي علي كما لغيره كي ينطلق في هذا الاتجاه بغير كوابح. وقد لعب أبو علي دوراً متميزاً في تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بما هي فصيل مسلح فدائي اتخذت الحركة المبادرة إلى تأسيسه. وكان أبو علي بين الذين تبنوا التوجه إلى تشكيل جبهة وطنية لا تقتصر العضوية فيها على أعضاء حركة القوميين العرب وحدهم. ولقد انهمك هو نفسه في الحوار مع الأطراف الأخرى. وانتهى الأمر كما هو معروف إلى أن تضم الجبهة الشعبية عند

صدور البيان الأول الذي أعلن عن تأسيسها في أواخر العام 1967 التنظيم الفلسطيني للحركة ومنظمتي شباب الثأر وأبطال العودة وجبهة التحرير الفلسطينية التي كان الضابط الفلسطيني في الجيش السوري أحمد جبريل قد شرع في إنشائها منذ العام 1959. وإلى هؤلاء أمكن أن تجتذب الجبهة عدداً من الضباط الناصريين المسرحين من الجيش السوري أو غيره وبعض الشخصيات المستقلة. ولئن لم تستمر الجبهة بهذا التشكيل زمناً طويلاً فلأسباب يطول شرحها. وقد انتهى الأمر إلى خروج جبهة التحرير الفلسطينية من هذا التشكيل ومتابعتها العمل باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وتمييز نفسها عن الجبهة الأم بإضافة كلمتي القيادة العامة إلى هذا الاسم.

ـ في منظمة التحرير الفلسطينية:

في العام 1968، في عهد رئاسة المحامي يحيى حمودة لمنظمة التحرير الفلسطينية خلفاً مؤقتاً للشقيري الذي استقال، اتجهت فصائل العمل الفدائي إلى العمل للهيمنة على منظمة التحرير الفلسطينية. وتشكّل مجلس وطني فلسطيني ممثل لهذه الفصائل وأنصارها الكثيرين وصار للجبهة الشعبية نصيب فيه. ومنذ ذلك الوقت، كفّت الجبهة عن الأمل بأن تصير هي ذاتها جبهة للجميع، إذ أن هذا الدور تولته منظمة التحرير الفلسطينية. وفي هذه التطورات والحوارات التي اقترنت بها على اتساع الساحة الوطنية الفلسطينية كلها، لعب أبو علي مصطفى دوراً متميزاً أيضاً، فضلاً عن تولي مسؤولية العمل العسكري للجبهة.

في غضون ذلك، وبتأثير صدمتها بهزيمة الأنظمة التي يتصدرها النظام الناصري في مصر أمام إسرائيل كما بتأثير عوامل أخرى بالطبع، اتجهت حركة القوميين العرب إلى تمييز نفسها عن التيار الناصري واتخذت موقفاً نقدياً حاداً من نظام عبد الناصر كما من غيره من الأنظمة الوطنية المماثلة. ودخلت الجبهة في خصومة حادة مع النظام البعثي في سوريا. ونجم من هذه الخصومة أن اعتقلت سلطات الأمن السورية الدكتور جورج حبش الأمين العام للجبهة. وبغياب الأمين العام، زادت مسؤوليات أبي علي مصطفى السياسية بالإضافة إلى استمراره في المسؤولية عن العمل العسكري.

وبالإضافة إلى الخصومة مع سورية، وربما بتأثيرها أيضاً كما بتأثير أطراف أخرى منافسة للجبهة الشعبية، وبتأثير عوامل وتفاعلات أخرى عديدة، قديمة أو مستجدة، شهدت الجبهة في وقت مبكر بعد تأسيسها صراعات داخلية حادة جرى بعضها بالسلاح. وانتهى الأمر بإستقلال الفريق الذي تزعمه القومي العربي الأردني نايف حواتمه عن الجبهة الشعبية وتأسيسه فصيلاً فدائياً اتخذ اسم الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. وفي شباط/ فبراير عام 1969، عقدت الجبهة مؤتمرها العام وهو الذي كرس زعامة جورج حبش في وجه مناوئيه. وتكرست قيادة أبي علي لعمل الجبهة العسكري دون أن يقلّ دوره في العمل السياسي وخصوصاً في الحوار مع الأطراف الأخرى. والواقع أن أبا علي كان في طليعة الذين دعوا في الجبهة إلى عدم التمييز بين السياسي والمقاتل. وفي مؤتمر الجبهة العام الثالث، هذا الذي انعقد في العام 1972، صار

للجبهة نظام داخلي جديد نصّ فيه على أن كل عضو سياسي في الجبهة هو مقاتل مثلما أن كل مقاتل هو عضو سياسي. وكان لأبي علي دور بارز في إقرار هذا النظام. وهذا هو المؤتمر العام الذي اختار الرجل نائباً للأمين العام للجبهة، أي لموقع سياسي بدل موقعه العسكري.

شغل أبو علي منصب النائب، إذاً، منذ العام 1972، وقد ظل يشغله حتى العام 1999. فهي، إذاً، قرابة ثلاثة عقود متصلة ترك الرجل خلالها بصمات عميقة على حياة جبهته والحياة الفلسطينية العامة. ومنذ العام 1991، تولى أبو علي معظم مسؤوليات الأمين العام لأن المرض حال بين د. حبش وبين توليها بنفسه. وهكذا جاء انتخاب مؤتمر الجبهة في العام 1999 لأبي علي أميناً عاماً بمثابة تحصيل حاصل. وفي غضون هذه المدة وقبلها وبعدها، ظل أبو علي عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني وعضواً في اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية. منذ تأسيسها في العام 1970 وعضواً في المجلس المركزي منذ تأسيسه في العام 1973. وفي العام 1978، انتخب أبو علي مصطفى عضواً في اللجنة التنفيذية وظل فيها حتى العام 1991 حين اقتضى مرض الأمين العام للجبهة أن يتولى، هو نائبه، مزيداً من المسؤوليات فيها فاضطر إلى التخلي عن عضوية اللجنة التنفيذية.

وفي حياته كلها، امتاز الرجل بالصدق واستقامة السلوك ونظافة اليد واللسان، كما امتاز بتخصيصه وقته وجهده كلهما للعمل العام. وإذا استحضر أيما فلسطيني أياً كان لونه السياسي أسماء القادة الذين

حظوا بالاحترام من مؤيديهم ومخالفيهم على حد سواء، فلا بد من أن يرد اسم أبو علي مصطفى في المقدمة. والأمر لا يتعلق هنا بتوفر الاحترام، وحده، بل بما أمكن للرجل أن يفعله بسبب تمتعه بهذه المزيّة. وغني عن البيان أن تمتع أي قائد بالصدقية يشكل عاملاً ذا تأثير كبير في زيادة فعاليته في العمل العام.

وعلى مدى هذه السنين والعقود، ظل أبو علي رجل حوار وطني من الطراز الأول. فإذا أخذنا في الحسبان تعقيدات الساحة الفلسطينية وكثرة عوامل الفرقة والتنابذ فيها، فسندرك في نحو أجلى أهمية وجود قادة يغلبون نهج الحوار على نهج التخاصم. ولقد كان أبو علي واحداً من هؤلاء، ولن نقع في المبالغة إن قلنا إنه كان بين أكثرهم تأثيراً في استعادة وحدة الساحة الوطنية كلما مزّقتها دواعي الفرقة. لقد كان في الساحة رجلان يمكن أن ينوه بدوريهما في هذا المجال: صلاح خلف (أبو أياد) في فريق الأغلبية ومصطفى الزبري (أبو علي) في الفريق الآخر. هذا القول لا يراد به نفي أدوار الآخرين في المجال ذاته. فقد وقف كثير من القادة في الفريقين كما وقفت أغلبية الجمهور ضد تسبب خلافات الرأي والاجتهاد في أي اقتتال، لكنها المناسبة التي توجب استقصاء دوافع إسرائيل لاغتيال أبي علي.

ـ مزاج القاعدة يبقى في القمة:

ولمتابعة الاستقصاء، لنأخذ ما أقدم عليه أبو علي منذ صار رجل الجبهة الشعبية الأول دون منازع. هنا، قد يجدر التنويه بأن الرجل جاء إلى هذا الموقع بعد أن توفرت له خبرة عميقة ومديدة

في الاضطلاع بمسؤوليات قيادية من الدرجة الأولى، وهو يكاد يكون الوحيد بين الأمناء العامين للفصائل الفلسطينية الفدائية الذي تمتع بهذه الميزة. فإذا أضفنا ميزته هذه إلى المزايا الأخرى، أمكن أن نفهم كيف اختير أبو علي لموقع الأمانة العامة ليس من أجل ملء فراغ طرأ أو الموازنة بين تكتلات لم تتفق على سواه، بل تتويجاً لتطورات تفاعلت على مدى سنوات وكان له هو دور كبير في الحفز عليها ودفع جبهته في اتجاهها. بهذا المعنى، سيصح القول بأن أبا علي كان رجلاً أول حتى قبل أن يشغل الموقع التنظيمي الأول. وبأولويته، حتى حين كان في الموقع التنظيمي الثاني، تميز أبو علي بحرصه الشديد على دوره محاوراً وطنياً. وقد تجلت أهمية هذا الدور أشدّ ما تجلت في السنوات العشر الأخيرة. فانقسام الصف الوطني إثر توقيع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، أو فريق الأغلبية في هذه القيادة على إتفاق أوسلو كان من شأنه أن يؤبد التنابذ بين قابلي الإتفاق ورافضيه. ولقد جرت بالفعل محاولات جادة لإنشاء قيادة وطنية موازية تصطرع مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية. التي وقعت على الإتفاق. غير أن وجود قادة في الفريق المعارض لهم طبيعة أبي علي الحوارية ووجوده هو بالذات في موقع التأثير على سياسة جبهته وغيرها لعبا دوراً حاسماً في التقليل من أذى التنابذ وإعادة الاعتبار إلى نهج التحاور.

وبمزاياه كلها، ما تحدثنا عنه منها وما أغفلناه، شق مصطفى الزبري طريقه من القاعدة الشعبية الفقيرة التي أنبتته إلى قمة القيادة. فعل الرجل هذا بمثابرته على النضال وتضحياته وحرصه على تطوير

ثقافته هو الذي حرم من متابعة التعليم الأكاديمي، دون أن يفقد في مراحل تطوره كلها إحساسه بمزاج القاعدة وحاجاتها وقيمها، ودون أن يفقده وجوده في القمة تواضعه الأصيل.

ومن المؤكد عليه أن رجل الشعبية الحواري قد فعل الكثير في السنوات الأخيرة لإطفاء العنعنات ودعوات التنابذ. وفي هذا السياق، خطا أبو علي خطوة كان الأمين العام السابق قد أبى أن يخطوها، فانتقل من الشتات إلى الوطن المحتل ونقل مركز الثقل في قيادة الجبهة من الخارج إلى الداخل. لم تفتن أبا علي الدعاوى السابقة حول التعارض بين انتقاله إلى حيث يهيمن النظام الناشئ بموجب إتفاق أوسلو وبين معارضة الجبهة لهذا الإتفاق. وقد جاء الرجل إلى الأرض المحتلة، فجاء معه وعيه الوطني المتفتح وخبرته وثباته على المبادئ. وبانتقاله إلى الداخل، أتم أبو علي إحلال نهج التحاور مع «فتح» وغيرها من مؤيدي إتفاق أوسلو محل التخاصم. وكان في هذا واحداً من أهم الإنجازات التي لا لبس في انتسابها إلى مزايا الرجل وحكمته.

وفي الوطن كما كان الشأن في الشتات، انصرف أبو علي مع رفاقه المقيمين فيه ورفاقه الذين رجعوا إليه إلى ترتيب أوضاع الجبهة الشعبية وتوسيع علاقاتها بمحيطها وتنمية دورها في العمل العام وتجويد وسائلها. وقد ساعد هذا كله على تعبئة القوى المعارضة لإتفاق أوسلو في اتجاه أكثر واقعية وأكثر نجاعة. وبإمكان أيما معني بالأمر أن يشهد أن أبا علي حقق في هذه المجالات جميعها إنجازات يعتد بها، دون أن يفرط بالمبادئ أو تهن معارضته

لما اعترض عليه. والحال أن الجبهة الشعبية كانت الفصيل الوحيد من فصائل منظمة التحرير الفلسطينية. المعارضة الذي اتسعت شعبيته وزادت فعاليته على الأرض منذ العام 1999. ومن المؤكد عليه، وفق المعطيات المشاهدة جميعها، أن منجزات أخرى كانت على الطريق. لقد مزج الرجل بين متطلبات الواقعية السياسية وبين الثبات على المبادئ. وكان من نتائج هذا أن تكرس موقع الجبهة بوصفها القوة الثانية بين القوى الممثلة في منظمة التحرير الفلسطينية، أو الثالثة في الساحة كلها إن أدخلنا «حماس» في حساب القوى. ولم يقتصر الأمر على تثبيت هذه المكانة، بل اشتمل أيضاً على تضييق مضطرد في الفجوة بين مكانة الجبهة ومكانة من يسبقها في الترتيب.

فهل نحتاج إلى كثير من الاستقصاء كي نستخلص السبب الذي حمل شارون على تصفية هذا القائد.

لقد امتزجت سيرة الرجل بمسيرة الحركة الوطنية وتطورت مع تطورها وتأثرت بها وأثرت فيها تأثيراً عميقاً. وبتطوير وعيه ونهجه في حرارة التجربة واجتذابه جبهته إلى أخذ عبرها في الحسبان والانفتاح على الآخرين، صار أبو علي مصطفى ركناً من أركان العمل الوطني الفلسطيني، ركناً صلباً يمكن الوثوق به. وما دامت حكومة شارون تستهدف اجتثاث الحركة الوطنية الفلسطينية وإسلام الجمهور إلى الاستكانة والضياع، فلم يكن غريباً أن تتجاوز هذه الحكومة أي كوابح وأي خطوط حمراء لتجتث هذا الجذر المتميز من الجذور الفلسطينية.

إن فقد الساحة الفلسطينية لمصطفى الزبري شكل خسارة لن ينفع التعزّي في التقليل من حجمها. أما وقد وقع ما وقع، فللجهود الرامية إلى التعويض أن تتجه في اتجاه تقليل تأثير هذه الخسارة على الجبهة وعلى مجمل العمل الوطني. والأمل في هذا المجال معقود على استمرار النهج الذي اختطه القائد الراحل.

السيد حسين بحر العلوم
(1928 ـ 2001)

في ظروف غامضة والنجف الأشرف في حالة طوارئ تناقلت وكالات الأنباء ووسائل الأعلام نبأ استشهاد المرجع الديني الكبير آية الله العظمى السيد حسين بحر العلوم (75 عاماً) مساء الجمعة 22 حزيران/يونيو عام 2001 في منزله بمدينة النجف الأشرف، في ظروف غامضة وسط إجراءات أمنية مشددة، ولم تتوفر معلومات وافرة وذلك بسبب شدة التعتيم الحكومية وإجراءات منع وصول المعنيين بشؤون الصحافة والإعلام إلى منطقة الحادث، إذ أفادت الأنباء الميسرة التي تم الحصول عليها بصعوبة سلسلة شاقة من الاتصالات الهاتفية وبرقيات الفاكس المستعجلة مع الجهات ذات الشأن والصلة، إن سلطات نظام صدام الحاكم قد فرضت طوقاً أمنياً شديداً حول مدينة النجف الأشرف، ونشرت الدوريات العسكرية ـ الأمنية المشتركة في مداخلها وعند المراكز والمؤسسات الدينية ومرقد أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وأن المدينة عاشت حالة طوارئ.

هذا وقد تمكن استحصال بعض جوانب جريمة حادثة الاغتيال،

حيث أفاد أحد أقارب المرجع الشهيد، بأن شخصاً مسلحاً، كان يخفي سكيناً يحمله قد اقتحم منزل السيد بحر العلوم، ومن ثم فاجأه بمهاجمته له، وتوجيه عدة طعنات له في صدره وأماكن أخرى من جسمه أودت بحياته في الحال، دون أن تتوافر أخبار القبض على المجرم القاتل المكلف من قبل النظام الحاكم بتنفيذ جريمة القتل المرسومة، وكما حصل في السابق القريب للعديد من المراجع وعلماء الدين أمثال المرجع الشهيد الإمام محمد صادق الصدر وآية الله العظمى الشيخ علي الغروي وآية الله الشيخ البروجردي وغيرهم، ومن جهة أفاد سماحة العلامة السيد محمد بحر العلوم من لندن في تصريحات عاجلة للصحافة بأن نظام صدام يقف وراء تدبير وتنفيذ هذه الجريمة الشنعاء، حيث ذكر سماحته بأن سلطات النظام كانت ولغاية وقت قريب تمارس ضغوطاً مختلفة على المرجع الديني السيد حسين بحر العلوم، وذلك بغية إجباره على تولي شؤون الحوزة العلمية والمرجعية الشيعية في النجف الأشرف، وإقامة صلاة الجمعة وتحت ضوء وإشراف السلطة، بعدما قامت بتصفية المرجع الشهيد السيد محمد صادق الصدر، إلا أن السيد بحر العلوم قد رفض مراراً وتكراراً الاستجابة لأوامر صدام، ممّا حدا بالأخير إلى تنفيذ جريمته.

وحال انتشار خبر اغتيال المرجع السيد حسين بحر العلوم سادت العالم الإسلامي موجة غضب واستياء واسعين، فيما استنكر مراجع الأمة وكبار علماء الدين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي جريمة نظام صدام الدموي، فيما أقيمت مجالس الفاتحة والعزاء على روح الفقيد الكبير في العديد من الدول الإسلامية لا سيما

إيران ولبنان والباكستان والهند ودول خليجية وعربية عدة.

من جانبها أقامت ممثليات ومكاتب المراجع العظام مجالس الفاتحة على روح المرجع الشهيد في كل من طهران وقم ومشهد المقدسة بإيران، وفي العاصمة السورية دمشق، والعاصمة اللبنانية بيروت، بحضور أعداد غفيرة من أبناء الأمة المسلمة والعديد من كبار الشخصيات الدينية والعلمائية والسياسية والفكرية.

ـ المرجع الشهيد في سطور:

ولد في مدينة النجف الأشرف عام 1928 ونشأ فيها، ودرس عند أبيه الفقيه المعروف السيد محمد تقي بحر العلوم، كما حضر خارجاً أبحاث الأساتذة الكبار في حوزة النجف من أمثال السيد أبي القاسم الخوئي والشيخ حسين الحلي وسواهما. وأما من حيث نشاطه التدريسي، فقد مارس عملية التدريس في مختلف العلوم الحوزوية ومنها: الدرس الفلسفي والكلامي، ويعتبر من شعراء النجف المجددين في الأساليب الفنية وقد مارس النشاط الأدبي فترة شبابه وشطراً من مرحلة كهولته ثم اتجه بعد ذلك إلى الدرس الحوزوي وهجر نشاطه الشعري، ومارس نشاطاً حوزوياً ملحوظاً رشحه إلى أن يتصدى للمرجعية بعد أن طلب عارفوه ذلك، ومن ثم أصدر رسالة علمية لمقلديه بعد وفاة الخوئي. هذا إلى أن الشخصية المذكورة عرفت ـ مضافاً إلى ما تقدم ـ بتكيفها الإجتماعي مع كافة الطبقات وتصدت إلى الخدمات الإجتماعية في مرحلة مرجعيتها، فيما التفّ حولها جمهور الشباب، مضافاً إلى خدمات ثقافية في حقل المكتبة وغيرها من الحقول الإجتماعية العامة.

كان جريئاً في تصديه للسلطة الحاكمة في العراق فيذكر الثقاة أن هذه السلطة أرسلت وفداً إليه تطلب منه تحرير فتوى بتحريم المشي والمسير إلى مرقد الإمام الحسين عليه السلام في مناسبة أربعينيته فقال لهم: ماذا تفيدكم الفتوى فأنتم لا تفهمون إلا لغة الرشاشات والأسلحة في معالجة المواقف.

اعتقل أغلب أفراد عائلته في الانتفاضة الشعبانية ومنهم إبنا عمه السيد علاء بحر العلوم والسيد عزّ الدين بحر العلوم.

وبعد مقتل السيد محمد صادق الصدر فرضت عليه الحكومة العراقية زعامة الحوزة العلمية فقبلها على مضض، ولقد كان كثير التردد وله حضوراً إجتماعياً كبيراً حيث يحضر الفواتح والمناسبات الإجتماعية لعامة الناس.

له إصدارات منها «تلخيص الشافي» 4 طبعات (تحقيق) ورجال السيد وديوان شعر مطبوع «زورق الخيال».

مروان البرغوثي

(1959 - ...)

(محاولة اغتيال في العام 2001)

بإلحاح متواصل من عمق الذات وجدتني أنحني لذات لم تنحاز ولو لمرة لذاتها إلا من خلال العمل الجماهيري الذي دوَّن صفحة بيضاء ناصعة لتكون مرآة تعكس نقاء هذا الشعب العظيم الذي تخلى عن أية اعتبارات إقليمية أو طائفية أو قبلية أو عنصرية من أجل أن يشكِّل درعاً بشرياً وحجاباً حاجزاً لقلب هذه الأمة ومقدساتها. ولعلني ما كنت يوماً كاتباً ولا شاعراً ولا مؤرخاً، لكني كنت وما زلت معنياً ومنهمكاً بكل المقاييس، دون جعجعة بل بصمت يعطي دفعة للآخرين لأداء دور مميز في زمن مميز.

لكن مروان الذي حمل شرف قيادة الانتفاضة منطلقاً من ساحة المعراج مؤكداً أنه يستطيع دحر الإحتلال خلال أشهر قليلة، كان مراهناً على وقفة جادة ولو من حفنة من أنصار الحق والعدل، وبكل أسى ومرارة كان الرهان أقل من التوقعات والخذلان، توالى من جهات عديدة، بعضهم عمل على تقدير مواقفهم سلفاً، والبعض الآخر انحاز إلى مصالحه الخاصة، تاركاً زملاء له يدفعون

دمهم ضريبة صدقهم ووفائهم وانتمائهم لوطن ليس له غيره، تاركاً مهند أبو حلاوة والعمواسي وصلاح شحادة وحسين عبيات، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، يقدمون أرواحهم وأجسادهم قرباناً لكرامتهم وعزتهم. وآخرون يتربصون ليختلسوا نضالاً دام لعشرات السنين، وتحت جنح الظلام يجيرون لأنفسهم الحق وانتهاز الهجمة الشرسة وبكل ما تعنيه كلمة الانتهازية والنفعية لتنفيذ إستراتيجية تأسست على النمط الانتهازي السائد في زمن فيه القابض على الدين والحق كالقابض على الجمر.

لكن الأكثر مرارة في حلق مروان كان هذا الصمت الجماهيري متوجاً بنجاح هذه الأنظمة وبأساليب مشبوهة تقمع شعوبها، وهذا جزء من تكوينها أصلاً، ولم تنتفض هذه الشعوب لتنفض الغبار وتقف مرة واحدة طالبة الحرية والكرامة.

وأرى أن من واجبي أن أُقدّم من أرض المقاومة والتحرير من أرض لبنان المقاوم نبذة عن نشأة وسيرة هذا الذي حرك أساطيل أطلسيه لحماية المخلب الذي ينهش العرب، كما عرّى الأنظمة وأسقط ورقة التوت عن عوراتهم، وجعل من الفلسطيني إماماً وبوصلة لأحرار العالم أجمع، ومسح من ذاكرة الأجيال الجديدة أباطيل ترسخت في عقول الجهلاء مفادها أن الفلسطيني يفرّط في الأرض.

سار مروان بخطوات سريعة وإيقاع مخلص، وقدميه متجذرتين بأرض كرّمتها السماء، ولا مجال إلا أن نكون معه قلباً وقالباً، وأن نقف في ذات الخندق التي تمترس بها.

ولا بد أولاً أن نعي مسار الظروف التي جعلت من مروان ينطلق هذه الإنطلاقة الثابتة الخطى والواثقة، وما الذي عمد إليه مروان رافعاً يديه المقيدتين بشموخ وكبرياء أمام محكمة لا شرعية لوجودها مصمماً بكل ثقة وعزم على إنتصار هذا الشعب العظيم وانتفاضته المباركة.

وثانياً لعلني أجيب ضمناً على تساؤلات كثير من الغيورين، من العرب الذين انحازوا للنضال الفلسطيني، رغم تحفظاتهم إما على أداء قيادات سياسية أو ميدانية فألقوا بها جانباً إدراكاً منهم أن المعركة مع أعداء الإنسانية لا تستثني أحداً، وبذلك انخرطوا بالأساليب المتاحة والمستطاعة إلى جانب مروان وانتفاضة اعتبرها ومن معه من المناضلين هي المفصل، ولا مجال للتبريرات المختلفة كما قال بابندريو اليوناني المخضرم «بمقدار قربك من القضية الفلسطينية، بمقدار ما تكون قريباً من العدالة والإنسانية والحق».

ثالثاً لأقدم جزءاً من الواجب لأحبة الانتفاضة برموزها المناضلة سواء التي قدمت أرواحها فداءً لهذه الأمة أو الذين فقدوا أجزاء من أجسادهم أو الذين يقبعون وراء القضبان متحدين جلاديهم، متمثلين صمود مروان الأسطوري الذي خضع لشتى أنواع التنكيل الجسدي والنفسي، ولم يحصلوا ولن يحصلوا على اعتراف واحد يساعدهم في محاكمة نضال شعب، وهذا هو بيت القصيد في القبض عليه حياً لا كما يدعي المنبوذون من شعبهم أن مروان سيكون كرازاي جديد.

ـ ثوابت مروان البرغوثي:

1 ـ لا تفاوض داخل المعتقل مع أي جهة كانت حتى لو كانت من رموز محسوبة على الشعب الفلسطيني.

2 ـ لا ولن يقبل أي منصب حكومي أو رئاسي أو دبلوماسي، إلا بعد رحيل الإحتلال.

3 ـ لا يسمح بالمساس بالرئيس ياسر عرفات لا جسدياً ولا معنوياً طالما في عروقه نبضة واحدة.

4 ـ التأكيد على قوة الوحدة الوطنية ورفض أي اقتتال بين الإخوة تحت أية مسميات أو تبريرات.

ـ طفولة مروان البرغوثي كما يرويها شقيقه هشام:

يحمل مروان الرقم أربعة بين إخوانه السبعة لأسرة أبي عاطف المكونة من عاطف وهشام وعصام ومروان ومقبل وأياد، وأخيراً شروق (بنت). وهذه الأسرة جزء من عائلة البرغوثي، إحدى العائلات العريقة في فلسطين.

تنحدر هذه العائلة (البرغوثي) من نسل غسان إحدى القبائل التي هاجرت من اليمن بعد انهيار سد مأرب شأنها شأن القبائل العربية الأخرى. ويعتبر غسان وزهران وغامد إخوة، وهاتان القبيلتان ما زالتا في جنوب المملكة العربية السعودية، في حين رحل غسان وأتباعه إلى بلاد الشام وعرفوا بالغساسنة الذين خيرهم الخليفة عمر بين الإسلام أو الجزية عند فتح القدس فاختاروا الإسلام، ولكن ليس جميعهم. ومنهم من ذهب إلى المغرب العربي أو سوريا وشمال الأردن. أما الذين هاجروا إلى فلسطين فقد

تفرعوا إلى عدة فروع منهم الرمحي والعمري وبريغيث وبرغوثي وغيرهم.

وتعود تسمية العائلة إلى أكثر من رواية حيث يروى أن البر تعني الخير وغوث تعني الكرم دلالة على كثرة خيراتهم وكرمهم، وهناك روايات أخرى متعددة.

تسكن العائلة في قرية دير غسان التي ما زالت قلعة الحكم قائمة فيها، حيث حكموا المنطقة المحيطة ودخلوا في صراعات دامية. ورحل عديد منهم وسكنوا القرى المجاورة وساهموا في إعمارها ونموها واقتطعوا أجزاءً كبيرة من الأراضي التي أخذوها بالقوة من أراض الجوار. ومن هذه القرى: بيت ريما الأقرب إلى دير غسان وعابود، حيث يسكنها المسلمون والمسيحيون بصيغة نموذجية من التعايش والتآلف، ودير أبو مشعل وكفرعين وقرية كوبر التي أنجبت رموز أدب ومقاومين. ولن ننسى «أبو مخلص» القائد العسكري والنموذج الأخلاقي للانتفاضة الأولى، وقد رحل مبكراً سنة 1995، كما أنجبت الشاعر والفيلسوف المخضرم حسين البرغوثي، الذي رحل أيضاً مبكراً. ويبدو أن سن السادسة والأربعين أصبح مشؤوماً حيث اختطف رجالاً يفتخر بهم. كما قدمت العائلة في كوبر مجموعة من الشهداء في الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين، وحتى في باريس. ولن ننسى الشهيد منيف البرغوثي الذي اغتاله الموساد في باريس. وتشتهر هذه القرى جميعها بالزراعة وخاصة الزيتون والعنب والتين وهي على تلال مرتفعة وما زالت القلعة تتوسط قرية دير غسان القرية الأم.

عُرف عن العائلة الحفاظ على عادات وتقاليد هذا الشعب، فمنهم صدرت أول موسوعة للتراث الفلسطيني للدكتور عبد اللطيف البرغوثي، وقد ساهم في تطور البحث العلمي في العديد من الأقطار العربية. ومنهم الشاعر المعروف مريد البرغوثي وهو غني عن التعريف.

اشتهرت العائلة بحب العلم ومتابعته، ويوجد فيها أعلى نسبة تعليم مقارنة بالمحيط العربي والفلسطيني. وعرفت بالكرم وروح النكتة والمرح وسرعة البديهة والذكاء والجرأة وعدم المجاملة، وبالانتماء الوطني بلا حدود، وبالثقافة خاصة الأدب والشعر، حيث توجد مساجلات شعرية متواصلة في ديوان العائلة.

وقد افتتحت أول مدرسة ثانوية في بداية القرن العشرين. وتعتبر العائلة صورة صادقة عن المجتمع الفلسطيني. ففيها العالم والأمي والثري والفقير والوطني واللاوطني، واليساري واليميني والمتدين والعلماني والقومي، والمثقف وغير ذلك. ولكنها عائلة مسيَّسة جداً، وتكاد الأحداث السياسية أن تطغى على كل مجالسها. أما من خرج من دير غسان إلى قرية كوبر بعد حصول مشاكل عائلية قبل مائة وثلاثين عام، خرج هؤلاء محرومين من كافة أملاكهم ولجأوا إلى كوبر بعد أن رحّب بهم أهلها للاستعانة بهم ضد القرى المجاورة التي استضعفتهم وأخذت أراضيهم، وقد تم استرجاع هذه الأراضي وتقاسمها السكان جميعاً.

بعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة الأتراك وخروجهم من فلسطين حل الإنتداب البريطاني مكانهم، وواجه الفلسطينيون هذا

الواقع المؤلم من خراب ودمار تركه الأتراك، وإحتلال جديد غريب في كل شيء عنهم من عادات وتقاليد وقيم ولغة وغيرها.

سنة 1918 ولد أبو عاطف (والد مروان) وعاش حياة بؤس شديد حيث توفي والده مبكراً وكانت أمه في مقتبل العمر.

عايش والد مروان الحرمان مع أولاده قبل أن يأكل لقمة هنية، ولم تساعده معدته التي اكتوت من سوء الطعام وتعودت سوء الهضم مما سبب له قرحة معدية عاش آلامها وحُرم من أكل ما يشتهي خوفاً من نزفها. إذن كان الوالد خليط بين العامل والفلاح، بداخله ثورة بؤس بلا حدود، عامل نحيل الجسم صارع العمل وتعامل مع الحجارة حتى بانت على ملامح جسده من تجاعيد وكسور وصار جبينه خارطة متشابكة الخطوط.

كان مميزاً في قريته، فلاح بلا أرض، عامل دونما عمل، يُضرب وأولاده من ذوي القربى أمام زوجته. كل الناس كانوا في انتظار موسم الزيتون إلا أبا عاطف..؟ لاجئ في قريته بلا بيت يأويه مما جعله يلجأ إلى بيت لأحد الأولياء لا يجرؤ أهل القرية على العيش فيه لأنه مقام لقبور الأولياء أقيم وسط مقبرة مندثرة.

ويقول أخو مروان: «قلة هم الخيرون في تلك الأيام السوداء رغم أن أمي أرضعت العديد ممن شحت صدور أمهاتهم بلا مقابل طالبة من الله أن يعوضها خيراً.

وقفت أمي إلى جانب زوجها بكل معاني الوفاء فحصدت الزرع بأجر وجمعت الزيتون بأجر وكان مروان ينام في أرجوحة من القماش معلقة بجذع الزيتون بعيداً عن الزواحف في الهواء الطلق

إلى أن تفرغ أمي من إكمال يومها وتنتظر أياماً أو شهوراً حتى تحصل على أجرها زيتاً أو زيتوناً أو قمحاً لتطعم الأفواه المنتظرة لوجبة، أي وجبة. . نقل الماء على حماره للناس بأجر زهيد. . وحفر قبوراً لموتاهم. . لكن هذا كان عيباً عند من حرموه الحياة الكريمة دون أن يقدموا له ولو جزءاً من حصته من الأرض التي حرموه إياها، وبذلك ناضل أبو عاطف ضد الإحتلال والعبودية وهذا ما جعل مروان يسير على نهجه، فهو عانى من الإحتلال من ذوي القربى قبل الإحتلال الإسرائيلي».

ويضيف شقيق مروان: «قلة هم الخيرون في تلك الأيام السوداء، كنا نقف وأخواني بباب معصرة الزيتون ثروة الفلاحين الأولى ومقياس مكانتهم حسب تلك العقلية السائدة في عصر الانحطاط الفلسطيني ما بين الحربين العالميتين، نقف لنحصي لهذا وذاك كمية الزيت التي سيودعونها في براميلهم.

كنا فعلاً كالأيتام على مأدبة اللئام وقليلون هم الخيرون في ذلك الزمن الغابر. كنا لاجئين في قريتنا فلاحين بلا أرض، فلا قوائم اللاجئين استوعبتنا لنحصل على بعض المساعدة، وذلك لأن من تولى التسجيل ادعى النزاهة عندما ورد اسم أبو عاطف فقط، ولا أرضاً نمتلكها لنأخذ صفة الفلاحين، فكانت الصدقة جائزة على أبو عاطف ولم يحرمه منها إلا ذوي القربى لأنهم لم يتصدقوا أصلاً. وسط بحر الظلم هذا كان على أبو عاطف أن يثبت وجوده بعمله الشاق ولساعات طويلة وقد استطاع تأمين حياة كريمة لعائلته.

كنا نسكن غرفة واحدة، الأولاد الثلاثة وأبي وأمي وجدتي،

وضاقت الغرفة بالعائلة التي تنتظر مولوداً رابعاً هو مروان، لجأت العائلة إلى بيت عبارة عن مقام لأحد الأولياء الصالحين لم يجرؤ أهل القرية المبيت فيه لأنه أقيم فوق مقبرة قديمة. إلا أن والدتي المعروفة بجرأتها والتي يجزم البعض على أنها أكثر رجولة من الكثير من الرجال، بادرت إلى الدخول إلى البيت ونظفته ونقلنا الأثاث المتواضع الذي استوعبه ظهر حمار لرحلة واحدة أو رحلتين. هذا القصر الجديد عبارة عن غرفة واسعة على الطراز العربي القديم ولها قبة من الطين، المهم أن لها ساحة صغيرة وزرعنا فيها شجرة عنب كانت تظلل الساحة ليجلس ضيوفنا في ظلها وننام مع الجدة في الساحة تاركين الغرفة للوالدين للراحة ولعل الجو يصفى لهم بعد عناء النهار وهذه أبسط حقوقهم. في يوم كان يحتفل فيه الفلسطينيون بموسم النبي صالح ويوزعون الحلوى في صبيحة يوم مشرق بشمس دافئة من شهر أيار/مايو سنة 1959، يومها أبصر النور مولوداً أطلقت عليه اسم مروان.

مروان أكمل الدورة التي تطلقها أمي على رقم أربعة عندما تعد البيض أو الدجاج أو حبات البندورة. القابلة في القرية قالت لأمي ذلك اليوم لن تفرحي بأولاد آخرين بعد هذا المولود في هذا البيت. وفعلاً مات الإثنان اللذان ولدا بعد مروان دونما مرض.

كبرت العائلة وزادت الأعباء على أبي عاطف ووقع عليه الاختيار من كبار وجهاء القرية ليعمل مسحراتي لشهر رمضان. وهذه المهنة عادة يفوز بها الأفقر في القرية فكان أبي محظوظاً بهذا اللقب.

عاش أبو عاطف على خبز مختلف من بيوت مختلفة بطعم مختلف لكنها كانت مهنة مضنية جداً خاصة أثناء الشتاء والبرد القارص لأن عليه أن يجوب أطراف القرية المختلفة على قدميه كل ليلة مما يزيد آلام معدته المتعبة أصلاً.

ـ معاناة الأسرة:

في العام 1963 حصل تطور مهم في حياة أبي عاطف وأسرته كاد أن يودي بأمي إلى بيت والدها، فقد قام الوالد ببيع العنزة، ثروة العائلة، ليتمكن من الحصول على جواز سفر وأجرة سيارة إلى بيروت، لولا أن الوالدة تعقلت وأدركت أن والدها لا يحتمل وجودها عنده للعيش وأطفالها الأربعة الذين سيقاسمونه لقمة العيش. لكن قرار رب الأسرة حسم الأمر رغم قوة أمي التي أقنعها أن السفر سيعود بالخير على الأسرة. وكانت بيروت تشهد حركة عمرانية واسعة آنذاك. فذهب مع بعض عمال القرية الذين سبقوه في التجربة، وعمل حارساً هناك لإحدى العمارات المسكونة العائدة لإحدى العائلات البيروتية العريقة، التي أشفقت عليه وأكرمته بكل معاني الكرم الأصيل.

بدأنا نتلقى نقوداً كل شهر، ومع أنها كانت قليلة، إلا أنها سدت الحاجات الملحة من لبس وغذاء ودفاتر وأقلام. وكان أبو عاطف لا يقبل لأولاده أن يلبسوا ما يتمنون ويأكلوا ما يشتهون بينما هو محروم من ذلك.

وقد استمر ذلك إلى أن حصل زلزال مدمر، دمر الكيان العربي وخلخل الأرض وأزاح اللثام عن مؤامرة استهدفت الإنسان قبل

الأرض. فضاعت الأرض وهزم المواطن، ولكن ابن الثامنة من العمر، مروان كان أكثرهم هزيمة لبعده عن والده وإحساسه إنه لن يكون معنا مجدداً.

في ذلك اليوم المشؤوم، الخامس من حزيران/ يونيو 1967، أوصلنا الإعلام العربي إلى قلب تل أبيب، في الوقت الذي كانت الدبابات الإسرائيلية تجتاح القدس وكل الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان وسيناء في ساعات متسارعة، وفلول الجيوش العربية تستبدل ملابسها العسكرية بأخرى مدنية هاربة مذعورة أمام الآليات الإسرائيلية تاركة فلسطين بأكملها للغرباء المنتشين بالنصر، مدركين أنها أهديت لهم دون عناء.

كنا قد انتقلنا قبل النكسة بأيام إلى بيتنا الجديد: غرفتين من اللبن وكانت بمثابة قصر جديد للأسرة، لأنها المرة الأولى التي نملك فيها بيتاً يأوينا. وهذا البيت يبعد عن القرية حوالي الكيلومتر. فكان الوضع مخيفاً لدخول الجيش إلى القرية، مجدداً ذكرى المذابح التي حصلت في دير ياسين وبئر السبع وغيرهما لتهجير السكان. وأخذ البعض يهرب إلى الأردن، لكن والدتي أصرت على البقاء في البيت ورفضت أن ترحل وفضلت الموت على الرحيل.

كان لدينا كلب صغير يحرس البيت ويلعب معه مروان صديقه الوفي، لكن الجيش الغاصب أطلق النار على الكلب فقتله فوراً. وبكاه مروان بمرارة. كان ذلك هو المشهد الأول للقتل أمام أعين الطفل الصغير الذي فقد صديقه الوفي، فقام وأصحابه من الأطفال

بدفن الصديق قرب البيت. فقدنا الاتصال برب عائلتنا، ففقدنا مصدر قوت يومنا، وعدنا من جديد لا نشعر بفرحة العيد. وحدها حملت أم عاطف عبء الهزيمة لأن مسؤولية الأسرة قفزت من جديد. إلا أن الأخ الثالث عصام ترك المدرسة ليعمل في أحد المقاهي عله يوفر لنا الحد الأدنى من العيش، وكان في الثانية عشرة من العمر. وكان يحضر لنا بعض الاحتياجات كل شهر، إلى أن تم الاتصال مع والدنا من جديد. وأذكر أنه مرة أحضر أربع دجاجات مرة واحدة، ولم يكن لدينا ثلاجة، فغضبت أمي لأنها لم تتعود على هذا العدد. فقبَّل يديها قائلاً لا تغضبي، اليوم هو عيد الأم، وكان يدرك أن الوردة لا تشبع جائعاً. وعاد والدنا إلى البلاد بموجب قانون جمع شمل العائلات عام 1970 حاملاً بعض النقود التي جمعها، من عمله واشترى فيها بعض رؤوس الماعز، علها تساعدنا قليلاً وتوفر لنا الحليب واللبن والزبدة التي نبيع بعضها لنوفر الدفتر والقلم والسكر والشاي وغيرها.

- اعتقال مروان البرغوثي:

اختطف مروان البرغوثي على يد سلطات الإحتلال بتاريخ 15/ 4/ 2002م وسط مدينة رام الله بعد ملاحقة طويلة صاحبها حملات تحريض واسعة قامت بها حكومة الإحتلال بمؤسساتها الإعلامية وأحزابها اليمينية المتطرفة.

ولم يكن هذا الاعتقال هو الأول لمروان البرغوثي عضو المجلس التشريعي المنتخب وأمين سر حركة فتح في الضفة الغربية، فقد اعتقل عدة مرات منذ أن كان عمره 17 عاماً وجرب

كل أشكال الاعتقال من التحقيق واعتقال إداري وإقامة جبرية إلى أن تم نفيه من فلسطين عام 1987 خلال الانتفاضة الأولى.

ولا شك أن السجن صهر شخصية مروان البرغوثي وأبرزه كقائد سياسي لعب دوراً متميزاً في قيادة النضال الفلسطيني ضد الإحتلال الإسرائيلي عبر مراحل عديدة، منذ أن ترأس مجلس الطلبة في جامعة «بير زيت» وقيادة حركة المسيرة الطلابية حتى انتخابه في المجلس الثوري لحركة فتح وفي المجلس التشريعي الفلسطيني.

ولا أود أن أتناول التجربة التقليدية السابقة لاعتقال مروان البرغوثي التي تتشابه مع تجارب الآلاف المؤلفة من أبناء الشعب الفلسطيني الذين زجوا بين قضبان السجون، ففي تجربة اعتقاله الأخيرة خلال انتفاضة الأقصى شيئاً مختلفاً وذو دلالات ومعاني نضالية وثقافية وسياسية، ومن هنا سأركز على مروان البرغوثي الرجل المختلف القابع الآن في زنزانته الانفرادية وحيداً تحت الأرض معزولاً عن العالم، ولكنه في ذات الوقت ليس وحيداً، له صدىً ما زال يملأ الأرض ويزعج الأعداء، وحالة الاشتباك معه ما زالت متواصلة برغم القيود والجلاّدين والإجراءات التعسفية القاهرة.

ـ مروان القائد المختلف:

كان لصوت مروان البرغوثي منذ اندلاع انتفاضة الأقصى تجاوباً شعبياً منقطع النظير تغلغل في عقول وقلوب الناس، حيث امتاز خطابه السياسي بالواقعية والقدرة الخلاّقة على تحديد هدف الانتفاضة تحت عنوان إزالة الإحتلال عن الأرض الفلسطينية وتحقيق

حلم الدولة الفلسطينية في حدود قرارات الشرعية الدولية. . . وفي خطاب الجرأة والصدق الذي تحلّى به مروان البرغوثي توسّعت دائرة الالتفاف حول هذا القائد الجماهيري لتتجاوز الإطار الفلسطيني إلى الإطار العربي والدولي، ليصبح خطابه عبارة عن برنامج نضالي مكثّف للانتفاضة ولنضال الشعب الفلسطيني بعيداً عن الغوغائية والشعارات الرنّانة. ولا غرابة أن صوت مروان البرغوثي لقي أيضاً صدىً وفعلاً حتى في الوسط الإسرائيلي عن جدوى استمرار إحتلال شعبٍ آخر وانتهاك كرامته.

لقد أحرج مروان البرغوثي الكثيرين، ووضع النقاط على الحروف بعد أن كشف أن ما يخطط للشعب الفلسطيني هو سجن كبير يسمّى الدولة، لا وظيفة لهذا الشعب سوى حراسة الأمن الإسرائيلي، ولا قدرة له على التحكّم بمياهه وثرواته وحدوده وسمائه. إن واقعية مروان أسقطت الخرافة الإسرائيلية اليمينية، وكشفت زيف الكثير من المفاهيم الخادعة التي عُبِّئ بها المجتمع الإسرائيلي تحت إدعاءات تدمير دولة إسرائيل عندما قالت أن الشعب الفلسطيني لا يطلب المستحيل ولا يريد تدمير أحد، يريد أن يعيش بسلام وتعايش في دولة إلى جانب دولة إسرائيل، وأن السلام لن يتحقق بدون إنهاء الإحتلال. إنه يريد أن يكون شعباً طبيعياً يمارس حياته أسوةً ببقية شعوب العالم. ولأن مروان أراد أن يحطّم نظرية الاستخفاف من الآخرين في الوسط الإسرائيلي ورؤية الحياة والسلام من خلال الأمن فقط فإن جنرالات الحرب في إسرائيل أدركوا بأن بقاء هذه الروح المندفعة في الانتفاضة الفلسطينية تشكّل خطراً حقيقياً على حساباتهم السياسية ومخططاتهم

الإستراتيجية وعقائدهم الأيديولوجية. فكان لا بدّ من اعتقال هذه الروح وحصارها وعزلها بعد أن فشلوا في محاولة قتله واغتياله، وكان الاعتقاد في حكومة إسرائيل أن اعتقال مروان سيكسر البعد الروحي والرمزي والثقافي للانتفاضة ويجهضها ويحوّلها إلى حطام.

لقد أراد شارون باعتقال مروان البرغوثي أن يعتقل الانتفاضة التي عجز عن إطفاء شعلتها بالوسائل الحربية والعسكرية، وأن محاكمة مروان هي محاولة لإدانة النضال الفلسطيني ومحاكمة أهدافه المشروعة في زوال الإحتلال عن الأرض الفلسطينية، وأستطيع القول بأنها محاكمة لصوت الانتفاضة، وهي حربٌ أخرى عنيفة بوسائل مختلفة ولكن داخل قاعة المحكمة.

ـ أمام الجلاد:

لم تحترم حكومة الإحتلال المكانة الرمزية والاعتبارية والقانونية لمروان البرغوثي بصفته عضو مجلس تشريعي منتخب، بل كشفت مدى انحطاطها الأخلاقي والسياسي في التعامل مع مروان البرغوثي خلال مائة يوم من التحقيق في معتقلي المسكوبية وبيتاح، وقضى منها ما يزيد عن التسعين يوماً مشبوهاً مكبّل اليدين والقدمين، ومنع من النوم ومورس بحقّه التعذيب والإهانة والضغوطات الجسدية والنفسية والعصبية، إضافة إلى حصاره بمنع زيارة المحامين له لفترة طويلة.

لقد سجل مروان البرغوثي خلال المرحلة الطويلة، وهي الحد الأقصى في أقبية التحقيق، موقفاً نوعياً فريداً يتمثل برفض التجاوب مطلقاً مع المحققين والتهم التي يوجهونها له مصراً أنه رجل سلام

ومناضل حرية وأن الإحتلال هو سبب الكوارث ليس على الشعب الفلسطيني فقط بل على المجتمع الإسرائيلي أيضاً.

لم يستطع الجلاّدون انتزاع أية كلمة من مروان البرغوثي، ولم يسمعوا منه سوى موقفه السياسي كقائد يسعى لإنهاء الإحتلال وتحقيق السلام بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي. وقد بذل المحققون جهداً كبيراً بالعنف والقوة وسياسة الإذلال بحق مروان من أجل حصر التحقيق في الجوانب الأمنية فقط، ولكنهم فشلوا أمام قدرة مروان على إعطاء الطابع السياسي لاعتقاله. وفي الوقت الذي حاول فيه المحققون توجيه التهم لمروان البرغوثي كان ردّه أنه مختطف من مناطق السلطة الوطنية الفلسطينية ولا صلاحية لدولة إسرائيل باعتقاله واستجوابه ومحاكمته.

ويستدلّ من تجربة مروان البرغوثي في التحقيق على معانٍ عديدة من بينها:

أولاً: قاوم محاولة إذلاله وإهانته أمام شعبه وظلّ قوياً، دحض الإدعاءات والإشاعات التي نشرتها الصحافة الإسرائيلية عن اعترافه وانهياره في التحقيق.

ثانياً: أسقط مروان بصموده في التحقيق الحسابات السياسية الشريرة لشارون الذي كان يفتش عن أسباب تبرر إجراءاته القمعية والإجرامية بحق مؤسسات السلطة الفلسطينية والرئيس ياسر عرفات وحركة فتح.

ثالثاً: أعطى مروان نموذجاً وقوة للإنسان الفلسطيني الحقيقي عندما واجه المحققين وأسطورتهم الأمنية بكل إرادة وشموخ برغم

أساليب التعذيب القاسية التي مورست بحقّه، برفضه الاعتراف والتعاطي مع التهم المزعومة التي وجّهت إليه، بالرغم من أن الغالبية من المعتقلين وعددهم لا بأس به من ذوي التجارب الاعتقالية السابقة قدموا اعترافات أمام المحققين أثناء التحقيق معهم.

رابعاً: استطاع مروان أن يحرّف مسار التحقيق بصموده من المسار الأمني الذي أراده المحققون إلى المسار السياسي بعدم اعترافه أساساً بأحقية الإحتلال باعتقاله واستجوابه، وأنه أُحضر إلى التحقيق بالقوّة والعنف.

ـ محاكمة دولة إسرائيل:

القارئ للائحة الاتهام الموجّهة إلى مروان البرغوثي يكتشف فوراً أنها قد تكون أول لائحة اتهام تقدمها محكمة عسكرية إسرائيلية بهذا الشكل والمضمون بحق معتقل فلسطيني، فهي لائحة يتضح من مقدمتها الأهداف السياسية من وراء تقديم مروان البرغوثي إلى المحاكمة. فقد بدأت اللائحة بنصوص عامّة وليس ببنود إدانة قانونية في إلصاق تهمة «الإرهاب» بالانتفاضة الفلسطينية، وكأن اللائحة تعترف أن محاكمة مروان هي محاكمة للنضال الفلسطيني المشروع ضد الإحتلال ومحاكمة للقيادة الفلسطينية ومواقفها وأساليب كفاحها.

استطاع مروان خلال جلسات محاكمته أن يحوّل هذه المحكمة إلى منبر لمحاكمة دولة إسرائيل وإدانة سياستها القمعية والإجرامية بحق الشعب الفلسطيني، وذلك من خلال ردوده على الإدعاءات المقدّمة في لائحة الاتهام متمثّلة بما يلي:

1 ـ عدم صلاحية المحكمة بمحاكمته موضحاً بأنه اختطف واعتقل وأحضر إلى دولة إسرائيل بصورة غير قانونية، وأن تقديمه لهذه المحكمة يتنافى مع القانون الدولي الإنساني ومع إتفاقيات أوسلو الموقّعة بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي.

2 ـ لائحة الاتهام المقدمة هي محض دعاية متطرّفة وتحريض ضد كفاح الشعب الفلسطيني العادل وتشويه هذا الكفاح مع تجاهل كل العناصر الأساسية للنزاع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، وخاصّة وجود الإحتلال وجرائمه.

3 ـ إن دولة إسرائيل لا تملك صلاحية محاكمة زعماء الشعب الفلسطيني الذين يؤدّون دورهم التاريخي بإزالة الإحتلال عن أرضهم وأن الوسيلة التي ينتهجها هي الحوار وأنه يعمل في إطار حركة فتح من أجل حرية شعبه.

4 ـ رفض مروان سماع لائحة الاتهام بالمطلق، ورفض سماع المحكمة قائلاً أنه تم إحضاره لهذه المحكمة بالقوة، رافضاً أيضاً توكيل محامٍ لتمثيله أثناء جلسات هذه المحكمة مصراً أنه مُختَطَف وأن محاكمته تجري بقوة الإحتلال وليس بقوة القانون.

5 ـ أحدثت مواقف مروان خلال جلسات المحاكمة حالة استقطاب على المستوى المحلي والإقليمي والدولي والإسرائيلي تمثّل في قدوم العديدين لحضور جلسات المحاكمة وإعلان تضامنهم معه، إضافةً لوسائل الإعلام

المتعددة مما جعل من محكمة مروان منبراً لسماع موقفه السياسي الذي يؤكّد تمسّكه بالسلام بين الشعبين والقائم على إزالة الإحتلال.

6 ـ إن موقف مروان بعدم الاعتراف بشرعية المحكمة الإسرائيلية في محاكمته يعتبر تطوراً نوعياً وانقلاباً جذرياً في استعادة الأسرى لأحد حقوقهم الأساسية التي دمرتها سلطات الإحتلال، وكأن مروان بذلك ينتزع الحق القانوني والإنساني للأسرى الفلسطينيين بصفتهم أسرى حرب حسب إتفاقية جنيف الثالثة والرابعة، والتي لا تعترف بها إسرائيل. هذا الحق لا يمنح سلطات الإحتلال محاكمة أسرى حركة التحرر الوطني، وبذلك فإن مروان البرغوثي ردّ على التهم الموجهة إليه والتي تتهمه بالقيام بأعمال «إرهابية» بأنه مناضل حريّة ومقاتل قانوني، وأن هذه المحكمة باطلة وغير شرعية أساساً، وموقف مروان هذا التقطه جميع المعتقلين بسرعة، وبدأت المحاكم العسكرية الإسرائيلية تشهد مواقف العديد من الأسرى الذين رفضوا سماع لوائح الاتهام أو الوقوف في قاعة المحكمة معلنين عدم شرعيتها.

ربما لم تتوقع حكومة شارون أن تأخذ محاكمة مروان هذا المنحى. ولم تتوقع أن تتحول هذه المحكمة إلى مكان يصرخ فيه أسير فلسطيني في وجه العالم قائلاً أعطوني السلام العادل، وليرحل الإحتلال رافعاً يداه المكبلتان بشارة النصر، قوياً، واثقاً، ومتحدياً.

إنه يدين الإحتلال وأعماله الإجرامية بحق الشعب الفلسطيني وأكثر من ذلك يقف مدافعاً صلباً عن حق الشعب الفلسطيني في مقاومة الإحتلال رافضاً أن توصف هذه المقاومة بالإرهاب. إن مروان البرغوثي يحمي تاريخ الثورة الفلسطينية بكل تضحياتها وبطولاتها وشهدائها من الشطب والتزوير والتشويه.

ـ لا زالوا خائفين:

مرّت أعوام على اعتقال هذا العملاق المعزول في زنزانة انفرادية في قسم العزل في سجن الرملة، الذي يسمّى «أيلون» محروماً من زيارة أبنائه وزوجته بقرار من وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي. لقد تم عزله بشكل تام عن باقي الأسرى في ظروف قاسية جداً، محروماً من كل حقوقه الإنسانية.

والزنزانة التي يعيش فيها مشيّدة تحت الأرض منذ زمن الإنتداب البريطاني، مليئة بالتراب والحشرات، ولا تحتوي على أية وسائل تهوية ولا تتجاوز مساحتها 1,5 × 2 م. ويخضع مروان في هذه الزنزانة للعديد من الإجراءات القمعية من قبل إدارة المعتقل من حيث التفتيش اليومي ومصادرة أغراضه الشخصية وتعرضه لإهانات السجانين ولا يسمح له بالخروج من زنزانته سوى ساعة واحدة يومياً يكون خلالها منفرداً ومكبل اليدين والقدمين.

إن إقدام حكومة شارون على محاصرة مروان البرغوثي وعزله عن العالم وفي ظروف قاسية زنزانة تشبه القبر لا يميز فيها الليل من

النهار يشير ذلك إلى أي مدى ما زالت هذه الحكومة تخشى من مروان البرغوثي وصوته الحي حتى بعد اعتقاله.

إن ما يجري بحق مروان هو مخطط إسرائيلي رسمي يهدف إلى القتل البطيء لمروان وإعدامه بدون حبل مقصلة بعدما فشلت كل الوسائل الأخرى من إخماد الروح النضالية والثورية في مروان البرغوثي، الذي لم يعد فرداً بل أصبح حالة جماعية تعدت محيطها الفلسطيني إلى المحيط العالمي.

وتخشى حكومة إسرائيل من صراخ مروان، لأن في كل صرخة يطلقها في أي فرصة تتاح له إدانة لحكومة إسرائيل ولأعمالها العدوانية بحق الشعب الفلسطيني ووسيلة لكشف هذه الجرائم أمام العالم.

نعم لا زالوا خائفين... لم يكتفوا باعتقاله كبقية المعتقلين... أدخلوه إلى زنزانة تحت الأرض، ومع ذلك فالأرض تهتزّ وتتحرّك... والحقيقة التي لا يريد حكام إسرائيل سماعها هي أن الذي يتحرك ليس مروان الشخص بل الفكرة والقضية التي حملها مروان ويضحي من أجلها، فهي أكبر من زنزانة وأوسع من قاعة محكمة وأعلى من صوت الجلاد. إنه الجيل الفلسطيني قرر أن يحمي حياته ومستقبله من أنياب بقاء الإحتلال.

ـ لو صدّقوا مروان:

في العاشر من أيلول/ سبتمبر عام 2002 أدلى مروان البرغوثي بتصريح من داخل المعتقل قال فيه إن الذي يفتح باب التهدئة مع

الجانب الإسرائيلي هو إنهاء الحصار والإحتلال والاغتيالات وهدم البيوت والاعتقالات وكل أشكال العدوان، وأضاف إن أقصر الطرق للسلام والأمن هو إنهاء الإحتلال وإقامة الدولة الفلسطينية وحل قضية اللاجئين على أساس القرار 194.

وكان رد حكومة شارون على هذه التصريحات المزيد من العدوان والاعتقالات وبناء المستوطنات، معتقدة أن منطق القوة سيكسر الانتفاضة وأن المصفحات الضخمة التي أرسلتها إلى المدن والبلدات الفلسطينية ستطفئ روح مقاومة الإحتلال. ليفاجأ الجميع بتصريحات شارون التي أكّد فيها على ضرورة إنهاء الإحتلال والسيطرة على ثلاثة ملايين ونصف فلسطيني وتقسيم ما يعتبره أرض إسرائيل بين الشعبين. ليشكّل هذا التصريح بعد أعوام طوال من الإحتلال والعدوان المتواصل على الشعب الفلسطيني اعترافاً رسمياً إسرائيلياً من قبل أكثر زعماء إسرائيل تطرفاً وإنكاراً لحقوق الشعب الفلسطيني بفشل سياسة العدوان والاغتيال والحصار والاعتقال وإعلاناً عن فشل الإحتلال ووصوله إلى طريق مسدود.

لقد وصل شارون إلى النتيجة الحتمية التي تنبّأ لها مروان البرغوثي. لكنهم لم يصدّقوه واعتبروه إرهابياً فلاحقوه واكتشفوا أخيراً أنهم يلاحقون خيبة المدفع الذي لم يجلب السلام، وخيبة الوهم العسكري في السيطرة على شعب آخر.

«فلماذا إذاً تحاكمونني وقد اعترف شارون بأن إسرائيل دولة إحتلال؟». وقف مروان البرغوثي أمام محكمة تل أبيب يوم 2/ 6/ 2003 مطالباً أن يعتذر شارون من الشعب الفلسطيني على ما ارتكب

الإحتلال من جرائم بحقه خلال ثمانية وخمسين عاماً من الإحتلال.

ـ سيرته ومحاولات اغتياله:

ينظر الفلسطينيون والعالم إلى البرغوثي المولود عام 1959 في قرية كوبر قضاء رام الله باعتباره مهندس انتفاضة الأقصى وعقلها المدبر ورمزاً لمقاومة الإحتلال.

وفي سيرة هذا القائد الذي قال عنه رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون أنه كان يفضل موته على اعتقاله ما يكفي من الدلائل والبراهين على أنه قد ولد بالفعل من أجل مقاومة الإحتلال.

اعتُقل البرغوثي خمس سنوات 1978 ـ 1982 ثم التحق بجامعة بيرزيت لدراسة التاريخ والعلوم السياسية وانتخب رئيساً لمجلس الطلبة لثلاث سنوات متتالية، وعمل خلال تلك الفترة على تأسيس منظمة الشبيبة الفتحاوية في الأراضي الفلسطينية.

اعتُقل عدة مرات خلال الأعوام 1984 ـ 1986 وفُرضت عليه الإقامة الجبرية التي انتهت بمطاردته وإبعاده إلى خارج الوطن بقرار من وزير الدفاع الإسرائيلي اسحاق رابين في منتصف العام 1986.

عمل البرغوثي بعد إبعاده مباشرةً إلى جانب أبي جهاد الذي كلفه العمل في اللجنة العليا للانتفاضة في «منظمة التحرير الفلسطينية» وعمل كذلك في اللجنة القيادية لفتح في القطاع الغربي.

في العام 1989 وفي المؤتمر العام لحركة فتح أُنتخب البرغوثي عضواً في المجلس الثوري وكان في ذلك الوقت الأصغر سناً بين الأعضاء.

في نيسان/أبريل عام 1994 عاد مروان البرغوثي إلى فلسطين مع بداية تأسيس السلطة الوطنية الفلسطينية وشغل أمين سر الحركة العليا في الضفة الغربية التي كان رئيسها المرحوم فيصل الحسيني، ونشط بشكل بارز في الإشراف على بناء حركة فتح وخاصة مسيرة عقد المؤتمرات الحركية.

في العام 1996 أُنتخب البرغوثي عضواً في المجلس التشريعي وعمل في إطار اللجنتين القانونية والسياسية وعُرف بتصميمه على فصل السلطات الثلاث وإستقلاليتها ودفاعه عن التعددية السياسية وحقوق المواطن ومشاركة المرأة ودعم الفئات المحتاجة ودعوته لتحريم الاعتقال السياسي ومحاربته الفساد. وترأس البرغوثي أول صداقة برلمانية فرنسية ـ فلسطينية.

يحمل البرغوثي شهادة البكالوريوس في التاريخ والعلوم السياسية ودرجة الماجستير في العلاقات الدولية، وعمل حتى اعتقاله الأخير محاضراً في «جامعة القدس» في أبو ديس.

قبل اندلاع انتفاضة الأقصى وأمام تعنت إسرائيل وفشل إتفاق أوسلو، تبنى البرغوثي رؤية سياسية تقوم على الجمع بين المقاومة والمفاوضات.

تم اعتقاله يوم 15/ 4/ 2002 وحينها قال شارون «أنه كان يأسف لإلقاء القبض عليه حياً وكان يفضل أن يكون رماداً في جرة». أما شاوول موفاز وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك فقد علق على اختطاف البرغوثي بالقول «إن اعتقال البرغوثي هو هدية عيد الإستقلال التي يقدمها للشعب الإسرائيلي وإن اعتقاله ضربة قاتلة للانتفاضة».

في السادس من حزيران/ يونيو عام 2004 وهو عيد ميلاد البرغوثي حكم عليه بالسجن المؤبد خمس مرات أربعين عاماً، وردّ البرغوثي على قرار المحكمة بالقول «إذا كان ثمن حرية شعبي فقدان حريتي فسأدفع هذا الثمن».

وشكل البرغوثي حالة تحدي لسلطات الإحتلال ولجهازها القضائي عندما رفض الاعتراف بشرعية المحكمة الإسرائيلية وبقوانينها ومزق لائحة الاتهام معتبراً نفسه مناضل حرية لا يحق لهم محاكمته واعتقاله وتحولت جلسات محاكمته إلى محاكمة للإحتلال.

انتخب مروان البرغوثي نائباً في المجلس التشريعي على رأس قائمة حركة فتح في الانتخابات التي جرت يوم 25/ 1/ 2006 ومن داخل زنزانته رقم 28 رفع البرغوثي شعاره الديمقراطي الشهير المعبر عن الوحدة الوطنية وتجسيد التعددية السياسية «شركاء في الدم شركاء في القرار» وخلال انتخابات التشريعي رفع شعار «شركاء في الميدان شركاء في البرلمان».

وظلت كلمات مروان البرغوثي تصدح في عقول ونفوس الجماهير، كسر السجن والصمت واحتل مساحة واسعة كقائد شعبي وجماهيري مميز ومحبوب وهو القائل «إن يوم دفن الإحتلال وتشييع جنازته إلى مقبرة الفاشية والنازية والإرهاب والعنصرية أقرب مما يعتقد البعض، وإن نفس اليد التي أُطلقت الرصاصة الأولى على الإحتلال ستطلق الرصاصة الأخيرة عليه، وإننا سننتصر طال الزمان أم قصر. . .».

اعتُقل نجله قسام عام 2003 ويقبع في سجن عوفر العسكري. ويقول عنه كافة من التقوه من مسؤولين وصحافيين إنه يمتلك شحنة عظيمة وهائلة من التفاؤل والأمل وما زال يحتل دور جنرال الانتفاضة ويقف على الخط الأول.

ـ محاولة الاغتيال:

تعرض مروان البرغوثي إلى أكثر من محاولة اغتيال خلال انتفاضة الأقصى وكان أبرزها المحاولة التي تعرض لها يوم السبت في 4/ 8/ 2001 ولكنه نجا بأعجوبة وأصيب مرافقه الشخصي إصابات خطيرة.

ـ معجزة النجاة:

كانت سيارة البرغوثي والسيارة المرافقة لها قد وصلت أمام مكتبه في رام الله عندما استهدفها الصاروخ الأول وأخطأها، أما الصاروخ الثاني فأصابها وحولها إلى كتلة من الحديد.

وقال خالد عيسى أحد شهود العيان إن البرغوثي كان قد ترجل للتو من سيارته واتجه إلى مكتبه عابراً الشارع وبعدها سقط الصاروخ الأول أمام سيارته.

وذكر عيسى أنه رأى الصاروخ الثاني ينطلق ففر إلى الاحتماء بالمنازل. وقالت مصادر طبية في مستشفى رام الله إن أبو حلاوة أصيب بحروق وجروح نقل على أثرها إلى المستشفى وهو في حالة مطمئنة.

الفهرس



مركز الشرق الأوسط الثقافي